أسرار القرآن

الجزء الرابع

للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم.

مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة
ومشيخة الطريقة العزمية
السيدة زينب : تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع بورسعيد

تليفون المكتبة/

002 022 3901030

طبع بِإذن من

السيد عز الدين ماضى أبو العزائم عليه السلام

قوله تعالى: كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿٩٣﴾

سبب نزول هذه الآية أن اليهود- قبحهم الله- كانوا يتربصون برسول الله﴿ﷺ وآله﴾ أن يعمل ما يخالف التوراة على زعمهم،فلما أكل ﴿ﷺ وآله﴾ هو وأصحابه لحم الجمل، والعروق من لحوم الحيوانات الأخرى، أنكروا عليه ذلك وقالوا:إن لحم الجمل محرم فى التوراة،وكيف يحل ما حرمته التوراة؟ فقصم الله ظهورهم بالحجة .

﴿ **كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ**﴾ ومعنى ذلك أن كل طعام يطعمه الإنسان لم يحرمه الله تعالى فيما سبق تحريمه فى الكتب السماوية كما حرم لحم الخنزير،وأكل الميتة،والمسروق،والمغصوب،والربا،ومال اليتيم، وما حرم من المشروب: كالخمر، والماء النجس،وغيرهما،وذلك معلوم بالتواتر من لدن نوح فمن بعده. والله تعالى لم يحرم شيئا على إسرائيل من كل الطعام المباح.لكن إسرائيل- وهو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم- مرض بعرق النساء، فكان ذلك يؤذيه ليلا ويستريح منه نهاراً، فنذر لله نزرا أنه إذا شفاه منه يترك لحم الجمل لله- وكان أشهى طعام يطعمه- فشفاه الله منه، فحرمه على نفسه. وتحريم العبد على نفسه شيئا لم يحرمه الله لا يجعل ذلك الشيء حراماعلى غيره، وقد جاء أعرابى إلى ابن عباس رضى الله عنهما فقال: إنى جعلت امرأتى حراما، قال: ما كان لك أن تحرم ولا أن تحل، فإن الذى يحل ويحرم هو الله تعالى.

أقام الله الحجة بقوله تعالى:﴿ **قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ إثباتا لأن التوراة لم يحرم الله فيها أكل لحم الجمل،ولكنهم- جهلا من أنفسهم- حرموا عليهم ما حرمه إسرائيل على نفسه وفاء لنذره، فأثبت الله تعالى جهالتهم، وعمى بصائرهم،وأنهم أضل من الجاهلية الأولى لاقتدائهم بأعمال آبائهم من غير بصيرة كما قال تعالى مشنعا على كفار قريش:﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾(١) مع قيام الحجة ووضوح المحجة، وصدق الله العظيم فى قوله تعالى:﴿ **وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا**﴾ (٢) . (إلا ما حرم إسرائيل على نفسه) والاستثناء هنا مفرغ. والمعنى: لكن ما حرم إسرائيل على نفسه فهو حرام عليه خاصة وليس من أحكام التوراة فى شيء . (من قبل أن تترل التوراة) . ذلك لأن يعقوب بن إسحق كان فى زمن إبراهيم عليهم السلام، وبين يعقوب وموسى عليهما السلام قرون طويلة. و لم تأت التوراة بتحريم الجمل، فإن اليهود – قبحهم الله- لو تحققوا أن هذا الحكم فى التوراة لطاروا به وشنعوا، ولكن قطع الله ألسنتهم بالحجة الدامغة.ولما لم يأتوا بالتوراة ثبت كذبهم، وانتفى صدقهم. وقد شدد الله على اليهود وحرم عليهم ما أحله لغيرهم، والأنواع التى حرمها عليهم بينها سبحانه بقوله تعالى:﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾(١) .

قوله تعالى: فَمَنِ افْتَرَىَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾

---

(1) سورة الزخرف آية ٢٣.

(٢) سورة الكهف آية ١٧.

(٣) سورة الأنعام آية ١٤٦

هذه الآية الشريفة أنزلها الله ليقصم بها ظهور اليهود،ويثبت افتراءهم الكذب على الله فيما ادعوه أن التوراة حرمت لحم الإبل وألبانها، وأكل عروق اللحوم كلها، وأقام الحجة القاصمة لظهورهم على قولهم. ﴿**فَمَنِ افْتَرَىَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ**﴾الآية. ومعناها أن من ظهر كذبه منا أو منهم بعد تلاوة التوراة ﴿ **فَأُوْلَئِكَ**﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، واسم الإشارة عائد إلى من ثبت افتراؤه بعد تلاوة التوراة ﴿ **هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ أى : هم الكافرون الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بسبب الكذب على الله وعناد نبيه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ .

قوله تعالى: قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

﴿**قُلْ صَدَقَ اللّهُ**﴾ أى : قل يا محمد لليهود الذين ثبت كفرهم بالله وبك: صدق الله فيما بينه لنا من أنه سبحانه لم يحرم لحوم الإبل وألبانها، ولا عروق اللحوم الأخرى بنص صريح فى التوراة، ولا فيما قبلها من صحف الخليل وغيره، وأن الذى حرمها على نفسه هو ابن إسحٰق عليهما السلام للسبب الذى بيناه قبل. وإن كان يعقوب حرمها على نفسه وعلى أولاده، فذلك تحريم خاص لا يتعداهم إلى اليهود،ودعوى اليهود من معاصرى الرسول ﴿ ﷺ وآله﴾ أن ذلك نص التوراة باطل. فصح أن لحوم الإبل وألبانها وعروق اللحوم طعام مباح لكل إنسان .

﴿**فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا** ﴾ ومعنى هذه الآية–إذا تقررت تلك الحجة ووضحت بها المحجة– فالواجب على اليهود جميعا أن يتبعوا ملة إبراهيم حنيفا، أى: الدين الذى شرعه له ولقومه. (حنيفا) أى : قيما . ولما كان دين إبراهيم الإسلام، وكان رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ دعوة الخليل، وهو الذى سمى لنا ديننا وسمانا بالمسلمين فى أيامه قبل بعثة موسى وعيسى عليهما السلام، وكان إبراهيم على ما

يدعى اليهود جدهم، وهو الرسول الكريم الذى يستندون إليه، ويزعمون بالباطل أنهم على دينه، دعاهم الله إلى ما تنجذب إليه قلوبهم لو سبقت لهم من الله الحسنى، حيث لا تحصل منازعة منهم، ولا تقوم لنفوسهم النزاعة إلى الشر حجة بعد هذا .

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾يعنى أنه﴿ ﷺ وآله﴾ كان مسلما رسولا من أولى العزم، لم يحصل منه شك ولا ريب، ولم يكن فى نفس من الأنفاس مشركا مع من أشرك بالله . وكيف ذلك وهو خليل الله تعالى؟! وبتلك الحجة أخزاهم الله، وأذلهم، ولعنهم، وأبعدهم . ولا يزالون على ما هم عليه من محاربة الحق وكفران النعمة، حتى أذلهم الله وأخزاهم، وأرانا فيهم ما يسر كل مسلم، هم وجميع أعداء الله من بنى الأصفر وغيرهم .

قوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾

سبب نزول هذه الآية– على فرض صحة تحويل القبلة قبل نزولها — أن الله تعالى يحكم بكذب اليهود الذين قالوا: إن بيت المقدس أفضل من الكعبة، وأنه قبلة الأنبياء جميعاً، فرجوع محمد﴿ ﷺ وآله﴾ إلى الكعبة سببه رجوع إلى دين قومه. هذا القول فرية على الحقائق. وجائز أن يكون سبب نزولها أن اليهود والنصارى كانوا يدعون أنهم على ملة إبراهيم، فأثبت الله كذبهم، وأقام الحجة عليهم بأن إبراهيم هو الذى بنى الكعبة، وأن أتباعه فى دينه لا يخالفونه، فإن من أركان دينه الطواف بالكعبة والحج إليها . وجائز أن يكون تشريف الكعبة وتعظيمها بيان فريضة الحج وواجباته وسننه وحكمه .

﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ**﴾ ومعنى هذه الآية أن الله سبحانه أخبرنا بأن أول بيت وضع للناس هو الذى ببكة، ونحن نؤمن بخبر الله تعالى ونعتقد أن الواضع له هو سبحانه، أو هم الملائكة بإذنه، أو آدم بأمره . كما ورد ذلك فى آثار بأسانيد صحيحة، رواها ابن جرير الطبرى . ومتى أخبرنا الله بأن أول بيت وضع للناس هو الذى ببكة، وجب على كل مسلم أن يسلم لله تسليما معتقدا أنه أول بيت وضع بناءً، ووضع عاما للناس، ووضع مباركا وهدى للعالمين، وأنه لا يشاركه فى الأولية أى بيت، سواء وضع عاما، أو وضع خاصا. وليس هناك دليل نقلى أو عقلى يثبت به أن أولية هذا البيت فى كونه عاما ومباركا وهدى إلا فى بنائه . أما بيت المقدس فقد بنى بعد موسى بزمان طويل، والذى شاده هو داود عليه السلام، أو إيليا .ومعنى(بكَّة) مصادمة بعض الناس ببعض من شدة الزحام كما يحصل ذلك فى المطاف وفى الحرم، أما البلد نفسها فتسمى مكة .

﴿**مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ**﴾ أى: فضله الله بالبركة والهدى للعالمين، فخص الله البيت بالبركة والهدى. وأما فى بيت المقدس فجعل البركة حوله، قال سبحانه: ﴿**بَارَكْنَا حَوْلَهُ**﴾(١) وجائز أن تكون البركة ما يحصل للطائفين به من الشوق إلى الله تعالى، ومن زيادة الإيمان والرحمة والعلم بالآثار، وأخبار العالم التى تشجع على الإنابة إلى الله تعالى، والإقبال عليه جل جلاله .

﴿**مُبَارَكًا وَهُدًى**﴾ حالان . ﴿**وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ**﴾تقدم أن بينت لك أن أنواع الهداية أربعة . منها الهداية إلى الجنة، بدليل قوله تعالى مخبرا عن أصحاب الجنة: ﴿**الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا** ﴾(٢) فكأن الحج يهدى المسلم إلى الجنة .

---

(١) سورة الإسراء آية ١.

(٢) سورة الأعراف آية ٤٣.

وجائز أن تكون الهداية بما يحصل من مجالسة العلماء والأتقياء فى أيام الحج، ومن تلقى علومهم وأسرارهم هناك . وفى قوله :﴿ لِّلْعَالَمِينَ﴾ دليل على أن الله وضعه للناس جميعا وللملائكة .

قوله تعالى : فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾

﴿**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ**﴾ تلك الآيات البينات حسية ومعنوية . أما المعنوية : فهو ما يتفضل الله به على الوافدين على بيته من الآفاق البعيدة من انشراح صدورهم، وطمأنينة قلوبهم، ومزيد سرورهم بوصولهم إليه. ووضوح الأسرار الغيبية المؤمنين بها. وتقوية روابط التوادد والتراحم بين المسلمين هناك، وقبول الله توبة العصاة وأعمال المطهرين، وكون الصلاة فيه بألف صلاة فى غيره، والصدقة فيه بألف صدقة فى غيره، وحفظ الحاج من دواعى الحظ والهوى والشهوة، فإن الطائف فى طوافه حال البك–أى حال المصادمة من الزحام– لا يشعر الرجل بالمرأة ولا المرأة بالرجل، بما ورد على القلب من نور الإحسان الساطع على القلوب. أما الآيات الحسية : فتيسير الله الخير لعماره وحجاجه، وأن هذا البيت الشريف لا يعلوه طير مع وفرة حمامه، وشيء آخر : هو أن البيت يحجه فى كل عام مع التوسط أربعمائة ألف حاج⁽¹⁾، والكل يرمون الجمار، وقد مضت القرون الطويلة ولا تجد هناك حصاة ! ومن آياته أن الله يسرع بالنقمة من كل ظالم وملحد فيه . وقد رأينا بأعيننا مثل الشريف حسين الذى أقام نفسه ملكا على الحجاز فظلم فيه،

---

(١) كان ذلك عند إملاء الإمام أبى العزائم رضى الله عنه لهذا التفسير.

فإن الله تعالى لم يمهله . وغير ذلك من الآيات التى تعلمها الأرواح الطاهرة، وتشهدها العيون التى تنظر بنور الله تعالى .

وقد روى : ﴿ **فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ**﴾ .

﴿ **مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ** ﴾وهو المكان الذى كان يقيم فيه إبراهيم عليه السلام للعبادة، وقد تعين بالسور الذى عليه وإن كثيرا من الحجاج يجتهد أن يصلى داخله فيحصل بَكٌّ عظيم، أى : زحام .

﴿**وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا**﴾ هذه بشرى من الله تعالى لكل من حج البيت . لأن الله يتفضل عليه فيجعله آمنا فى الدنيا والآخرة، وقد أكرم الله البيت حتى فى زمان الجاهلية، فكان الرجل يرى قاتل أبيه أو ابنه فلا يتكلم معه بما يوحشه . وقال ((عمر بن الخطاب : لو رأيت قاتل الخطاب فى هذا البيت ما أوحشته)) وكذلك قال عبد الله بن عمر وغيرهما من أئمة الصحابة . وكان يقتل الرجل الرجل، فيأتى ويأوى إلى البيت فيترك حتى يخرج منه . وهذا هو أمن الدنيا . وقد ثبت بالتواتر أن الوحوش لم تفترس فى الحرم فريسة . أما أمن الآخرة فإن من دخل البيت قاصدا القيام بأمر الله تعالى وتأدية فريضته مخلصا بقلبه، حلالا طعامه، فلم يرفث و لم يفسق، وفقه الله تعالى لمحابه ومراضيه حتى يموت مسلما تائبا، فيمنحه الله الأمن يوم القيامة، قال تعالى ﴿**أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ (١).

﴿**وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾ الجار المجرور فى ﴿**لِلّهِ**﴾ خبر مقدم . وقوله: ﴿ **عَلَى النَّاسِ**﴾ جار و مجرور حال، و﴿ **حِجُّ**﴾ مبتدأ مؤخر . و﴿ **الْبَيْتِ**﴾ مضاف إليه. وهذه الآية الشريفة ثبتت بها فرضية الحج على

---

(١) سورة الأنعام آية ٨٢.

كل مسلم، لأن المراد من الناس هم المسلمون خاصة، لأن الله تعالى حرم على الكافرين دخول هذا البيت بدليل قوله تعالى : ﴿**فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا**﴾ (١) فتعين وجوب الحج على كل مسلم بصريح هذه الآية الشريفة.وقد شرط الله تعالى لتنفيذ فريضة الحج الاستطاعة فى ﴿**مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾والمعنى أن الله فرض الحج على كل مسلم بالغ مستطيع أن يؤديه بنفسه بأركانه وواجباته وسننه . والاستطاعة هى الزاد والراحلة وترك ما يكفى من تجب عليه نفقتهم مدة الحج . وعند المالكية وغيرهم ممن أخذوا بالعزائم: العافية التي تمكنه من المشى إلى بلوغه، وتجعله يخدم غيره لينال قوته فتكون العافية بدل الراحلة، والحرفة بدل الزاد، ويجوز له أن يترك من تجب عليه نفقتهم بدون نفقة إذا كانوا ممن يمكنهم العمل للقوت، وخَيْرُ الأمورِ الْوَسَط كما ورد فى الحديث. فتكون الاستطاعة محصورة فى أمن الطريق وفى الزاد والراحلة. فمن تحصل على راحلة وزاد، وتحقق أمن الطريق، وجب عليه أن يحج على الفور، خصوصا إذا بلغ الستين، وأن أعتبر بعضهم أن من له بنات يخشى عليهن الفتنة بعد سفره فهذا عذر غير مقبول، لأن المتزوج لابد وأن يكون له أقارب زوجته، أو له صديق مأمون يمكنه أن يقيمه مكانه. اللهم إلا إذا كان فى بادية ويخشى عليهن سطو الوحوش فإن عذره يكون مقبولا . وهذه هى فريضة الحج .

وعندى أن من ترك أولاده وأهله وخرج بدون زاد ولا راحلة، وظن أن هذا يرضى الله تعالى فقد أخطأ، وجهل مراد الله تعالى :﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾ (٢) ومن لم يقبل رخصة الله تعالى وتعدى آداب الشريعة هلك مع الهالكين .

---

(١) سورة التوبة آية ٢٨.

(٢) سورة البقرة آية ١٤٣.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ هذه الآية أحرقت قلوب أهل الإيمان، وحكمت على الغافلين حكما لازما وهو الكفر بالله تعالى، لأن قوله تعالى(كَفَرَ) متضمنة معنى ترك الحج، وتكون المعنى : ومن ترك الحج فكفر بترك الحج .

﴿فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وفى هذه الآية دليل على أن الكفر والخطايا والذنوب كلها لا تضر الله شيئا، ولو أن الإنس والجن والملائكة كفروا جميعا بالله ما نقص ذلك من ملكه شيئا، ولو أن الإنس والجن والملائكة كانوا على قلب أتقى رجل واحد ما زاد ذلك فى ملك الله شيئا، لأنه تنزه وتعالى غنى بذاته عن الاحتياج إلى المكان والزمان، والمعين، والوكيل، والولد والوالد والصاحبة . والكون عاليه ودانيه مقهور بقهره، مربوب بربوبيته، وكيف لا ؟! وهو سبحانه الذى خلق الكون من العدم بكلمة من كلماته، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١) .

قول تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴿ ٩٨ ﴾

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن اليهود لما أنكروا النسخ، وأنكروا فضل الكعبة المشرفة، وادّعوا أنهم أبناءالخليل وأتباعه،كذبهم الله تعالى بالآيات السابقة التى قصمت ظهورهم بما بينته مما هوفى صريح التوراة، مما لا يعلمه إلا أحبارهم وكهنتهم، ويجهله عامة اليهود- فضلا عن مشركى العرب- بحيث لا يعلم غيب هذا إلا الله تعالى أو من يعلّمه الله به. وبعد أن قامت الحجة و لم ينتفع بها اليهود عنادا وحسدا من أنفسهم، وبخهم الله أشد التوبيخ بأسلوب الحكيم لطفا ورحمة

---

(١) سورة يس آية ٨٢.

بهم، لُيقْبِل من سبقت لهم الحسنى منه، ويُدْبِر من سجّل عليهم القضاءُ سوءَ العاقبة منهم، مخاطبا حبيبه محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لم تكفرون بآيَاتِ اللّهِ**﴾ ﴿**لِمَ تَكْفُرُونَ**﴾ أى : تجحدون بآيات الله التى دلت على نبوة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، وعلى أن ما جاء به من استقبال الكعبة وفرضية حجها على الناس، وأن دينه ﴿ ﷺ وآله﴾ هو دين الخليل عليه السلام، وأنه موصوف فى التوراة والإنجيل بأنه خاتم الرسل، ومبين فيهما مولده، ومحل هجرته، وأنه من ولد إسماعيل- كما صرحت التوراة بذلك والإنجيل بآثار صحيحة ثابتة-وغير ذلك مما أظهره الله تعالى على يده من المعجزات الباهرات، التى لم يسبق لرسول من أولى العزم أن يظهرها الله تعالى على يده، ومن نصرة الله له فى مواطن جهاد الأعداء وغير ذلك .

﴿ **وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ**﴾ الجملة هنا حالية، وهى تدل صريحة على أن اليهود- قاتلهم الله- كانوا يكيدون لرسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ فى الخفاء، ويظهرون غير ما يبطنون. وقد تقدم الدليل بخبر الله عنهم فى قوله تعالى:﴿ **آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ**﴾ (١) . لأن قوله تعالى: ﴿ **وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ**﴾ أى : مطلع على ضمائركم ونواياكم السيئة بالنسبة لرسوله محمد﴿ ﷺ وآله﴾، فجمعت تلك الآية سوء أعمالهم ظاهرا وباطنا. والشهيد على الشيء : هو الحكم العدل لا يحتاج إلى شاهد يقرر له الحقيقة الواقعة، فهو سبحانه وتعالى يشهد عليهم بخبث سريرتهم، وسوء أعمالهم الظاهرة، وهو الذى يحكم وينفذ بقدرة وقهر وقوة. وفى هذه الآية ذكرى لمن وفقهم الله،

---

(١) سورة آل عمران آية ٧٢ .

وعبرة لمن هداهم الله سبحانه، تتجدد لهم بها محاسبة أنفسهم، ومراقبة الله تعالى . والاستفهام فى هذه الآية وفيما بعدها استفهام إنكارى .

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٩﴾

﴿**تَصُدُّونَ**﴾ ورد الفعل الماضى من هذا الفعل المضارع صد وأصد، فرويت بفتح تاء المضارع وضمها وهى بمعنى واحد، أى: تمنعون من آمن بالله ورسوله عن دين الله تعالى بأباطيلكم، وزوركم، وبهتانكم، وأكاذيبكم التى تفتروها على الله .﴿**تَبْغُونَهَا عِوَجًا**﴾ أى : تريدون أن تخدعوا المؤمنين حتى يشكوا، أو يرتابوا،أو يرجعوا عن دينهم بما تمنونه لهم من زخرف القول غرورا،وإسناده إلى التوراة بالباطل، فتحرفون كلم التوراة عن مواضعها، وتخفون ما ورد فيها من ذكر رسول الله﴿ **ﷺ وآله**﴾، وتظهرون أن نبى آخر الزمان من ولد إسحق كفرا بالله وحسدا للعرب، وإثبات نبوته﴿ **ﷺ وآله**﴾ وردت مكررة على لسان إبراهيم وبشرى موسى وغيرهم من الرسل عليهم الصلاة والسلام، بعد أن بينوا أخبار التوراة للعرب يهددوهم ببعثته﴿ **ﷺ وآله**﴾، وبعد أن بين ذلك أخبار اليهود الذين قابلوا رسول الله﴿ **ﷺ وآله**﴾ فأثبتوا له النبوة، وصدقوه، وقابلوا كعب بن الأشرف فهددهم بحرمانهم مما كان يعطيهم فى كل سنة من العطايا، فأنكروا ما قالوه طمعا فى حطام **الدنيا،ونعوذ بالله** ممن يبيع الدين بالدنيا،ويفترى على الله الكذب وعلى نبيه الكذب.و﴿ **عِوَجًا**﴾بكسر العين تدل **على الأمور المعنوية** كالدين والأخلاق والمعاملة.﴿ **عِوَجًا**﴾بفتح العين يكون فى المحسوسات كالجدار والشجرة.

﴿وَأَنتُمْ شُهَدَاء﴾أى : والحال أنكم شهداء على ما ورد فى التوراة، وعلى بصيرة من الأمر من أن محمدا ﴿ ﷺ وآله﴾ خاتم الرسل، وأنه هو الذى بشرت به الأنبياء، ونبهت به الكتب السماوية، وجائز أن يراد به أنكم شهداء على أنفسكم بأنها تخاف نزع السيادة والرياسة من أيديكم، فترجعون أتباعا . ولذلك تجحدون وتنكرون الحق، وتكفرون بالله وبرسولهﷺ، حرصا على متاع الدنيا وزينتها الفانية.

﴿وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذه الآية صريحة فى إثبات كيدهم، وسوء قصدهم، وخبث نواياهم، لأنهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا بأفواههم، وإذا خلوا إلى شياطينهم أنكروا وجحدوا، يظنون أن أحدا لم يعلم ذلك منهم . ففضح الله سرائرهم، وبين للمؤمنين سوء نواياهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وقد ورد فى الآية السابقة ﴿وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ مما تظهرونه من أقوالكم، وأعمالكم، ومظاهرتكم لرسول الله﴿ ﷺ وآله﴾ . وما هو سبحانه بغافل عما تخفونه عن المؤمنين من الكيد، والخداع، والمكر السيء طمعا فى إطفاء نور الله تعالى . قال سبحانه :﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (١) ولقد ورد أن قوله تعالى:﴿ سَبِيلِ اللهِ﴾ يعنى : محمدا﴿ ﷺ وآله﴾ . وفى قول﴿عِوَجًا﴾ بكسر العين إهلاكا. ويكون المعنى : تبغون بمحمد﴿ ﷺ وآله﴾ شرا . وما بالله بغافل عن الذى تعملونه بحبيبه﴿ ﷺ وآله﴾، بل هو عليم قادر أن يحفظه منكم، ويهلككم، ويدفعكم عنه، وينصره، وينشر دينه الحق .

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾

---

(١) سورة الصف آية ٨.

سبب نزول هذه الآية الشريفة أنه حصل بين الأوس والخزرج كلام، فدخل بينهما يهودى بالإغراء- طمعا فى إسعار نار الفتنة بين الأنصار كيدا للدين- وأصل ذلك أن سعد بن غنمة الأنصارى تنازع فى شئ هو وبعض الأنصار، فانتهزها شاس بن قيس اليهودى من قينقاع وأسرع فى أن يوغر صدورهم. وبالفعل أثار عاصفة الحقد بينهم، حتى وقع بين بعض الأوس والخزرج شجار، كاد أن تسل فيه السيوف. فأنزل الله هذه الآية﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ ينادى الأنصاري من الأوس والخزرج﴿**إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِين أُوتُواْ الْكِتَابَ** ﴾ يعنى اليهود المعاصرين لرسول الله﴿ **ﷺ وآله**﴾ . أى: إن تقبلوا أقوالهم، وتتأثروا بها تنتج أسوأ النتائج، وهى المروق من الدين، أو نشوب حرب بينكم، وفى قتال المؤمنين بعضهم لبعض كفر بالله تعالى . ﴿ **يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**﴾ أى: يرجعونكم كفارا يضرب بعضكم بعضا بالسيوف لأن الإيمان قول وعمل . ومن صدق و لم يعمل كذب على نفسه، بدليل قوله تعالى:﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ (١) بين الله لنا فى هذه الآية أن الإيمان حقيقة واحدة مكونة من خمسة أجزاء: ثلاثة أجزاء قلبية : وهى قوله تعالى ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ وهذا عمل قلبى . ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**﴾ وهذا عمل قلبي﴿**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ والتوكل عمل قلبى. وقوله تعالى : ﴿**لَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ**﴾ (٢) وهو عمل جسمانى﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ وهو عمل قلبى مالى .

---

(١) سورة الأنفال آية ٢.

(٢) سورة الأنفال آية ٣.

ومعنى هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى يبين للمؤمنين عداوة أهل الكتاب التى أسست فى قلوبهم، ودعتهم إلى بذل ما فى وسعهم لإطفاء نور الله تعالى، ومحاربة الله ورسوله، وتلك عادتهم من أول ظهور الإسلام.

فما مضى زمن إلا وقام أهل الكتاب- قاتلهم الله- لمناوأة الإسلام وأهله، وليس بغريب إذا أنا ذكرتك بالحروب الصليبية التى ظهرت فى ألوان كثيرة،يقصد بها أهل الكتاب من اليهود والنصارى محو دين الإسلام خصوصا نصارى أوربا الذين لا يفتأون يكيدون للإسلام والمسلمين، وصدق الله العظيم﴿**إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ** ﴾أى: إن تركنوا وتصغوا إلى ما يبثونه من السم فى كلامهم، وأعمالهم، وما ينشرونه بينهم وبين المسلمين، من الطعن على الدين والكذب على الله ورسوله . ﴿**يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**﴾ لأن إطاعة العدو تقتضى عداوة الحبيب. والله سبحانه وتعالى جعل العزة للمؤمنين، وجعل الذل والخزى على الكافرين، وكيف يرضى المؤمن أن يذل نفسه للكافر فيطيعه؟!!والطاعة بسماع كلامهم وقبوله كفر صريح . وأما ما يظهره المؤمنون للظلمة المتغلبين على بلاد المسلمين فليس بكفر مادام القلب مطمئنا بالإيمان، وما دام المسلم متحيزا إلى فئة أو متحرفا لقتال . أما إذا حصل الركون وحصلت طمأنينة القلب فذلك الكفر الصراح .

قوله تعالى: وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿[١٠١]﴾

﴿**وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ**﴾ هذا الاستفهام إنكارى وليس على بابه،ومعناه الاستبعاد. فإن الاستفهام بكيف يقتضى لغة عدم علم الحال الذى يكون عليه المستفهم عنه- تنزه الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا- فيكون

المعنى استبعاد الله تعالى وقوع الأنصار فى الردة، بعد قيام الحجة التى جعلت الإيمان يباشر سويداء قلوبهم، وسكنت إليه نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، وهم كل يوم فى مزيد مما يتوالى عليهم من آيات الله تعالى القرآنية، وما يتلوه عليهم رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ من الآيات القرآنية، ومن الحكمة والبينات التى تشرح الصدور، وتشهد القلوب النور، وتسجد العقول للحق جل جلاله، والتالى عليهم الآيات هو رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾، وتلك الآية من معجزات رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾، فإن المخاطب بها الأنصار وقت نزولها، ولكن الأمة جميعا لا تزال تخاطب بها وتتلى عليها من أفواه أولياء الله تعالى الفارين إليه .

﴿**وَفِيكُم رَسُولُهُ**﴾ هذه الآية الشريفة لا تخص الأنصار بالخطاب فقط، بدليل أوّلها. فإن الله تعالى لم يسند التلاوة إلى رسول الله ﷺ، بل بنى الفعل فيها للمجهول ليكون الخطاب عاما واسعا، ويكون التالى للأنصار هو رسول الله، والتالى لغيرهم من بقية الأمة إلى يوم القيامة العلماء العاملون، أو أى تال من المسلمين. والدليل الثانى: أن قوله تعالى:﴿ **وَفِيكُمْ رَسُولُهُ**﴾ بمعنى ذاته﴿ ﷺ **وآله**﴾ بنسبته للأنصار، وبمعنى آثاره وأنواره، والحكمة العالية المحفوظة بين أيدينا كأنه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فينا. وهناك حجة أخرى لذلك المعنى وهى قول الله تعالى :﴿ **وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ (١) وقوله تعالى :﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (٢) وحفظ الذكر يكون بالصديقين وبأبدال الرسل الذين يقيمهم الله حجة على الأرض. كما قال علىّ عليه السلام:(اللهم لا تُخلِ الأرضَ من قائمٍ لك بحُجةٍ،إما ظاهراً مشهوراً أوباطنا مغموراً لئلا تبطلَ حججُ اللهِ وبيناتُهُ)إذن تلك الآية مخاطب بها كل مسلم، فى كل زمان، وفى كل مكان وَ أهلُ الكتاب لا يفتأون يحاربون

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤٠.

(٢) سورة الحجر آية ٩.

الإسلام وأهله، لإظهار دين المسيح،وكل عاقل يعلم أنهم أعداء المسيح، وأعداء دينه. (لأن المسيح عليه السلام يقول فى إنجيله: (اعبدوا أبى وأباكم الذى فى السماء) فجعل نفسه عبدا مملوكا، وطلب منا أن نكون عبيدا مثله. وقال لمن ناداه بيا أيها المعلم الصالح- منكرا هذا النداء- :(أنا لستُ المعلم الصالح، المعلم الصالح هو الله تعالى، من آمن كإيمانى يعمل كأعمالى وأكثر) فبرأ نفسه مما ينسبه أهل الجهالة بالله إليه، من تنزيهه وتقديسه، وكيف يرضى المسيح أن يكون ربا وهو الرسول العظيم من أولى العزم؟! الذى كان يأكل، ويشرب ويتغوط، ويحزن، ويفرح، ويؤذى، ويتألم، وهى صفات البشرية. وصدق الله العظيم حيث يقول:﴿ **لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ**﴾(١) فأهل الكتاب من النصارى واليهود أعداء أنفسهم، وأعداء الحق، أعداء موسى وعيسى، وأعداء النبيين جميعا، وكم قتلوا أنبياء الله تعالى،وكم آذوهم ولا يزالون، ولن يزالوا على ما هم عليه من بغض الحق ومحاربة دين الله تعالى وأهل دينه ﴿**وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا**﴾(٢).

﴿**وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ (مَن) اسم شرط جازم. ﴿ **يَعْتَصِم**﴾ فعل الشرط، وجملة﴿**فَقَدْ هُدِيَ**﴾ جوابه . وهذه الآية بشرى من الله تعالى، يطمئن بها قلوبنا، ويخفف عنا خوفنا من شرور أعدائنا الكافرين. ويكون المعنى أن أهل الكتاب من النصارى واليهود يجب علينا أن نعاديهم معاداة ظاهرة وباطنة، فلا نصدق لهم خبرا، ولا نصغى بآذان قلوبنا إلى أقوالهم، ولا نمكنهم من أن يسمعونا كلاما فى ديننا ولا دينهم، لأنهم فى كل تلك الأحوال يكيدون لنا ليردونا عن ديننا . فكانت هذه الآية أيام كان نور القرآن، ونور

---

(١) سورة النساء آية ١٧٢.

(٢) سورة الكهف آية ١٧.

رسوله﴿ ﷺ **وآله**﴾ مشرقين على قلوب الصحابة، وكان أهل الكتاب فى ضعف وذل بالنسبة لماأظهره الله من القوة والعزة لرسول الله وأصحابه.أما نحن الآن فإن اليهودوالنصارى أصبحوا أهل العزة بعد أن تسلطوا علينا بالنار والبارود، وبالكيد والخداع، وبالدسائس فى تجارتهم وصناعتهم. وأصبحنا مع كثرتنا متفرقين!! ومع ذلك فإنهم -أذلهم الله- ينشرون بيننا ما لا يرضى من القول والعمل، وترى دعاة النصرانية يجعلون الباطل حقا والحق باطلا، ويساعدهم على ذلك ما وراءهم من الآلات الجهنمية. والمسلمون فى تفرقة وخوف منهم، بين مستضعف يخشى على نفسه وماله، وبين غافل مسارع فيهم، فالواجب علينا فى هذا الوقت أن نتمسك بهذه الآية تمسكا ينجينا الله به من عذاب الدنيا والآخرة، وقد قدر الله الفوز والنجاة بالاعتصام به سبحانه وتعالى، وهذه الآية حجة قاطعة .

والاعتصام هو الالتجاء إلى الله تعالى، والاستعانه به سبحانه بقلب موقن، وجوارح مسارعة إلى العمل بمحابه ومراضيه، وفى قوله سبحانه:﴿ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ساطعة نور من نور التوحيد الكامل . والمعنى أن من يلتجىء إلى الله، ويستعين به، يتحقق أن الله تعالى هداه إلى صراط مستقيم، حيث نسب الهداية إليه جل جلاله، ومن قدَّر الله له أزلا الهداية إلى الصراط المستقيم فقد أحسن إليه بالفوز والنجاة فى الدنيا والآخرة، والصراط المستقيم هو شريعة الله التى شرعها الله لعباده، وحكمه الذى كلف به أمة حبيبه محمد﴿ ﷺ وآله﴾ ،والصراط المستقيم أقرب طريق يوصل إلى المقصود.ولما كان الطريق المقصود هو ما أمرنا الله أن نعمل به بقلوبنا وأبداننا، وهو الذى أنزله سبحانه، وهذا الذى أنزله واحد لا يتعدد، كانت لفظة : ﴿الصِّرَاطَ﴾ فى القرآن تأتى مفردة، قال تعالى:﴿ صِرَاطِ اللَّهِ﴾ (١)

---

(١) سورة الشورى آية ٥٣.

وقال سبحانه: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ (١) وقال هنا ﴿ فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾ وهى الحجة البالغة على أن طريق الله واحد، وهو الكتاب والسنة. عزائمهما عند الاستطاعة، ورخصتهما عند الضرورة، والأخذ بالرخص عند الضرورة عزيمة ليس بعدها إلا الضلال المبين، قال تعالى:﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ ﴾(٢) والمؤمن يجب عليه ألا يقبل من أحد أمرا أو نهيا إلا إذا ظهرت له حجة من الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴿١٠٢﴾

أنزل سبحانه وتعالى من صدقوه وصدقوا رسوله﴿ ﷺ وآله﴾ من المؤمنين منزلة المقربين منه جل جلاله، فناداهم ب(يا) نداء القريب، وهو الفضل العظيم الذى يختص به من يشاء من عباده. ومعنى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله﴿ ﷺ وآله﴾ . ولما أن ناداهم سبحانه وتعالى صغت القلوب والآذان إلى المتكلم سبحانه بكمال السمع والطاعة، فأمرهم تنزه وتعالى وهو الآمر والناهى بقوله جل شأنه﴿**اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾ والتقوى من أكمل أعمال القلوب التى عمرت بأنوار علام الغيوب، والتقوى هى أعلى مقامات الخوف، ولا خوف إلا من عظيم يرجى ويخاف منه .

ولما كان فضله العظيم متواليا، وآلاؤه الجميلة متواصلة، أكرمهم الله سبحانه وتعالى بالخوف منه، حتى تكمل القوى الوحانية والقوى الجسمانية، فيحصل بالخوف الإخلاص لجنابه العلى فى العمل، والصدق فى المعاملة، ومحاسبة

---

(١) سورة الفاتحة آية ٦.

(٢) سورة يونس آية ٣٢.

النفس فى الخلوة عند حصول الأحوال، حتى تكون واردات المؤمن وخواطره وإرادته واختياره مراعيا فيها محاب الله ومراضيه، ومراقبا فيها عظمة الله وكبرياءه.ومتى تجمل القلب بالخوف انبعثت أنوار الخوف من الله تعالى على الجوارح، فصار اللسان رطبا بذكر الله، والآذان صاغية لتسبيح الكائنات وأصبحت الجوارح كلها مسارعة إلى طاعة ربها، وهذه صفة المؤمن الكامل الذى كمل معنى ومبنى، وصار بدلا من أبدال رسل الله صلوات الله عليهم. وتقوى الله حق تقاته:أن نجاهد فى الله حق جهاده، ولا نخاف لومة لائم، ونقوم لله ولو على أنفسنا ووالدينا وأهلينا وأولادنا، وبعبارة أخرى: أن نذكره فلا ننساه، وأن نطيعه فلا نعصاه، وأن نشكره فلا نكفره، وأن نعبده فلا نجحده. مع ملاحظة شهود لا حول ولا قوة إلا بالله، حتى يصفو الورود فى حصن الشهود.

وليست الآية منسوخة بقوله تعالى﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ** ﴾(١) فإن قوله تعالى : ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ** ﴾ هو عين قوله:﴿ **اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** ﴾ فإن الله جل جلاله لا يكلف نفسا إلا وسعها، وأمره إيانا أن نتقيه حق تقاته أى: حق التقوى التى أهّلنا أن نقوم له سبحانه بها . والتقوى أن نلاحظ عند كل حركة وسكنة وطرفة عين معية الله تعالى، حتى يبلغ التقى مقاما يكون فيه الحق معالم بين عينيه،لا يتحرك حركة إلا ويراقب رضا الله سبحانه وتعالى، ويراعى فيها السمع والطاعة لرسول الله﴿ **ﷺ وآله**﴾، وهذا هو الذى اتقى الله حق تقاته. وكم من قائم بأكمل القربات من غير رعاية ولا مراقبة وأعماله لا ترفع ! لأنها عادة لا عبادة. ولا تكون الأعمال عبادة إلا إذا تجملت بالرعاية والمراقبة، وكم التبست العبادة بالعادة . قال الله تعالى: ﴿ **لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ**

---

(١) سورة التغابن آية ١٦.

التَّقْوَى مِنكُمْ ﴾(١) ولما كانت التقوى معارج الوصول لنيل القبول والمأمول، سارعت إليها أنفس الأبرار، وفطرت عليها أرواح الأطهار الأخيار، والراغب فى الخير يجاهد نفسه أشد المجاهدة حتى يبلغ مقام الأتقياء، ومن أمكنه أن يكون مقربا وقَصرَّ ظَلَمَ نفسَه. فكل مسلم مؤهل أن يرقى لأعلى مقامات القرب من الله تعالى، بمجاهدة نفسه فى ذات الله مع رعاية مشهد التوحيد بلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وأى مؤمن يمكنه أن يصل إلى مقام يكون فيه مع النبيين والصديقين والشهداء بسهولة وتيسير ويهمل فى مجاهدة نفسه لهو عدو لنفسه. بالتقوى صار بلال الحبشى ملكا من ملوك الجنة، وسلمان الفارسى سيدا عظيما عند الله تعالى، وكم أعز الله بالتقوى ذليلا، ورفع وضيعا، وأذل بالمعصية عظيما رفيعا، يقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾(٢).

﴿ **وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ لما كانت التقوى عملا من أعمال القلوب، وكانت القلوب بيد الله يقلبها كيف شاء وكما شاء، وقد منحنا الله تعالى الحرية والإرادة فى أبداننا، فنفتح العين والفم ونحرك اليد والرجل كما نحب، أمرنا جل جلاله أن نحافظ على تلك الجوارح، بأن نلزمها أعمال الطاعات مادامت حية، حتى إذا فاجأها الموت فى أى نفس تتلقاه على طاعة. ليس المعنى أن نموت مسلمين بإرادتنا وحريتنا، بل أمرنا سبحانه وتعالى أن نراقب الموت فى كل نفس، فنعتقد أن الموت بعد هذا النفس، ولا نطمع فى البقاء فيهجم الأمل على القلوب فيخر بها. ولا نقف عند مقام الرجاء والطمع فى الله تعالى، فنتهاون بأحكام الله تعالى. بل يجب أن نمزج الخوف بالرجاء، حتى يكون بينهما مزاج، فإذا هجم الخوف على القلب وأحرقه، هجم عليه الرجاء فى الله فلطف ناره، ومن وقف عند الرجاء شطح

---

(١) سورة الحج آية ٣٧.

(٢) سورة الحجرات آية ١٣.

وضل، ومن وقف عند الخوف يئس . والله جل جلاله عظيم قهار وكريم غفار، ومن نسى يوم الحساب حتى هجم عليه الموت فى غفلة خسر الدنيا والآخرة. وما ارتكب المؤمن معصية وتعدى حدًّا من حدود الله، ولا تهاون بشعائر الله إلا بنسيان الموت والحساب.

فكأن الله تعالى يقول- وهو أعلم بمراده-: استحضروا الموت فى كل نفس، حتى تتحفظوا من الوقوع فيما يغضب الله تعالى. وما ذُكر الموت فى وسعة إلا ضيقها، ولا فى شدة إلا وسعها، فإذا ذكر المبتلى(الموت) سهلت عليه بلوته، وإذا ذكر المغرور بالدنيا المتنعم بملكها(الموت) صغرت الدنيا فى عينه، وهذا الحال به الإقبال على الله تعالى وتصغير الدنيا وتعظيم الآخرة.

قوله تعالى: وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴿١٠٣﴾

﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ الاعتصام: هو التحفظ والتحرز من فقد المقصود، والتمسك بما يوصل إلى نيل الخير الحقيقى. وهذا الحبل إما أن يكون كتاب الله تعالى عند هجر العمل به. أو يكون الجماعة عند التفرقة. أو يكون الإخلاص لله فى التوحيد عند الشكوك والريب. أو يكون المسارعة إلى التوحيد والإنابة عند ارتكاب الخطايا. فهو فى كل حال بحسبه. ونحن فى زماننا هذا فى حاجة إلى كل تلك المعانى،بعد أن هجرنا كتاب الله وسنة رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾، فأصبحنا عالة على من كانوا عالة علينا، فى حاجة إلى أن نتلقى الصناعات والفنون والحرف ممن عنا نقلوها، فى تفرقة تحتاج إلى أن يتدخل فى شئوننا من كنا سببا فى خلاصهم ورقيهم. فإذا اشتقنا إلى مجد سلفنا الصالح وعزهم ومنعتهم، يجب

علينا أن نعتصم بحبل الله تعالى، وهو القرآن والسنة المطهرة. ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يمن علينا بما مَنَّ به على سلفنا، ويكون معنا كما كان معهم، ويعيد لنا مجدنا، ويجعل لنا التمكين فى الأرض، حتى يصلح بنا جميع خلقه. قال عبد الله ابن مسعود(يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة فإنهما حبل الله الذى أمر به، وإن ما تكرهون فى الجماعة والطاعة هو خير مما تحبون فى التفرقة)، وكيف يميل المؤمن بالله ورسوله إلى التفرقة للذة عاجلة تفنى، وجاه يورث ذل الأبد، ومال قد يعين على الخلود فى نار جهنم؟! ويرضى أن يذل بتفرقة المسلمين، فيكون مسئولا عنهم جميعا يوم القيامة؟!.

أيها المؤمن المحب للخير العاجل: هذه النفس التى تحب الخير، ألا تذكرها أنها لو باعت هذا الخير العاجل المفسد للدين وللجماعة بالخير الدائم الباقى عند الله تعالى تكون رابحة؟ماالذى يناله الجاهل المغروربالميل إلى التفرقة إذا عاجلته المنية قبل أن ينال قصده؟ لَعَمرُ الله إنه ليموت على أكبر الكبائر، فيحرم لذة أمله العاجل وبهجة النعيم الأبدى، ويخلد فى نار الشقاء والعذاب. وإن النعمة مقولة على معنيين: عند العاقل نعمة الشرف والعز والفرح بالمجتمع الإسلامى. ونعمة لذة الحيوانات فى الشهوات والشهرة الكاذبة. وإنى لأرى نعمة الشرف قد تستعلى فى البهائم على لذتهم البهيمية، فقد يجهد الفرس نفسه فى الجرى حتى يقع صريعا ليفرح بسبق نظيره، لذة بنعمة الشرف. وقد يلقى الكلب بنفسه على السبع ليحفظ صاحبه حتى يقتل فرحا بلذة الشرف. وقد يترك الديك غذاءه وينادى الدجاج متلذذا بلذة الشرف. فواعجبا! تعظم نفوس الحيوانات، فتقدم لذة الشرف على اللذة البهيمية التى هى فطرتها !! وتصغر نفس المؤمن حتى يدنسها بالتعس والخيبة، ليسمع كلمة جميلة أفسد لأجلها دينه ودنيا إخوته المؤمنين!! بل أعجب من هذا أن أجهل إنسان يعلم أن عِزّ جماعته عُزّله،وذلّ قبيلته ذل له.وترى الجاهل يهدم مجد

المجتمع ليتلذذ بأنه قريب إلى عظيم من العظماء، أو محبب عند ذى منزلة، والله تعالى يقول:﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا**﴾ ما هي تلك النعمة التى ينالها من ترك الاعتصام بحبل الله واعتصم بحبل شهواته وحظه وحبه لذاته؟ لا أراها إلا أعظم نقمة. فإنه يمقته الله تعالى، ويمقته رسول الله﴿ **ﷺ وآله**﴾، ويمقته المؤمنون من أهل عصره. وليس الاعتصام بحبل الله بأمر صعب عليك. تذكر أيها المؤمن أيام كانت القلوب مجتمعة معتصمة بحبل الله، والأبدان عاملة لله ، ومن أنت وما كان حالك وشأنك؟ لعلك إذا ذكرت تبكى، وتحن إلى هذا المجد حنين الثكلى أو أعظم ، لأن العبد المملوك المسلم يعزه الإيمان على كل من فى الأرض.كان أصغرمسلم يمنح الأمن ، ويقبل فى ذمته من استجار به فينفذ له الخليفة ، كان المسلم عنوان الكمال فى نشأته ومعاملاته ورحمته ورأفته بالعالم أجمع، ومسارعته إلى الخير، وكان العالم أجمع إذ ذاك فى ظلمات الجهالة والضلالة لم يهتد للخير إلا بسببك أيها المؤمن.

أيها المؤمن: استعمرت مشارق الأرض ومغاربها، ودان لك أصحاب تيجانها، ومكنك الله فى الأرض بالحق. حتى فصمت تلك العروة، وترك أهل الجهالة الاعتصام بحبل الله تعالى ،فتغير الحال، وتبدل الشأن، فلا حول ولا قوة إلا بالله. قم أيها المؤمن فتنبه، وبحبل الله فاعتصم، وبسنة رسول الله فتمسك، وجاهد نفسك أعظم الجهاد فى ذات الله تعالى، وقد منحنا الله الإرادة والحرية والقوة، فإذا نحن تمسكنا بأحكام شريعة الله تعالى، وعملنا بوصايا رسول الله﴿ **ﷺ وآله**﴾، جملنا الله تعالى بالرحمة، فكنا رحماء بالعطف وبالأمانة والصدق والعفاف، والغيرة له سبحانه وتعالى، وتركنا ما يضرنا، ونشطنا لما ينفعنا، وتشجعنا على فعل المكاره والفضائل، وأحب بعضنا بعضا، حتى نصبح كجسد واحد، يشعر الرأس بألم الإصبع، وتتلذذ الرأس براحة الإصبع، ونكون– مع كثرتنا– كعائلة فاضلة يسعى

كل فرد منها لخيرها، ونستعين بنعم الله على ما يحبه ويرضاه، ولديها تلك الحياة، ونفوز بمسراتها فى الدنيا والآخرة، ونورثه أبناءنا.

﴿**وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ**﴾حصر الله لنا النعمة فى أمرين عظيمين وهما: نعمة الدنيا، ونعمة الآخرة، بدليل تفصيل ذلك فى هذه الآية. ونعمة الله فى الحقيقة التى أوجب الله علينا أن نذكرها هى نعمته علينا بحبيبه ومصطفاه محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾. لأنه صلوات الله وسلامه عليه هو النعمة التى أنتجت لنا خيرات الدنيا والآخرة، وخيرا فوق أن أسطره على صفحات الأوراق. والخير بالإجمال هو الفرار إلى الله تعالى من الكونين، وهذا الخير الذى هو فوق الكونين ظاهر فى ثلاثة مقامات:

المقام الأول: مقام معية الله تعالى. المقام الثانى: مقام عندية الله تعالى. المقام الثالث: مقام لدى الله "اللَّدُنِّيَّة" .

بدليل قوله تعالى فى المقام الأول:﴿ **إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ**﴾ (١) وقوله فى الثاني﴿ **إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ** ﴾(٢) وفى المقام الثالث:﴿ **آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** ﴾(٣) والعلم قد يكون بعين اليقين أو بحق اليقين.

﴿ **إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾ هذه الآية الشريفة تفصيل لنعم الدنيا، لأن الأوس والخزرج كانوا أبناء رجل واحد، ولكنهم اختلفوا اختلافا أدى إلى محاربة أفسدت عليهم الحياة الطيبة، وسلبت منهم الأمن،

---

(١) سورة النحل آية ١٢٨.

(٢) سورة الأعراف آية ٢٠٦.

(٣) سورة الكهف آية ٦٥.

وضيقت عليهم الأرزاق،وأوقعتهم فى الأحزان والغموم، فكان الميت فى راحة عنهم. فلما بعث الله حبيبه محمدا﴿ **ﷺ وآله**﴾، وباشر الإيمان سويداء قلوبهم صاروا كالجسد الواحد، كل واحد منهم ككل عضو من أعضاء الجسد، يعمل كل فرد لخير المجتمع. فصاروا فى نعيم، ورغد عيش، وراحة قلب وبدن، وتعاون على البر والتقوى، وطهرهم الله من عناء التفرقة، وشدائد الحروب، وملأ قلوبهم رغبة ورهبة من الله تعالى، حتى مكن لهم فى الأرض بالحق، فدانت لهم القياصرة والأكاسرة. وماذا تقول فى قوم كانوا فى جاهلية عمياء صماء؟ يأكل بعضهم بعضا، يملكهم الأجنبى ولا يملكونه، ويأكلهم الغريب ولا يأكلونه، عراة الأبدان، حفاة الأقدام، تمزقهم الشمس بحرارتها، ليس لهم مبان يأوون إليها . فلما أشرقت أنوار خاتم الأنبياء أصبح ذلك البدوى الخشن الجائع البطن ناشف اللهاة تخدمه الملائكة،وتدين له أصحاب التيجان، وتذل له الجبابرة الطغاة. لا، بل طهر الأرض جميعها من ظلام الكفر وظلم الظلمة الطغاة، ونور العقول بآيات الله، وجمل القلوب بتوحيده سبحانه، وجعل الإنسان أخا للإنسان، حتى سوى بين الكافر الرقيق وبين الخليفة الجالس على منبر النبوة. لأن الحكم كان لله، وبأمر الله، وأى نعمة بعد هذه النعمة تنال فى الدنيا؟ ليس بعدها إلا مقعد صدق عند مليك مقتدر. هذه هى نعمة الدنيا التى يذكرنا الله بها لنذكرها فنشكرها.

أما نعمة الآخرة فهى مفصلة فى قوله سبحانه:﴿ **وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ**﴾أى:و كنتم بكفركم بالله تعالى، وقتال بعضكم بعضا،مع النسب القريب،والصلة التى لا انفصام فيها، على طرف جهنم. ولما كانت جهنم هى الهاوية التى تهوى بمن يعذبهم الله فيها إلى أسفلها، وكان الكفر والقتال والانتقام أسبابا للخلود فى نار جهنم، وكانوا قبل بعثة رسول الله بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا كذلك، تحقق قوله تعالى:﴿ **فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا** ﴾دليل على أن العالم

لا نجاة له إلا بالعمل بوصايا الإسلام، وبذلك تعتقد أن غير المسلم محكوم عليه بالنار أبد الآبدين، حيث لا وسيلة تنجيه، ولا شفيع إليه يؤويه، ولا تكون الشفاعة إلا لمن مات مسلما مرتكبا للمعاصى، والإنقاذ هو النجاة والانتشال. والضمير فى قوله تعالى: (**مِّنْهَا**) عائد إلى الحفرة التى هى جهنم لا إلى ال(**شَفَا**) .

﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ الآية الشريفة جذب لقلوب أهل الإيمان الذين يتلقون القرآن المجيد من فم رسول الله﴿ **ﷺ وآله**﴾، فلا يسمعون منه آية من الآيات حتى تتجلى لهم معانيها تجليا يخطف الأبصار، ويصعق النفوس، وكيف لا ؟ ورسول الله﴿ **ﷺ وآله**﴾ يتلقى الفرقان عن جبريل، ويتلقى القرآن من لدن حكيم عليم. وهو فى مقام الرسالة والخلافة العظمى عن الله تعالى يلقيه على أصحابه، فكانوا- لحضور قلوبهم ولأنواره المحمدية- كأنهم يتلقون من جبريل، أو من حكيم عليم. فيسمعونه منه﴿ **ﷺ وآله**﴾ بآذان رؤوسهم، فتسرى أنوار التلقى إلى سويداء قلوبهم، فيكاشفون بسر الغيب المصون الذى تضمنته الآية ودلت عليه. ومعنى هذه الآية أن الله تعالى يقول : ما بينت فى آياتى السابقة من الحقائق التى كان عليها الأنبياء السابقون، والأسرار التى لا يعلمها إلا أحبار أهل الكتاب وعلماؤهم الراسخون، فإنى أبين لكم هذا البيان فى كل حقيقة من الحقائق ليحصل لكم مزيد الهداية. لأن تلك البينات التى يتلقاها الصحابة عن رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ ونتلقاها نحن عن أبدال رسول الله﴿ **ﷺ وآله**﴾، ينمو بها الإيمان فى قلوبنا. قال تعالى:﴿ **وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**﴾ (١) وقال سبحانه﴿**وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾ (٢)وقال تعالى :﴿ **لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ**﴾(٣) فلعل هنا ليست بمعنى

---

(١) سورة مريم آية ٧٦.

(٢) سورة الكهف آية ١٣.

(٣) سورة الفتح آية ٤.

الترجى، وقد قدمت لك أن الترجى لا يليق بكلام الله تعالى، لأن المترجى غير موقن بالعاقبة، ولكن الله تعالى علام الغيوب، ولما كانت الهداية مقولة على معان كثيرة، ناسب أن نشرح قوله تعالى لعل بمعنى اللام، أى : ليحصل لكم مزيد الهداية.

قوله تعالى: وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١٠٤]﴿

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ﴾ اللام هنا للأمر، وصيغة الأمر للأمر، وهنا إشارة يتذوقها أهل المعرفة بالله تعالى، وهى أن(**وَلْتَكُن**) تحقيق لوقوع هذا الأمر، وكأن الفعل مشيرا إلى كلمة كن. بدليل قوله تعالى:﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾(١) فأنزل الله أمة محمد﴿ ﷺ **وآله**﴾ منزلة الأنبياء فى هذه الآية تشريفا لحبيبه ومصطفاه﴿ ﷺ **وآله**﴾، وقد ورد فى القرآن آيات كثيرة تبشرنا بأن الله تعالى أنزلنا تلك المنازل العالية.

(أمة) لغة : ما تؤم، يعنى ما تؤم المجتمع الذى يؤمه الناس. ولك أن تقول: الأمة : هى الدين والملة والأمة: هى الردح من الزمان.

﴿**يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ الخير: هو كتاب الله، وسنة رسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وبيانها للناس قولا وعملا. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إما أن يكونا لتفصيل هذا المجمل لأن الدعوة إلى الخير

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٠.

عامة. وجائز أن يكون الأمر بالمعروف هو: الأمر بفروع الشريعة، وبمحاب الله ومراضيه ويكون النهى عن المنكر، النهى عن كل قول وعمل وحال أنكرته الشريعة. وجائز أن تكون الدعوة إلى الخير دعوة إلى التوحيد الخالص، ويكون الأمربالمعروف والنهى عن المنكر بيان للقرآن والسنة بما أحله الله تعالى وما حرمه منهما. وجائز أن يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بدلان من الدعوة إلى الخير. ولا يتجمل المسلم بهذا الجمال إلا إذا منحه الله تعالى نورا تستبين به له الحقائق، وحبا فى قلبه يجذبه بكليته إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله، وإلا فالعلم يهتف بالعمل، وإلا ارتحل. ومن زعم أنه عالم ولم يعمل فقد أكبر الفرية على الله، وظلم نفسه، لأن العلم هو تصور النفس رسوم المعلوم، ومتى تصورت النفس رسوم المعلوم سارعت الجوارح إلى القيام بما يطلبه العلم المتصور على جوهر النفس.

وهنا، هل **(مِن)** فى **(مِنكُم)** للتبعيض أو لا؟ هنا خلاف، فمن قائل: إن كل مسلم واجب عليه أن يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ومن قائل: إن هذا الحكم فرض كفاية على أهله، فلا يجوز للمسلم أن يدعو للخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا إذا بلغ به العلم عين اليقين، وأشهده الله مقادير النفوس، حينئذ يدعو، ويأمر وينهى بأسلوب الحكيم .

وعندى : أن كل مسلم يجب عليه أن يدعو للخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر بقدر ما يعلم. فلا يبين الحقائق التى لم يقو الناس على استبانتها، بل يسترها عنهم حتى تحصل لهم العناية من الله تعالى، فيمنحهم الله النور الذى تستبين لهم به الحقائق. أما ترك الدعوة إلى الخير، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، اعتمادا على أن هذا الفرض كفاية على أهل العلم، فذلك تعطيل لسبل الله تعالى. فإن الصحابة رضوان الله عنهم، كان الرجل منهم يجلس مع رسول الله﴿**ﷺ وآله**﴾ النفس أو أكثر فيقوم يدعو غيره إلى الخير بقدر ما علم، أما الذين يكشفون أسرار

الغيب لمن لم يؤهلوا فإنهم يلجئون الناس أن يكذبوا الحق. قال﴿ ﷺ وآله﴾: (أتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللُه وَرَسُولُه)؟

والحقيقة التى لا مراء فيها أن الله تعالى منح كل مسلم أقبل عليه بقلبه لسان حكمة، ونورا تستبين له به سبل الله، وحالا علية يمكنه أن ينوع بها أفكار العالم. فإن المراد من الدعوة هو تنويع الأفكار، وما من مخلص تجمل بالصدق مع الله تعالى، إلا ألقى الله عليه محبة منه، حتى لو أخطأ فى البيان يلهم الله السامعين الصواب فى العمل والفهم. إلا من جعل الدعوة إلى الخير لطلب الدنيا، فإنه يفسد من اعتقد فيه، ويضل من اهتدى به. وما ظهرت التفرقة فى أمة محمد﴿ ﷺ وآله﴾ والاختلافات التى أودت بهم إلا من دعاة الجهالة، الذين يطلبون الدنيا بعمل الدين، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين من تلك الفتنة العمياء الصماء، إنه مجيب الدعاء.

﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الإشارة عائدة إلى من فرض الله تعالى عليهم الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ﴿ الْمُفْلِحُونَ﴾ الظافرون بكل مقاصدهم. ومن المقاصد: طلب الثواب، وطلب الجنة، وطلب الرضوان الأكبر، وطلب الله فرارا من جميع من سواه إليه جل جلاله. فمن أعانه الله على ما كلفه به، وطلب الجنة نالها، أو مقعد صدق فاز به، أو الرضوان الأكبر مُنحه، أو طلب الله أكرمه الله بأن يقربه ويرفعه لديه.

قوله تعالى: وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

لما كان سبيل نيل السعادتين والفوز بالحسنيين من أعظم نعم الله علينا، فقد تفضل الله سبحانه وتعالى بتفصيله تفصيلا جعله ماثلا أمام النفس بالآيات

السابقة. ولما كان الإنسان-مهما بلغ فى الطهارة والإقبال على الله- فإن البشرية لا تفارقه أبدا. وإذا كان الأمر كذلك، فالواجب عليه أن يديم مراقبة الله تعالى، ومجاهدة نفسه فى ذاته جل جلاله، رعاية لحكمة أحكام الله، حتى لا يفسد العدو عليه عقيدته وحسن توكله على الله ،ولايمزج الهوى بالإخلاص فى عمله فيسلبه الخشية من الله والرغبة فيما عنده، بل ولا تقوى نفسه السبعية عليه فتهوى به فى مهاوى الإنتقام من الناس، والحسد لهم، والطمع فيما فى أيديهم. ولا تقهره نفسه الشهوانية فتوقعه فيما حرم الله تعالى من حيث لا يعلم، حتى قد يقع فيما حرمه الله تعالى، وهوبتسليط العدو عليه يرى ذلك طاعة الله، وهنا دسيسة يدسها العدو ليوقع المسلم فيما وقع فيه هو، وهى تأويل صريح الشريعة بما لا يليق بالأدب مع الله تعالى، كما تأول إبليس بالقياس فقال:﴿ **أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾(١) والسالك لا يعلم كيد العدو، ولكن الله سبحانه بين لنا تلك الحقائق بيانا جليًّا فى قوله سبحانه﴿ **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ**﴾(٢)

وبعد أن شرح لنا ما يحبه أمرا ونهيا وترغيبا وترهيبا، أتم نعمته سبحانه بقوله تعالى : ﴿**وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ**﴾ الآية . فنهانا سبحانه أن نقع فيما وقع فيه الأمم السابقة، بما جبلنا عليه من الفطر المهملة، التي إذا نحن أهملنا فى جهادها ومراقبة الله فيها أدخلت العدو علينا من حيث لا نعلم، فأفسد الأحوال والأعمال والأقوال والآراء، حتى يتمكن- أعاذنا الله منه- بفساد العقائد . والتفرقة هى الميل والانفصال عن الجماعة، ولا تحصل التفرقة إلا بمرض قلبى ينتجه الحسد، والطمع،والكبر . والكبر : داء إبليس . والطمع: مرض آدم عليه السلام . والحسد: خطيئة قابيل . ولا يكون المؤمن مؤمنا عند الله ورسوله إلا إذا سلم صدره من

---

(١) سورة الأعراف آية ١٢.

(٢) سورة الأعراف آية ٢٧.

الوغر، وقلبه من السوء، وأنزل المسلمين فى منزلة الأخوة، وسعى فى إصلاح حالهم ابتغاء مرضاة الله تعالى . ولا يتجمل المسلم بهذا الجمال إلا بعد تزكية النفس، وتحصيل العلم الذى يعمل به، مجاهدا نفسه وهواه فى ذات الله تعالى .

﴿**وَاخْتَلَفُواْ**﴾ الاختلاف هو التنافر والتقاطع . وقل أن يختلف اثنان وهما على الحق.. لأن المسلم إذا رأى أخاه على ما لا يحبه الله، يجب عليه أن ينصره بإرجاعه إلى الحق بالحكمة التى سنها الشرع الشريف. ولا تسمى إقامة الحدود اختلافا ،ولا قتال الخوارج وأهل البدع المضلة خلافا. لأن ذلك فرض كفاية على من يؤمر به.وقد وسع الله لنا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،إلى أن رخصت السنة الكذب فى الصلح بين المتخاصمين لسلامة الصدور من الوغر، ومن وجد أخاه مخالفا للشريعة فى حكم أو رأى، فعليه أن يجتهد فى إرجاعه بالتى هى أحسن حتى يسد باب الفتنة، ويقهر الشيطان، وينصر أخاه، ومن جهل آداب الشريعة فى مثل تلك الأمور التى تخفى على غير العلماء الربانين، وفتح أبواب الفتنة بين المسلمين، وأوقع بينهم العدواة والبغضاء، كان من إخوان الشياطين. وقد سرى داء الأمم السابقة حتى وقع فيه من يجهلون حكمة أحكام الله، فكثر الاختلاف، وتقدم كثير ممن استهواهم الهوى وملكهم الشيطان بين يدى الله ورسوله﴿ ﷺ **وآله**﴾، وابتدعوا بدعا لا أصل لها فى الدين،بل و لم تكن فى زمن سلفنا الصالح، وياليتهم إذا نصروا آراءهم قصروها على أنفسهم، حتى يسلم الناس من الفتن المضلة، بل أشاعوها حتى فرقوا كثيرا من المسلمين، وجعلوهم عزين يقتل بعضهم بعضا ،ويلعن بعضهم بعضا. فأنتج هذا الاختلاف تمكين عدو المسلمين منهم ،وتسليطه عليهم، حتى جاس الديار، وطعن فى الدين، والقوم لا يرجعون إلى ما كان عليه السلف الصالح، ولا يعتبرون بما آل إليه أمر المجتمع الإسلامى.

ولا يزال ولن يزال هذا الاختلاف يمزق هذا الجسد، وسبب ذلك: الحسد فى العلماء، والجهالة فى أهل الطريق، وسعى أعداء الله الإفرنج إلى إضعاف ولاة الأمور وإرهابهم، حتى انتشر الفساد، وعم البلاء، فلا تكاد تجد مجتمعاً إسلاميا فى أرض إلا وأهل العصبية منهم يشتغلون بالسيادة والرياسة، يناوىء كل فريق صاحبه بعصبية وقوة، بذلك يمكنون الأعداء منهم ويسلطونهم عليه، كل تلك البدع السيئة، والاختلافات المبيدة للأمم لم تكن عن جهل، بل كانت بعد كشف الحقائق جلية بدليل قوله تعالى: ﴿ **مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾ أى : من بعد أن جاءهم الأدلة، والحجج والبينات الموضحة للحقائق على لسان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، مما أنزله الله تعالى فى كتبه السماوية. ومن أجل تلك البينات ما أنزله الله تعالى على إبراهيم وموسى وعيسى من إثبات نبوة محمد﴿ **ﷺ وآله**﴾، وأنه خاتم الأنبياء، أى لا نبى بعده، وأنه يأتى مصدقا لجميع الرسل من قبله. وما أنزله عليه من أخبار الرسل السابقين، مما لا يعلمه إلا أحبارهم، والرهبان من النصارى، فلا يعلمه عامة اليهود ولا النصارى . فكيف يحيط رجل عربى نشأ فى جاهلية عمياء صماء، لا علم له بالكتب السماوية، ولا بالسياسة الملوكية؟ وتلك الأسرار مما كتمه علماء اليهودية والنصرانية وغيروه، مما فى التوراة والإنجيل، ولكن الله كشف الستر عنهم، وأوحى إلى حبيبه ومصطفاه﴿ **ﷺ وآله**﴾ . فأبت نفوسهم الخبيثة وأطماعهم الدنيئة إلا أن يجحدوا وينكروا، حرصا على السيادات والرياسات . والله تعالى فى هذه الآية يوقظ قلوبنا إلى أن نحافظ على أنفسنا من أن نقع فيما وقع فيه الأمم السابقة. لأن الله تعالى بيَّن لنا كل البيان، حتى قامت الحجة، ووضحت المحجة على ما جاء به سيدنا ومولانا﴿ **ﷺ وآله**﴾، ومن وقع فيما وقع فيه الأمم السابقة بعد تلك البينات الجلية، حكم عليه بما حكم الله به على من تفرقوا واختلفوا ممن سبقنا. وهذا الحكم هو: ﴿ **وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ وهنا اسم

الإشارة يعود على ﴿تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ﴾ والعذاب كما تقدم هو قهر فوق طاقة البشر. وقوله(**عَظِيمٌ**) أى: شديد وقعه، دائم ألمه من شدة وقعه وطول شدته، حيث لا شفيع ينجى منه، ولا وسيلة تخلص منه.

قوله تعالى: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴿١٠٦﴾

﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾ لما كان الهم حبس القلب، وكان القلب إذا نزلت بالإنسان مصيبة يحبس بها فيختلط دم الوريد الأسود بدم الشريان الأبيض فتسود البشرة، فيرى السواد فى وجه الإنسان عند همه، وإذا بشر بخير عظيم انبسط القلب، وظهر البياض واللمعان فى وجه الإنسان . وأعظم الهموم هم يوم القيامة، خصوصا إذا كُبَّ الكافر على وجهه فى النار، فإن وجهه- أعاذنا الله منه- يعلوه السواد الفحمى.وإذا أكرم المؤمن بالدخول فى الجنة،انبسط من الفرح،وعلاه نور الجنة فابيض وجهه،أخبرنا الله تعالى بذلك بشرى للمؤمن، وإزعاجا للكافر ليرجع إلى الله تعالى، ويُقبل على الإسلام. ولك أن تقول: إنه مجاز عن سوء عاقبة الكافر وفوز المؤمن، وهو سياق عربى . وكثيرا ما نسمع من الناس تقول: فلان ابيض وجهه، إذا ظفر بحاجته أو دفع عنه سوء. ويقولون: فلان اسود وجهه، إذا أصابته مصيبة لا قبل له بها . نعوذ بالله من سوء القضاء وقضاء السوء. ولما كانت رحمة الله تعالى وسعت كل شيء وقد سبقت غضبه افتتح الآية ببياض الوجه فقال:﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ**﴾ وجعل سواد الوجه فى وسط الجملة، وبياضه فى أولها وآخرها، ليطمئن قلوب المؤمنين ويفرحهم بالآية.

﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** ﴾ الاستفهام هنا للتقريع والتهديد، والكفر هو الجحود بالله تعالى. وظاهر الآية أنها خاصة لمن ارتد

عن الإسلام بعد إيمانه، وهم اليهود الذين كانوا يبشرون ببعثة رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾، ويقولون للعرب: سيبعث فى هذا الزمان رسول ننصره عليكم. فلما بعث﴿ ﷺ **وآله**﴾ كفروا، وغيّروا صريح التوراة ! والذين ارتدوا بعد إيمانهم كأبيرق، وعبد الله بن أبي سلول والمنافقين معه و لم يظهروا كفرهم . وإذا نظرنا إلى الآية نقول : إن عهد يوم﴿**أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ**﴾(١) وقبولنا من ربنا هو الإيمان الذى كنا عليه. بدليل قوله﴿ ﷺ **وآله**﴾ :(كلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطَرةِ وإنَّماَ أَبوَاَهُ يُهَوِّدانِه، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَّجسَانِه) . وعلى هذا التأويل يكون المراد بالإيمان يوم﴿**أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ**﴾. وجائز أن تكون الآية حكما على من ارتد بعد الإيمان من المسلمين وغيرهم من لدن رسول الله﴿ ﷺ **وآله**﴾ إلى يوم القيامة.﴿ **فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**﴾ أى: بسبب كفركم بعد الإيمان بالله تعالى يوم﴿**أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ**﴾أو بسبب ردتكم عن الإيمان بعد إقراركم .

قوله تعالى: وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴿١٠٧﴾

الواو هنا للعطف﴿**وَأَمَّا**﴾ للشرط والتفصيل، وجملة:﴿ **الَّذِينَ**﴾ الخ، معطوفة على الجملة السابقة. ﴿**ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ**﴾ فقد بينت بياض الوجه. وقد ورد فى القرآن آيات كثيرة دالة على هذا المعنى، بألفاظ متغايرة، كقوله تعالى:﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ**﴾(٢) وقوله تعالى:﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾(٣) .﴿ **فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾يعني أن الذين

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢.

(٢) سورة عبس آية ٣٨-٣٩.

(٣) سورة القيامة آية ٢٢-٢٣.

منحهم الله الاستقامة والتقوى، فداموا على ما كانوا عليه من كمال الإسلام والإيمان، فهم فى رحمة الله فى الدنيا والآخرة. ورحمة الله فى الدنيا هى الاستقامة، والمحبة، والإيثار، والتوبة، والاستغفار، والتوفيق لمحاب الله ومراضيه. وفى الآخرة هى العفو،والمغفرة،وقبول التوبة، ودخول الجنة، والرضوان الأكبر، والأنس بمشاهدة وجه الله تعالى ، بدليل قوله تعالى:﴿ **فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ**﴾ أى: أن الله أكرمهم بالدخول فى رحمته الواسعة، وتفضل عليهم بالدخول فيها. وجواب شرط﴿**أمَّا**﴾ فى الآيتين محذوف، وتقديره فى الأولى : فيقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم. وفى الآية الثانية: فيقال: هؤلاء فى رحمة الله هم فيها خالدون. ويكون تأويل الآية على ذلك: وأولئك لهم عذاب عظيم، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

قوله تعالى: تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴿١٠٨﴾

﴿**تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ**﴾ الإشارة عائدة إلى ما بينه الله تعالى فى الآيات السابقة من ذكر أحبار اليهود وأهل الكتاب، ومن سوء أعمالهم،وما توعدهم به من اسوداد الوجوه والخلود فى نار جهنم، ومن إخباره سبحانه وتعالى عن المؤمنين الذين قبلوا ما جاءهم به حبيبهم محمد﴿ ﷺ **وآله**﴾، وسارعوا إلى العمل به، وما وعدهم به من بياض وجوههم، ومن فوزهم بالنعيم المقيم والحسنى الدائمة. ومعنى﴿**تِلْكَ**﴾ هذه، والعرب تضع تلك موضع هذه فى اللغة الفصحى.

﴿**وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ**﴾ معلوم أن الإرادة نوعان: إرادة مكونة، وإرادة محبوبة. فالإرادة المحبوبة كما فى هذه الآية، وكما فى قوله تعالى:﴿**يُرِيدُ اللّهُ**

أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾(١) وقوله تعالى:﴿ **يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾(٢) وقوله تعالى:﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾(٣) وفى هذه الآيات﴿**يُرِيدُ**﴾ أى: يحب. فالإرادة المحبوبة قد تكون وقد لا تكون . أما الإرادة المكونة فهى القدر النافذ الذى لابد من وقوعه . وهنا نفى الله حب الظلم للعالمين، لأنه سبحانه وتعالى تنزه عن الظلم. فهو لا يحب الظلم من نفسه فكيف يحبه من غيره؟!! فتعسا للظالمين. والظلم وضع الشيء فى غير محله. وأحكام الله السابقة التى هى سعادة المؤمنين بالنعيم الأبدى، هى فى الحقيقة وضع الشىء فى محله، وبها صلاح العالم أجمع. إذا فهمتَ ما قررتُ لك تحققتَ أن الله تعالى لم يرد الظلم، وهو مستحيل على جنابه العلى جل جلاله، إذ هو المبدع للكائنات المالك المطلق لها .

قوله تعالى: وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴿١٠٩﴾

لما أن أخبرنا الله تعالى أنه لا يريد ظلما للعباد، بعد أن حكم على الكفار باسوداد الوجوه والخلود فى النار، وحكم لأهل الإيمان ببياض الوجوه وخلودهم فى النعيم المقيم، بيَّن حقيقة استحالة الظلم منه لهم سبحانه بهذه الآية التى هى الحجة البالغة،لأن من له ملك السموات والأرض له التصرف سبحانه بما شاء، وكيف شاء. لأنه يتصرف فى ملكه وتصرفه فضل وعدل. لا ليمنع عن نفسه ضررا يلحقه، أو يجدى منفعة لا غنى له عنها، وتنزه ربنا وتعالى عن ذلك علوا كبيرا. وهو

---

(١) سورة النساء آية ٢٨.

(٢) سورة البقرة آية ١٨٥.

(٣) سورة الأحزاب آية ٣٣.

سبحانه الذى خلق الكون من العدم، وخلق ما فيه، بل وخلق أعمال الخلق أجمعين، وفى قوله تعالى:﴿ **وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ دليل على أنه الأول قبل كل شيء.﴿ **وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**﴾ دليل على أنه جل جلاله هو الآخر بعد كل شيء. قال سبحانه وتعالى:﴿ **وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾(١) وقال تعالى:﴿ **لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾(٢) وقال جلت قدرته:﴿ **أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ**﴾(٣) فأثبت جل جلاله أن السموات والأرض له جل جلاله، وأنها مملوكة له تنزهت ذاته، وأن من فيها وما فيها مملوك له. فمتى ينسب إليه الظلم، والكل ملكه، والكل له، والكل إليه، والكل منه؟! وفى ذكر الاسم الشريف بلفظ الظاهر فى الآية الثانية إشارة إلى أن افتتاح الوجود من الله، وأن مرجع جميع الوجود إلى الله جل جلاله، وأن ظهور الكون مظهر للرب سبحانه، ولفظ الجلالة عَلَمُ على الذات المقدسة، وما عداه من الأسماء يخبر به عنه، ومتى وصل العبد السالك إلى معرفة الله، شغل عن جميع الموجودات من أعلى مرتبة بالحيرة فى ذات الله.

وفى هذه الآية إشارة لو ذاق حلاوتها السالك لأفرد الله تعالى بالقصد دون غيره. ولهذا الاسم الشريف عند العارفين جواذب حب تجعل ألسنتهم رطبة بذكره، بعد كمال السلوك، وقوله تعالى : ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ**﴾(٤) برهان حق على ذلك. قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فى حديثه الطويل:"(من وصفه فقد عده، ومن

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨٩.

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٤.

(٣) سورة يونس آية ٦٦.

(٤) سورة الذاريات آية ٥٠ .

عده فقد حَدَّهُ، ومَن حَدَّهُ فقد كفر به).﴿ **وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**﴾ ليس المراد من قوله تعالى : ﴿**وَإِلَى اللَّهِ**﴾ أن الله تنزه وتعالى فى مكان يعود فيه إليه الخلق كما هو ظاهر المعنى﴿**إِلَى** ﴾ ولكن المعنى أن الله يُرْجِعُ الخلق بالقهر إلى مكان ينفرد الله تعالى بتنفيذ إرادته، ومشيئته التى قدرها على الخلق، فلا يكون لأحد ما إرادة ولا مشيئة. بل يتجلى بجلاله ربا قادرا قهارا، ويظهر الخلائق جميعا عبادا مقهورين، وخلقا مربوبين. ينفذ فيهم سبحانه وتعالى ما قدره عليهم أزلا بسبب علمه، ويقضى فيهم ما شاء أن يقضيه، مما وعدهم به، للمحسن منهم جزاء إحسانه وزيادة تفضلا منه وإكراما، وللمسىء إساءته لنفسه وظلمه لها عدلا منه جلت قدرته.

وفى هذه الآية معنى قوله تعالى:﴿ **مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [1] أى: أنه الملك المطلق فى هذا اليوم لانكشاف الحقائق جلية، حتى يثبت لدى كل مخلوق أنه عبد مقهور، ليس له وجود بنفسه كما كان يعتقد فى الدنيا، بل ليس له ملك ينازع فيه ربه لجهلة بالحقيقة فيها. وفى هذا اليوم يفرح المؤمنون بفضل الله وبرحمته. ويفرح المذنبون ــ أمثالى ــ بعفوه، ومغفرته، وإحسانه .وتسود وجوه الكافرين المنافقين أهل الشك والريب . وفى هذا المقام تتحقق الآية الشريفة وهى قوله تعالى:﴿**وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا**﴾[2] فإذا كب على وجهه فى نار جهنم،تمنى أن يكون عدما. ومن سبقت لهم الحسنى من الله فقه هذه الآية، فحافظ على رعاية أحكام الله.

---

(١) سورة الفاتحة آية ٤.

(٢) سورة النبأ آية (٤٠).

وإنما تمنح المقامات العلية بالرعاية لا بالدراية ولا بالرواية، وليس من خزن العلم فى قلبه فصار كالقمطر، كمن منح علم الرعاية فراقب الله فى كل شأن من شئونه. وكان السلف الصالح إذا أخبر عن العلماء قال الرجل منهم:فلان عالم، وفلان خزانة علم. و(الأمور) جمع أمر، والمراد به هنا حقائق الخلق وأعمالهم محفوظة صورها الحقيقية فى طائر كل مخلوق، بدليل قوله تعالى: **﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** (١)وبدليل قوله**﴿ﷺ وآله﴾**:(إِذَا تَابَ الْعَبْدُ أَنسى اللهُ الحَفَظَةَ ذُنُوبَهُ وَأَنْسَى ذَلِكَ جَوَارِحَهُ وَمَعَالِمَهُ مِنَ الْأَرْضِ حَتَّ يَلْقَى اللهَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ شَاهِدٌ بِذَنبٍ) . فدل ذلك أن الكون كالمرآة الصقيلة، وإن كانت أمامنا غير صقيلة: فلا يحدث إنسانا حدثا فى أى مكان إلا وصورته تحفظ فى هذا المكان، فتشهد بعمله يوم القيامة. فإن قدّر الله له المغفرة والعفو والإحسان ستر الله تلك الحقائق عن الحفظة وغيرهم من باب أولى. أما الأحداث التي تحدث والمعاصى والخطايا التى وقعت من الإنسان فإنها لا تتغير، ولا تمحى، ولكن الله تعالى ستار يستر ما شاء من خطايا الإنسان بعفوه، ويبدله بإحسانه، بدليل قوله تعالى: **﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾** (٢)

قوله تعالى : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾

بعد أن بين سبحانه وتعالى أن السموات والأرض له جل جلاله، وأن الأمور كلها راجعة إليه، تنزهت ذاته، فبشر أهل الإيمان بعلى مقاماتهم عنده

---

(١) سورة النور آية(٢٤).

(٢) سورة الفرقان آية(٧٠).

تبارك وتعالى، وبإنزالهم منازل الأنبياء الذين بعثهم الله لهداية عباده فقال:﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ والجملة مستأنفة. وكان هنا تفيد حصول شيء فى الزمن الماضى، ولا تفيد انتهاءه، ولا تفيد أن هذا الفضل العظيم تغير عن هذه الأمة. كما قال تعالى:﴿ **وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾(١) وهو جل جلاله لا يزال غفورا رحيما أبد الآبدين، حكم سبحانه بخيرية الأمة الإسلامية، ولا يزال ولن يزال هذا الحكم ثابتا لها أبدا، وتخصيص بعض المفسرين بما نقله من الروايات، من أن تلك الخيرية للمهاجرين إلى المدينة من الصحابة رضوان الله عليهم، أو لقوم بأعيانهم منهم، فذلك تأويل لما خصهم الله من الفضل على التابعين إلى يوم القيامة،وفضلهم رضى الله عنهم بينه القرآن المجيد بالثناء عليهم ومدحهم ، وهذا الفضل العظيم لا يمنع من تفضل الله على بقية الأمة من إثبات الخير لهم إلى يوم القيامة،وعلى تأويل أن كان تامة، يكون﴿ **خَيْرَ أُمَّةٍ**﴾ حالاً، وسيان أن يقول تعالى:﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ**﴾ من حيث الشمول لأن كان لا تقتضى انقطاع الحكم بعد المهاجرين أو الصحابة رضى الله تعالى عنهم جميعاً، ودليل ذلك قوله سبحانه: ﴿ **تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ** ﴾ لأنها تتضمن الحكمة فى إثبات الخيرية لهم.

والأمر بالمعروف هو الحث على ما أمرت به الشريعة، مما فرضه الله، ورغّب فيه، ودعى إليه. والنهى عن المنكر غير مقبول من الدعاة؛ إلا إذا كان بأسلوب الحكيم، وبرعاية مقتضى الزمن، حتى تنتج النتيجة المطلوبة منه بتنوع أفكار من يدعون، وقد يحرم على من لم يجمله الله بأخلاقه العلية أن يدعو، لأن دعوة هؤلاء تفرق الأمة، وتمزقها أيدى سبأ فتشب نار الفتنة. وإنه فى هذا الزمان يجب علينا جماعة المسلمين أن نراعى مقتضى الوقت رعاية تجمع شتات المسلمين، بل يجب على كل مسلم أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، بقدر علمه بحقائق

---

(١) سورة الفرقان آية(٧٠).

الخير المعروف والمنكر المبغوض. ولا يتجاوز ذلك ؛ لينال رضوان الله الأكبر. وأنما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر رجال وقع بهم العلم على عين اليقين، فكاشفهم الله بجواهر النفوس، وبأمراضها، وأسلوب علاجها. ومن قرأ سَيْرَ الأنبياء سَيَرهُمْ علم كيف ينوع أفكار أهل زمانه. هذه الآية أقامنا الله فيها مقام الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى إلى الأمم لدعوتهم إلى الحق، ولو تدبر المسلم معنى هذه الآية لتضاءلت الدنيا ونعيمها فى عينه، وشكر الله تعالى على ما أقامه فيه، لينال بعد علم اليقين عين اليقين ، التى يكون فيها وارثا لرسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ .

﴿ **وَتُؤمِنُونَ بِٱللهِ** ﴾ وهو الأصل العلى، وما سواه من المقامات العالية فروعه. لأن المقصد فى هذه الآية حث الهمم على المسارعة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولا يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا بعد كمال الإيمان فى قلب المسلم. وجائز أن الله تعالى ذكرها بعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ ليبين لأهل الكتاب أن الإيمان هو أصل السعادة فى الدنيا والآخرة. قال سبحانه وتعالى: ﴿ **إنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِه وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ** ﴾(١) .

﴿ **وَلَو ءَامَنَ أَهَلُ آلكِتَبِ لَكَانَ خَيراً لَّهُم** ﴾ هذه الآية الشريفة حكمت على أن نيل الخير فى الدنيا والآخرة متحقق بالإيمان وأن الشقاء فى الدنيا والآخرة بالكفر. (**وَلَوْ**) هنا على بابها. (وَلَوْ) تضمنت معنى القسم بدليل لام القسم بعدها. ﴿ **ءَامَنَ أَهْلُ آلكِتَبِ** ﴾ يعنى صدقوا بما أنزله الله تعالى على حبيبه محمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾، والمراد بأهل الكتاب هم اليهود والنصارى. ﴿ **لَكَانَ خَيراً لَّهُم** ﴾ أى:

---

(١) سورة النساء آية ٤٨.

لفازوا بالخير فى الدنيا؛ من العافية ووسعة الأرزاق، والنصرة على الأعداء، والأمن. وفى الآخرة بالفوز بنعيم الروح فى عليين، ونعيم الجسم والروح فى فردوس الله الأعلى، والسلامة من فتن القبر، ومن مناقشة الحساب يوم القيامة. لأن للمؤمن يقينا يجعل له عبادة قلبية كعبادة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، التى هى انتظار الفرج، فلا ترى مؤمنا إلا وصدره فرح، وقلبه مطمئن بنيله الخير الذى يعتقد أنه سعادة له فى العاجل والآجل، كما قال علىّ عليه السلام: ((فإن المؤمنَ كالفالج الياسر، ينتظر إحدى الفوزتين من قداحه)) وعندى: أنه قد ينال الحسنيين فى الدنيا والآخرة، وقد يؤجل الله الحسنى العظمى ليوم القيامة.

﴿ **مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ** ﴾ فالمؤمنون من اليهود كعبد الله بن سلام وأخيه، وثعلبة وأخيه، وكالنجاشى وغيره، ومن أسعده الله فآمن فى عصر رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾. ﴿ **وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ** ﴾ أثبت الله تعالى أن أكثر أهل الكتاب فسقوا، والفسق هو الخروج، يقال: فسقت الحية، أى: خرجت من ثوبها. كما يقال: فسقت الدجاجة: أى: أخرجت فراخها. والفسق هنا هو خروجهم من الدين الذى ينتسبون إليه بالباطل، وذلك لأنهم غيّروا التوراة والإنجيل كفرا بالله، وحسدا لرسول الله عليه الصلاة والسلام؛ فكانوا كفارا بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، ثم ازدادوا كفرا بإنكارهم نبوة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾

﴿ **لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ** ﴾ هذه الآية معجزة من معجزات القرآن — وكله معجزات — وهى بشرى لنا، لأن الله تعالى بين لنا أن أهل الكتاب لا ينفكون يحاربوننا فى ديننا، ولكن الله حفظنا منهم، وجعل حربهم عليهم، وعصمنا

من أن ينالنا منهم إلا أذى من سب أو قذف أو جدل. وهنا لقائل أن يقول: إن النصارى من أوربا قد أضرونا، فكيف يكون الجمع بين خبر الله وبين الواقع ؟ والجواب: أن الله تعالى يقول: ﴿ **وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** ﴾(١) وعلى المعترض أن يثبت أن رجلا من المسلمين أصابه ضرر من الكافرين، أو أحَس بضررهم ولو أنهم مزقوا جسمه. لأن المؤمن يرى ذلك جهاداً فى سبيل الله، وفوزا بالشهادة عنده. أما الذين يوالونهم معتقدين أنهم مؤمنون؛ متأولين أنهم مستضعفون فى الأرض، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين. وصدق الله العظيم، وكذب كل متأول مخالف لصريح القرآن الكريم.

﴿ **وَإِن يُقَٰتِلُوكُم** ﴾ يبشرنا ربنا جل جلاله فى هذه الآية، وافتتحها بإن الشرطية، إشارة إلى أن مقاتلتهم لنا قليلة، لما أظهره الله تعالى من المعجزات، والكرامات الظاهرة لسلفنا الصالح، أيام كانوا على الإيمان الكامل، حين ألقى الله الرعب فى قلوب أعداء الإسلام، وجمل المسلمين بالهيبة والإقدام على عظائم الأمور نصرة للحق.

﴿ **يُوَلُّوكُمُ ٱلأَدبَارَ** ﴾ أى: ينهزمون أمامكم، والمنهزم يعطى ظهره للمطارد له. ﴿ **يُوَلُّوكُمُ ٱلأَدبَارَ** ﴾ أى: يعطوكم ظهورهم، وذلك مما يلقيه الله فى قلوبهم من الرعب، وما يمد الله به المسلمين من التأييد بالملائكة الذين يراهم الكفار فى صور الأناسى، يفتكون بهم فتكا.

﴿ **ثُمَّ لاَ يُنصَرونَ** ﴾ أى: أنهم بعد هزيمتهم أمامكم يجتهدون أن يكيدوا لكم بجمع الجموع، فيخذلهم الله ويذلهم، ولا يجدون ملجأً يلجأُون إليه، ولا قوة

---

(١) سورة النساء آية ١٤١.

يستعينون بها عليكم، وهذا خبر من الله لأهل الإيمان به، الذين حافظوا على آداب الكتاب والسنة، و لم يخرجوا عن أصول الأمن.

أما الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وأحزابا، يتنافسون فى الدنيا رياسة ووظائفا، فليسوا ممن أخبرهم الله بهذه البشرى. لأنهم لو كانوا على ما كان عليه سلفنا الصالح لما سلط الله عليهم أهل الكتاب من النصارى واليهود. فإنا نرى كل مجتمع إسلامى قد تسلط عليه دول الظلم من الإفرنج النصارى ومن الأذلاء اليهود. وها نحن فى كل مجتمع نرى العزة التى كانت تبدلت بذل، والسلطان الذى كان لنا تبدل باستعبادنا، وبعد أن كان النصراني واليهودي أرقاء يباعون فى بلادنا، أو أهل ذمة يدينون لنا، أصبحنا نراهم سادوا وشادوا وتمكنوا منا !! وأصبح المال فى أيديهم، والسلطان لهم، وذلك بمخالفتنا لسنة رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ آللَّهَ لاَ مَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾(١) .

والرجوع إلى هذا المجد سهل علينا إن شاء الله، ولا يكلفنا إلا الرجوع إلى ما كان عليه سلفنا الصالح، والثقة بالله، والعمل بسنة رسول الله، وإصلاح ذات بيننا، والنظر إلى جميع المسلمين بعين الرحمة والعاطفة، وبر الوالدين، وصلة الرحم، وتعظيم الكبير منا، واحترام مساوينا، ورحمة صغيرنا، وحب إخوتنا، وإيثار المسلمين بالخير، وبغض غير المسلمين ـــ ولو بذلوا لنا ما فى وسعهم ـــ معاملة لله ولرسوله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، وشكرا له سبحانه حتى يمنحنا المزيد منه. وبهذا التقرير ثبت أن الله تعالى وعد بهذه البشرى أهل طاعته. فإن الإيمان قول وعمل واعتقاد: فمن اعتقد و لم يقل فهو كافر، ومن اعتقد وقال و لم يعمل فمنافق، ومن عمل وقال

---

(١) سورة الرعد آية ١١.

و لم يعتقد فهو منافق أيضا وضال مضل. ولو أن أربعين رجلا من المسلمين كانوا على قلب رجل واحد من السلف الصالح لما جعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا، قال تعالى: ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾⁽¹⁾.

وقد عَلمتَ أن ترك صلاة العشاء والصبح فى جماعة نفاق، فإن النفاق قد يكون عمليا واعتقاديا: فالعملى ترك أداء الواجبات الشرعية فى أوقاتها، وهو من الخطايا. والنفاق الاعتقادى أن يكفر بقلبه ويظهر الإيمان بجوارحه وهو الكفر الصريح، بل أشد من الكفر. فإن الكافر عَلِمَه المؤمن فاتقى شره، أما المنافق فالشر كله منه، وإن من النفاق العملى الذى يوقع فى الكفر أن يطلب الرجل الدنيا بعمل الآخرة، ويظهر للناس الصلاح والتقوى، ويخفى فى قلبه الطمع والشر، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه، قال تعالى: ﴿ **إِنَّهُ يَرَكُم هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُم**﴾⁽²⁾ يعنى أن هذا المنافق الذى يطلب الدنيا بعمل الآخرة يراه الناس مؤمنا وليًّا، ويراه الله كافرا غويًّا، وهو الشيطان الذى أخبرنا الله عنه أنه يرانا مخدوعين مغرورين، فينهب أموالنا، ويكشف عوراتنا، ونحن نراه وليًّا صالحا، وهو عند الله خبيث. إذن لا وجه لمعترض أن يقول: ﴿ **وَإِن يُقَتِلُوكُم يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمّ لاَ يُنصَرُونَ** ﴾ ونحن نرى المسلمين يفرون أمامهم، فنقول: إن كل من انهزم أمام الكفار فليس بمؤمن.

قوله تعالى: ضُرِبَتَ عَلَيهِمُ آلذِّلَّةُ أَينَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلاَّ بحَبلٍ مِّنَ آللهِ وَحَبلٍ مِّنَ آلنَّاسِ وَبَآءو بِغَضَبٍ مِّنَ آللهِ وَضُرِبَت عَلَيهِمُ آلَمسكَنَةُ ذَلِك بِأَنَّهُم كَانُواْ

---

(١) سورة يوسف آية ١٠٦.

(٢) سورة الأعراف آية ٢٧.

يَكۡفُرُونَ بِايَتِ آللهِ وَيَقۡتُلُون آلأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿١١٢﴾

معنى ((**ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ**)) أى: لزمت. كما يدك الإنسان الشىء فى الشىء فيضرب عليه (**آلذِّلَّةُ**) الذّلة بكسر الذال هى الذل، والذلة التى ذكرها الله هنا هى أنواع كثيرة: منها اضطرارهم للمسلمين، واحتياجهم إليهم، وظهورهم بمظهر المسكنة والخزى والصغار، وضرب الجزية عليهم، وتمزيقهم فى البلاد أيدى سبأ من غير أن يكون لهم وال ولا أمير. ﴿ **أَيۡنَ مَا ثُقِفُواْ** ﴾ أى: أينما وجدوا وحلوا. وفى هذه البشرى بانتصار الإسلام وتمكينه فى الأرض وعزة المسلمين.

﴿ **إِلاَّ بِحَبۡلٍ مِّنَ آللهِ** ﴾ والحبل هنا هو العهد، وهو العصمة من الله لهم بإنزال الأحكام التى تبيح لنا أخذ الجزية منهم وإبقاءهم أحياء، فإن الحكم الشرعى أولا كان: القتل أو الإسلام. ثم وسع الله الأمر؛ فجعل الحكم: الإسلام أو القتل أو الجزية، والاستثناء هنا متصل، والمراد منه أن ذلة القتل ترفع عنهم بالجزية، وتدوم لهم أنواع الذل الباقية التى ذكرت قبل، وليس الاستثناء لرفع كل أنواع الذل عنهم. وما وجدت أمة مسلمة متمسكة بالكتاب والسنة إلا وكان النصارى واليهود إما أرقاء لهم يُباعون ويُشترون، أو أهل ذمة يكلفون بدفع قليل من أموالهم جزية، حتى لا يتناسوا ذلهم بسبب دينهم. والله تعالى أسأل أن يعيد لنا مجد سلفنا الصالح بتوفيقه لنا من القيام بمحابه ومراضيه.

. ﴿ **وَحَبۡلٍ مِّنَ آلنَّاسِ** ﴾ والحبل من الناس هو تنفيذ أحكام الله التى ينزلها رحمة منه، بترغيب اليهود فى الإسلام، ولكنهم ــ قاتلهم الله ــ هم كما قال تعالى: ﴿ **ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ آلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُواْ** ﴾ فلا يزالون أشد الناس عداوة للمسلمين، وأحرص على كيدهم، وآثارهم ماثلة أمام أعيننا بفلسطين. فجدد الله

للمسلمين ما كان لسلفهم، حتى نكون على الإيمان الكامل، فيمنحنا الله تعالى العزة، ويمكن لنا فى الأرض بالحق، فيعود الخزى والذل والصغار على اليهود كما كان، إنه مجيب الدعاء.

.

﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللهِ ﴾ يقال: باء بالمكان: سكن فيه ولزمه. والمعنى فلزمهم غضب من الله، كما يقال: تبوأ الرجل المكان. وقد تقدم معنى هذه الآية فى سورة البقرة.

. ﴿ وَضُرِبَت عَلَيهِمُ ٱلمَسكَنَةُ ﴾ المسكنة: هى البلاء الذى يلزم الإنسان التراب، فيسكن إليه. ومنها: المسكين. كما أن الفقر هو كسر فقار الظهر، الذى يلزم الإنسان السكون إلى التراب، أعاذنا الله تعالى. وهى بشرى لنا بعد بشرى، وتتحقق تلك البشائر برجوعنا إلى ما كان عليه سلفنا. ومن دلائل إيمان الأمة أن تكون فى عزة بالله على أعدائه جميعا. وسبب نزول هذه الآية خاص بأهل الكتاب لارتباط الآيات بعضها ببعض، ولكن الحكم عام لجميع من كفر بالله تعالى، لا فرق بين أهل الكتاب وغيرهم فيه.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُم كَانُواْ يَكفُرُونَ بِايَتِ ٱللهِ وَيَقتُلُونَ ٱلأَنبِيَآءَ بِغَيرِ حَقٍّ ﴾ سبق أن الله تعالى أخبرنا بقوله: ﴿ كُنتم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ وبين لنا حكمة ذلك بقوله: ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَتُؤمِنُونَ بِٱللهِ ﴾ وهنا أخبرنا سبحانه أنه ضرب الذلة والمسكنة على اليهود. وأهم باءوا بغضب من الله. ثم بين سبب ذلك بقوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُم كَانُواْ يَكفُرُونَ بِايَتِ ٱللهِ وَيَقتُلُونَ ٱلأَنبِيَآءَ بِغَيرِ حَقٍّ ﴾ واسم الإشارة هنا عائد على ما تقدم فى الآية السابقة من

ضرب الذلة والمسكنة، وأنهم باءوا بغضب من الله. والكفر بآيات الله جحودها وإنكارها، وآيات الله ما أنزله من كتبه السماوية، وخصوصا فى التوارة والإنجيل من ذِكر سيدنا ومولانا محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، وأحكام وبيان مقامات أنبيائه، وهم فى كل ذلك يكفرون ويجحدون. وهى الخطيئة التى لا يغفرها الله أبدا إذا مات الإنسان عليها.

معلوم أن قتل الأنبياء لا يكون بحق، وقد بيَّنَّا فى سورة البقرة معنى ﴿ **بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ**﴾(١) ولا يكون القتل بالحق إلا لمرتد أو قاتل أو زان محصن، وكان قتلهم الأنبياء للحظ والهوى، والهوى أخو العمى، كما قتل زكريا ويحيى وغيرهما عليهما السلام. أما دعوى النصارى بأن عيسى عليه السلام صلب، فقد كذبهم الله تعالى، وكذبهم الإنجيل الذى رواه برنابا، والحقيقة كما بينا فيما سبق أن الذى صلب يهوذا الإسخريوطى. وقتل أنبياء الله إنما دعا إليه ما جاءوا به عليهم الصلاة والسلام، من قهر النفوس الخبيثة والنفوس الجامحة للظلم، والتمكين فى الأرض بالحق، وقهر النفوس العنادية التى تنازع الربوبية بكيد وخدع يظهرون من نفثات إبليس، فيفسدون العقائد، ويسيئون إلى أخلاق العالم، ويخرجون من النور إلى الظلمات ببدعهم المضلة، وأهوائهم المفسدة، وهم كثير. وتلك النفوس لا تمحى من على وجه الأرض، فهم فى زماننا هذا لا ينفكون يحاربون الله ورسوله بما يخدعون به أهل الغرة من البسطاء، فيخالفون الله ورسوله، ويبتدعون بأهوائهم ما لم ينزل الله به سلطانا.

. وقد كان المسلمون يدفعون شرور الصليبيين عنهم، حتى ظهرت الفتنة من أدعياء الإسلام وليسوا منه فى شىء، وهم طائفتان كما قال علىٌّ عليه السلام:

---

(١) سورة البقرة آية ٦١.

((إنما قصم ظهرى فئتان من الناس: عالمٌ متهتّكٌ، وجاهلٌ مُتَنَسِّك)) وقد كثرت هاتان الفئتان وانتشر دعاة الصليبية بين الإسلام، فأصبح الذائدون عن حياض الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح؛ يسألون الله إغاثة الإسلام والمسلمين من شرور أهل البدع من المدعين الإسلام بالباطل، ومن شر الإفرنج الذين يحاربون الدين بما ينشرونه على ألسنة جنودهم المسلحة، بما وراءهم من قوة الحديد والنار، وبما يجدونه من مسارعة مَن فى قلوبهم مرض إلى تقليد الإفرنج. وما من آية من الآيات السابقة إلا وجرَّت بذيلها أقواما فى تلك الأمة. رزقنا الله الرجوع إلى ما كان عليه سلفنا الصالح، حتى يعود لنا التمكين فى الأرض بالحق.

. ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعتَدُونَ ﴾ الإشارة هنا عائدة إلى ما أخبرنا الله به من ضرب الذلة والمسكنة عليهم، ومن كونهم باءوا بغضب من الله. كل تلك الحقائق من العذاب والنقم حكم الله بها عليهم لما تقدم منهم؛ كما قال تعالى: ﴿بِمَا عَصَواْ ﴾ أى: خالفوا ما أنزل الله على أنبيائه. ﴿ وَكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ أى: باعتدائهم. والاعتداء هو الخروج عن الوسط، والتصرف فى حق الغير بما لا يرضيه، ولا يوافق مصالح العباد.

قوله تعالى: لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿ ١١٣ ﴾

﴿ لَيْسُواْ سَوَاء ﴾ ليسوا سواء جملة تامة، وعلى هذا يكون الكلام تاما، والمعنى: ليس اليهود والمسلمون سواء، وتكون الجملة بعدها خبرا عنا جماعة المسلمين. ولك أن تقول : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ بيان لـ : ﴿ لَيْسُواْ سَوَاء ﴾ ويكون المراد بهذه الآية هم: عبد الله بن سلام ومن أسلموا معه من اليهود. وتكون الجملة المقابلة لها محذوفة للاكتفاء بتلك الآية . والمحذوف يكون: وأمة كافرة

جاحدة. (**أُمَّةٌ**) تقدم ذكرها فى قوله تعالى: ﴿ **وَلتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٌ** ﴾. (**قَآئِمَةٌ**) القيام صادق بالمسارعة إلى العمل بكتاب الله، وبسنة رسول الله ﷺ، وجائز أن يكون المراد بالقيام ملازمة العمل مع الاستمرار، ومطابقة لآداب الشريعة.

.

﴿ **يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ** ﴾ ظاهر هذه الآية: أنهم كانوا يتلون القرآن فى الصلاة، لأن السجود هنا عبارة عن الصلاة الشرعية. وعلى ذلك فإنهم كانوا يصلون العشاء الأخيرة فى جوف الليل، ويصلون الصبح فى الغلس. ﴿**ءَانَاءَ الَّيْلِ** ﴾ يعنى ساعات الليل، وآناء الليل جمع آن أو أوان مقصوراً. وذلك لأن قراءة القرآن فى الصلاة فريضة، والقرآن فيها هو الفاتحة، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ** ﴾(١) أى. إذا قرأ الإمام القرآن فى الصلاة فالواجب على من يسمعه أن يستمع منه، وعلى البعيد الذى لا يسمعه أن ينصت. والواو فى (**وَهُمْ**) للحال، والجملة حالية. وكان ذلك عمل أصحاب رسول الله. وقوله تعالى: ﴿ **ءَانَآءَ آلَّيلِ** ﴾ أى: أنهم لا ينامون الليل.

. والحقيقة أن الله تعالى جعل لمن يصلى العشاء والصبح فى جماعة أجر قيام الليل، كما ورد فى الحديث: (مَن صَلَّى آلْعِشَاء وَآلصُّبْحَ فِى جَمَاعَةٍ فَقَدْ قام آللَّيْلَ كُلَّهُ) وكما قال الله تعالى: ﴿ **كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ** ﴾(٢) أى: كانوا يصلون الصبح والعشاء فى جماعة، فكتب الله لهم قيام الليل كله.

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٠٤.

(٢) سورة الذاريات آية ١٧.

قوله تعالى: يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾

﴿ **يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ** ﴾ أى: أنهم يصدقون الله تصديقا يجعلهم يتمثلون حضرته، وكبرياءه، وقدرته، وحكمته. فيقوى يقينهم بما أخبرهم به من الغيب المصون، ويسارعون بإخلاص إلى عمل ما يحبه ويرضاه، رغبة فى نيل رضوانه، والفوز بنعيمه المقيم يوم القيامة، وخوفا من غضبه الذى يوقع فى عذاب جهنم. .

﴿ **وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ لما كان اليوم الآخر هو يوم البعث الذى صدق به المسلم بحجة خبر الله تعالى عنه، تصديقا جعله كأنه يراه عند طاعته ومعصيته لقوة تصديقه به، حتى كأنه يرى جهنم بعينى رأسه، ويرى الجنة كذلك، بدليل قوله تعالى: ﴿ **كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيقِينِ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ** ﴾ يعني في الدنيا. وقال بعد ذلك: ﴿ **ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ ٱلْيَقِينِ** ﴾[1] يوم القيامة، فكأن المؤمن يرى جهنم فى الدنيا بعلم اليقين، ثم يراها يوم القيامة بعين اليقين، وينجيه الله من عذابها. وبسبب رؤيته لها فى الدنيا ملىء قلبه خوفا من الوقوع فيما يوبقه فيها، وإذا ضعف علمه لم ير جهنم فى الدنيا، فيرتكب ما حرمه الله تعالى من المعاصى لنسيانه يوم الحساب، فقد يكذب، ويسرق، وينظر إلى الحرام، بل قد يرتكب الكبائر من الفواحش والخطايا، أعاذنا الله تعالى من عمى البصيرة.

والبرهان الذي يقوم على كمال الإيمان؛ هو الإيمان بيوم القيامة ودوام ذكرها قبل كل عمل من طاعات الله، ويبتعد عن المعاصى. ومن نسى يوم القيامة كان من أهل جهنم ولا محالة، قال تعالى: ﴿ **وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء**

---

(١) سورة التكاثر آية ٥ ــ ٧.

يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾(١) وقال تعالى: ﴿ **بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴾(٢) ومسلم يعتقد أن الموت حق، وأن الذين سعدوا يدخلون الجنة، وأن الذين شقوا يدخلون النار، كيف لا يراقب الله تعالىّ العلىّ العظيم، وهو يعتقد أنه القاضى يوم القيامة حصن الأمن للمسلم، ونسيان يوم القيامة هو الشقاء الأكبر. وقد بين الله تعالى فضل الذين يؤمنون بالله وباليوم الآخر فى آيات كثيرة من القرآن المجيد، وشرح لنا ما تفضل الله به عليهم من حسن الجزاء، كما بين لنا ما يناله من نسى يوم الحساب فى آيات كثيرة من شديد العذاب، وأليم العقوبة، والطرد والغضب، وحرماهم من شهود جمال الله تعالى.

﴿ **وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ معلوم أن الأمر بالمعروف هو أن يبين للمسلمين ما كان عليه رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ وأصحابه فى كل شأن من الشئون حتى يعمل بسنته ﴿ **ﷺ وآله**﴾، وقد تقدم بيان ذلك. وأما النهى عن المنكر: فالمنكر ما أنكره الله ورسوله من قول أو فعل أو حال، والنهى عنه هو تنويع أفكار الواقعين فيه ليتركوا العمل به إنابة إلى الله تعالى.

﴿ **وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ** ﴾ أى: أهم يتمثلون وقوع الموت فيحافظون على أنفاسهم قبل هجوم المنية عليهم، قال تعالى: ﴿ **فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾(٣) فمسارعتهم إلى الخيرات حرصا على الأنفاس أن تصرف فى غير طاعة.

---

(١) سورة الجاثية آية ٣٤.

(٢) سورة ص آية ٢٦.

(٣) سورة البقرة آية ١٣٢.

﴿ **وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ الإشارة هنا إلى من بين الله صفاهم من الآيات المتقدمة، وهذا الحكم من الله تعالى شرف لمن جملهم الله بتلك الصفات، لأن الذين أخبرنا الله عنهم أنهم صالحون هم رسله وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام. فقد وردت الآيات الكثيرة أن الصالحين هم رسل الله. قال تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ **رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾(١) : وعن يوسف عليه السلام: ﴿ **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾(٢) : وعن سليمان عليه السلام: ﴿ **وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** ﴾(٣) فهؤلاء الأنبياء عليهم السلام سألوا الله أن يلحقهم ويدخلهم فى الصالحين، والله تعالى يخبرنا أن من وفقهم لما مدحهم به من الصفات هم من الصالحين. وكفى بهذا الخبر من الله شرفا ورفعه لهم، جعلنا الله منهم. والصالحون عند الله تعالى ضنائنه الذين أفردهم لذاته، وأقامهم خلفاء عنه فى الأرض؛ لإعلاء كلمته، وبيان محابه ومراضيه. رضى الله عنهم وعنا.

قوله تعالى : وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

معنى هذه الآية الشريفة: أن الله يطمئن قلوب من وفقهم للقيام لحضرته بما وصفهم به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والإيمان بالله، أنه عليم بكل أعمالهم التى يعملوها بقلوبهم وجوارحهم فى السر والعلانية لا يخفى عليه شىء منها، وأنه تبارك وتعالى متفضل وعدل فى أحكامه. فيوفق لطاعته من يحبه ثم ينسب العمل إليه فضلا منه، ثم يحسن إليه بأن ينعم عليه بخير جزاء على العمل

---

(١) سورة الشعراء آية ٨٣.

(٢) سورة يوسف آية ١٠١.

(٣) سورة النمل آية ١٩.

بعلمه. سبحانه، وهو جل جلاله كما أنه عليم بالمتقين خصوصا؛ فإن خبره هذا بشرى تقوى بها هممهم بالإقبال على الله، وبمجاهدة النفس فى ذات الله. وهو عليم بغير المتقين، وتخصيص المتقين هنا للعناية بهم، ولرفعة قدرهم فى الدنيا والآخرة. فإن المسلمين إذا رأوا من جمله الله بهذا الجمال يعظمونه، ويجلونه، ويسارعون فى مساعدته والانقياد له فى الدنيا، وأنه سبحانه يرفعهم ويكرمهم بأن يجلسهم على منابر من نور قدام عرشه.

وجائز لك فى قراءة هذه الآية أن تقول: ﴿ **ومَا يَفْعَلُوا مَنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ** ﴾ بالياء في الفعلين على سياق الغيبة خبرا عمن أثنى الله عليهم بالصفات الممدوحة المتقدمة، وتقرأ بالتاء: ﴿ **وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن تُكْفَروهُ** ﴾ على سياق الخطاب لهم، ويكون المخاطبون هم من مدحهم الله بتلك الصفات المحبوبة لحضرته العلية. ومعنى: ﴿ **فَلَن يُكْفَرُوهُ** ﴾ أى: فلن يجحدوه، ولن يحرموا ثوابه وجزاءه الحسن؛ لأن الله ذو علم به، قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا** ﴾(١).

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾

بعد أن ذكر الله الكافرين وسوء أعمالهم، والمؤمنين وما تفضل به عليهم من القيام لله بما يحبه ويرضاه، بشر المؤمنين بقوله: ﴿ **وأُوْلَئِكَ مِنَ آلصَّـلِحِينَ** ﴾ وبأنه عليم بالمتقين، وبأن ما يعملونه مما يحبه لن يكفروه . ثم بين سبحانه وتعالى ما حكم به على الكافرين جزاء كفرهم، ومحاربتهم الله ورسوله.

---

(١) سورة مريم آية ٦٤.

﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنهُم أَموَالُهُم مِّنَ الله شَيئاً** ﴾ وسبب نزول هذه الآية: أن اليهود كانوا مغرورين بأموالهم وأولادهم، فأذلهم الله وقهرهم. فالآية خاصة بهم. وجائزأن يكون ذلك لقوم من قريش معلومين؛ بدليل الآية بعدها فى قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ مَا ينفِقُونَ** ﴾ وهم أبو سيفان، وأبو جهل. أما أبو سيفان فإنه أنفق فى واقعة بدر أموالاً كثيرة، وكان أبو جهل يفتخر بماله، وكان أصحاب الأموال من قريش يقولون: لو كان محمدا على الحق ما عاش فقيرا. فأنزل الله هذه الآية تشنيعا عليهم وتقبيحا لسوء فهمهم؛ لأن خير الذخائر عند الإنسان الأموال والأولاد، ولا تجد إنسانا إلا وهو يعتمد على ماله وولده، حتى يخرج من الإنسانية بكمال الإيمان بالله، والتوكل عليه، وتوكيل الأمر إليه سبحانه. فكانت هذه الآية قوة لإيمان المؤمنين ومزيدا لكمال يقينهم، وخزيا وذلا للكافرين. وجائز أن تكون أنزلت فى الكافرين أجمعين . ولك أن تقول: السبب خاص والحكم عام.

ومعنى الآية المفتتحة بالتوكيد المقوى للخبر أن الله تعالى يخبر أهل الكفر به بما سجل عليهم من القضاء، من أن أموالهم وأولادهم لا تغنى عنهم فى الدنيا والآخرة، وقد تكون الأموال والأولاد عذابا فى الدنيا والآخرة؛ لأن الكافر يوم القيامة يكون كما قال الله تعالى: ﴿ **فَمَا لَنَا مِن شَفِعِينَ۞ وَلاَ صَدِيق حَمِيمٍ** ﴾(١) وقال تعالى: ﴿ **يَوْمَ لاَ يَنفعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ۞ إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**)(٣) وما من عبد اعتمد على غير الله تعالى إلا أذله بمن اعتمد عليه. وفى الآثار: (من استعز بغير الله تعالى أذلَّهُ الله على يَدِهِ) ولنا أن نأخذ من هذه الآية أن الذين

---

(١) سورة الشعراء آية ١٠٠ ــ ١٠١.

(٢) سورة الشعراء آية ٨٨ ــ ٨٩.

(٣) سورة الزلزلة آية ٧ ــ ٨.

آمنوا إذا اتبعتهم ذريتهم بإيمان يكونون مزيدا فى نعيم والديهم، وكما ورد فى الأثر الصحيح قال ﴿ ﷺ وآله﴾: (إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انقَضَى عَمَلُهُ إِلاَّ مِن ثَلاثٍ. إِلى أن قال: وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ بِالخَيْرِ) والله تعالى أكرم المؤمنين بفضل لم ينله الكافر.

﴿ **وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ** ﴾ المشار إليهم بـ (**أُوْلَئِكَ**) هم الذين كفروا المذكورون فى هذه الآية، وصاحب الشيء هو ما يلزمه أبديا، وفى (**أَصْحَب**) إشارة إلى الخلود. كأن فى هذا معنى الملك الذى لا ينفك أبدا وفيها تشنيع عليهم وتبكيت لهم، وكفاهم شرا صحبتهم للنار، كما قال تعالى فى الكافرين: ﴿**فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾(١). ﴿ **هُمْ فِيهَا خَلِدُونَ** ﴾ بيان للفظة (**أَصْحَاب**) أو تأكيد لها.

قوله تعالى: مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

لما حكم الله تعالى على الكفار وأنهم لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً؛ أقام الحجة لأهل الإيمان أن الكافر لو تقرب إلى الله بخير الأعمال وهو مصر على الكفر لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا. قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ آللهُ مِنَ آلْمُتَّقِينَ** ﴾(٢) لنعلم أن ما ينفقه الكفار من أنواع البر والمساعدة التى لا يعملها إلا أهل الرحمة والشفقة، كما ينفقون فى تحرير الرقيق، وفى الرفق بالحيوانات، وفى بناء

---

(١) سورة التوبة آية ٣٤.

(٢) سورة المائدة آية ٢٧.

المستشفيات وغير ذلك مما نراه من الشفقة، والتعاون على البر. فإن ذلك كله مردود عليهم، لا ينتفعون منه شيء فى الدنيا ولا فى الآخرة، وأن ما نراهم فيه من القوة وكثرة الأموال والأولاد إنما هو من نقم الله عليهم ومن الأدب لنا بسبب مخالفتنا لوصايا شريعتنا. ولو أننا عملنا بكتاب الله وبسنة رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، لمنحنا العزة عليهم، ولمكن لنا فى الأرض كما مكن لسلفنا الصالح بالحق؛ لمحافظتهم على اتباع السنة والعمل بها.

﴿ **مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ** ﴾ أى: مثل إبطال وإهلاك ما ينفقونه فى هذه الحياة الدنيا كتدمير وإهلاك (**ريحٍ**).

﴿ **فِيهَا صِرٌّ** ﴾ أى: لهيب أو برد قارس. فالصِّرُّ لغة هو شدة البرد المهلك للزرع، أو الحر اللافح. وهذا الريح الذى فيه صر، إذا هب على غيضة أهلك نباتها، فكما أن هذا الريح مهلك للزرع؛ فكذلك الكفر يهلك أعمال البر. فالكفر مشبه، والريح مشبه به، ووجه الشبه بينهما: التدمير فى كل. أعاذنا الله بجماله من جلاله.

﴿**أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ**﴾ والظلم هو وضع الشىء فى غير موضعه. ولما كان الكفر بالله هو الظلم العظيم، وكان الظلم فقط سببا فى إصابة الريح والزمهرير حرث الظالمين. كان الكفر بالله الذى هو الظلم العظيم أشد نكاية فى حرمان الكافر ثواب نفقته ! لأنها كانت لغير وجه الله تعالى. وقد ورد فى الأثر: ﴿ **إِنَّ آلْمُؤْمِنَ يُؤْجَرُ رَغْم أنفِه** ﴾. ومعنى ذلك أنه قد يتصدق مُكرَهًا . أو يعمل البر غير ملاحظ وجه الله تعالى، فيمنحه الله جزاءه لأنه مؤمن؛ ولأن الله إذا أعطى الإيمان عبدا ــ والإيمان هو أصل الخير ــ تفضل الله تعالى عليه بالفروع، وكل المقامات التى ينالها الإيمان بالله هى فروع عن الإيمان. فلا تستعظم الولاية

على مؤمن ــ ولو كان عاصيا ــ بعد تفضل الله عليه بالإيمان، ولا يكبر على التوبة مؤمن ــ ولو كان نبيا ــ لأن الله تعالى قال: ﴿ **وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾(١) .

﴿ **وَمَا ظَلَمَهُمُ آللهُ** ﴾ نفى الله تعالى الظلم عن نفسه، بالنسبة لحرمانه أهل الكفر به من إعطائهم ثواب ما أنفقوه، لأن الكافرين لم ينفقوا نفقة يريدون بها وجه الله تعالى، وكيف يريدون وجه الله تعالى وهم كفار به؟ والله سبحانه وتعالى هو الملك الخالق العظيم، يعُطى من يشاء بفضله، ويحرم من يشاء بعدله. ﴿ **وَلَكِنَ أَنفُسَهُم يَظلِمُونَ** ﴾ وذلك لأن الله تعالى أقام لهم الحجج والأدلة على كمال وحدانيته وقدرته وحكمته، ثم أرسل لهم الرسل ببيان ما يحبه ويرضاه منهم، مما به صلاح حالهم ونيل الخير لهم فى الدنيا والآخرة، وبعد أن قامت الحجة واتضحت المحجة جحدوا وأنكروا، وحاربوا الله ورسوله، وعاندوا، وذلك هو الظلم لأنفسهم. فكان حرمانهم من جزاء نفقاقم عدل من الله تعالى، وخلودهم فى نار جهنم عدل منه سبحانه، وقد ورد فى الأثر: (إِنَّمَا آلأَعْمَالُ بالنيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى. فَمَن كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فِهَجُرَتُهُ إِلَى آللهِ وَرَسُولِهِ وَمَن كَانتْ هِجرَتُهُ إِلى دُنَيا يُصِيبُها أَو امْرَأَةٍ ينكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ).

قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ ١١٨ ﴾**

هذه الآية الشريفة من معجزات القرآن المجيد. وكأنها نزلت فى هذا اليوم مع مضى ألف وثلثمائة وخمسين سنة عليها(١)، وكأن الله تعالى يتكلم بهذه الآية مع

---

(١) سورة الزمر آية ٦٧.

أهل زماننا ويخاطبنا بمعناها، وكيف لا ؟ وكل ما اخبرنا الله تعالى به من أعمال أعدائنا اليهود والنصارى والمنافقين من محاربة الإسلام بالباطل، ومن حرصهم على إيصال الخبال إلينا؛ بدس الفتن والدسائس فى ديننا والريب فيه طمعا فى كفرنا بالله ورسوله ﴿ ﷺ وآله﴾، نراه رأى العين. وقدبلغ من إشهار هذه الحرب علينا فى كل مجتمع إسلامى ما نراه ونسمعه من جيوشهم الجرارة التى يرسلونها لنشر النصرانية بين المسلمين، وجيوش الفتن والمفاسد والهرج والمرج التى يفتحون بها أبواب الفتن والمفاسد، وسلب مرافق الحياة من يد المسلمين، كالجيش الصهيونى الذى يحارب الإسلام والمسلمين فى فلسطين، وكم حاربونا فى ديننا وأعراضنا وأنفسنا وأوطاننا بجيوش من الظلم، تحت ستائر الضلال: كتحرير الرقيق وحماية الأقليات، وإصلاح الأمم باستعمارها !! وصدق الله العظيم، ينهانا سبحانه عن الركون إليهم والاستسلام لكيدهم وخدعهم بقوله:

﴿ **لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ** ﴾ أى:لاتستسلموا لمن ليسوا من دينكم، ولو دعت الضرورة إلى ذلك، والبطانة هو ما يلصق على البطن. والمعنى لا تتخذوهم أصحابا وأصدقاء كما تتخذون أهل الإسلام، فتكاشفوهم بعوراتكم التى لا تكاشفون بها بعض أقاربكم. ثم بين الله سبحانه حكمة ذلك بيانا يفهم معناه كل مسلم، لا فرق بين الصغير والكبير والعالم وغيره بقوله: ﴿ **لا يَألُونَكُم خَبَالاً** ﴾ أى: لا يقصرون فى إيصال الخبال إليكم. والخبال: هو الإفساد فى الدين، والوقوع فى الشك والريب، وإطفاء نور الإيمان من القلوب، أعاذنا الله من شر أهل الكفر بالله. ثم أردف هذه الآية بيانا آخر، يعلّمنا به سبحانه أنهم إذا عجزوا بفعلهم

---

(١) كان ذلك وقت إملاء الإمام أبى العزائم لأسرار القرآن.

عن إيصال الخبال فى الدين إلى قلوبنا نشطوا فى إيصال شر إلينا يريدون به قهرنا وإذلالنا ! .

﴿ **وَدُّواْ مَا عَنِتُّمَ** ﴾ ومعنى هذه الآية أى: أحبوا وتمنوا عنتكم، أى وقوعكم فى العداوة والخصومة والتفرقة، حتى إذا ظفروا بضعفكم بالتفرقة أسعروا نار الفتن بينكم، فأيدوا فريقا على فريق، حتى إذا تفانى الفريقان تسلموا وطنهم، ونهبوا وقهروا البقية فاستعبدوهم، كما فعلوا فى أسبانيا، وفى مراكش، والجزائر، وتونس، وطرابلس، ومصر، والسودان، وفلسطين، وسوريا، والعراق، وحضرموت، والهند، والصين، وسيبريا، وأمريكا، واستراليا، وكما فعلوا فى تركيا، وإيران، وأفغانستان، واليمن، والحجاز ونجد، ولكن الله تعالى سلم بعض هذه الأمم ونسأل الله أن يوقظ بقية الأمم إلى العمل بما أمر الله به ونهانا عنه .

﴿ **قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ** ﴾ برهان على إعجاز تلك الآية، فإن نصارى أوربا واليهود قد رأوا أن يذموا الإسلام، بعد أن أحسن إليهم الإسلام فى صريح آياته، ويذموا سلفنا الصالح، بعد أن رحموهم وواسوهم، وحفظوهم أيام كان لنا الحول والطول؛ من أن يكونوا طعمة للسيوف، وغذاء للعقبان والوحوش. وهذا جزاء من خالف الله ورسوله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، واتخذ بطانة من غير المسلمين؛ وأى بغضاء تبدو من الأفواه لنا بعد أن يمسوا جناب رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ ؟!! اللهم إنك بينت لنا كل البيان، فنسألك أن تؤيدنا بروح منك،و أن تمدنا بنصرك على أعداء دينك وأعدائنا، إنك مجيب الدعاء. والبغضاء: زيادة البغض، والأفواه: جمع فُوه. وهذه البغضاء هو ما يرمون به الإسلام، ويسيئون به إلى نبينا عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام رضى الله عنهم، ثم أنه سبحانه وتعالى زادنا بيانا بما نعلمه وبما لانعلمه، لنتحرز من شرورهم التى يظهروها، ونحتاط لأنفسنا مما يخفون عنا.

﴿ **وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** ﴾ فهم يظهرون ذم الإسلام بأفواهم، ويطعنون فى ديننا، وفى صدورهم عزم على محو الإسلام، وإهلاك المسلمين أو استعبادهم. بعد أن كان النصارى واليهود فى أوربا وغيرها عبيدا يباعون فى أسواق المسلمين، وسلفنا الصالح يحسن إليهم ويرحمهم، حتى إذا خالفنا وصايا نبينا؛ أدبنا على ذلك فمكنهم منا، ورجعوا إلى ما كانوا عليه من خبث نفوسهم، ومن محاربة الله ورسوله ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ آللهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ آلظَّلِمُونَ** ﴾ (١) قال الله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوا أَخَذْنَهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ آلْقَوْمِ آلَّذِينَ ظَلَمُوا** ﴾ (٢) .

بعد هذا البيان يجب علينا أن نتدارك أنفسنا بالرجوع إلى الله تعالى وبالعمل بكتابه جل جلاله، وبسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، لينجينا الله سبحانه وتعالى من الذل والخزى فى الدنيا لمن كانوا أذلاء لنا فيها، ومن العذاب الأليم يوم القيامة باستضعافنا لهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا** ﴾ (٣) الآية.

بعد هذا البيان الصريح لم يبق عذر لمسلم سمع كلام الله تعالى، ورأى بعينى رأسه وقوع ما حذره الله تعالى منهم، بسبب ميله وتقليده لأهل الكفر بالله. بل وبعد أن قامت الحجة بإعجاز تلك الآية؛ لوقوع البلاء الذى كان يحذرنا الله تعالى من وقوعه بنا. وياليتنا استسلمنا لقهره الشديد أو لغلبهم إيانا، كل ذلك لم يكن. بل

---

(١) سورة إبراهيم آية ٤٢.

(٢) سورة الأنعام آية ٤٤ ـــ ٤٥.

(٣) سورة النساء آية ٩٧.

الذى كان أن مرضى القلوب بل وأهل النفوس الخبيثة النزاعة إلى الشر سارعوا فيهم خشية أن تصيبهم دائرة وطمعا فى الزخرف الفانى ورغبة فى نيل المشتهيات الباطلة، وهاهى المجتمعات الإسلاميةبعد أن كانت جسدا واحدا يحس المراكشى بآلآم من فى جنوب الهند، بل كان المسلم فوق جبال البرينات شرق بلاد الأندلس يُؤْثِر المسلم فى بغداد على نفسه، وقد فتح المعتصم بالله الخليفة العباسى (عمورية) لما سمع من عيونه هناك أن روميا لطم امرأة أسيرة ! فقالت: وامعتصماه. فلطمها مرة ثانية ! وقال : خل معتصم يأتيك على خيل بلق من بغداد. فلما سمع ذلك أقسم أنه لا يجلس على كرسى مائدته حتى يفتح عمورية، لينقذ تلك الأسيرة رحمة بها، وجمع خيلا بلقا وغزا بها عمورية، ووهب للأسيرة من لطمها وماله وأولاده، وهكذا كان المسلمون يتألم الخليفة على سريره مما يؤلم أسيرة فى أرض الروم، ولذلك يقول الله تعالى:

﴿ **قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُون** ﴾ أى: كشفنا لكم الستر عن قلوب أعدائكم، وبينا ما يضمرونه لكم ولدينكم، لتسمعوا وتطيعوا وتنصروا الله سبحانه بتنفيذ أوامره ونواهيه؛ لينصركم سبحانه وتعالى بقهر أعدائكم وإذلالهم لكم، وبتمكينكم فى الأرض بالحق، وما بين الله تعالى آياته هذا البيان إلا لنعقل عن الله كلامه. فإذا عقلنا كلام الله تعالى سارعنا إلى القيام بمحابه ومراضيه، فيعيد لنا مجد سلفنا، ويمكن لنا فى الأرض بالحق، ويديم لنا هذا المجد حتى نلقاه وهو راض عنا ونحن رضوان عنه. قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَوةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** ﴾(١).

---

(١) سورة الحج آية ٤١.

قوله تعالى: هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴿١١٩﴾

﴿ **هَاأَنتُمْ أُوْلاء** ﴾ الهاء هنا للتنبيه. وفصل بين حروف التنبيه وبين الإشارة بأنتم، للتقريب، وعليها اللغة الفصحى. وكان جائزا أن يقول: هؤلاء أنتم. ولكن القرآن هو ميزان الفصيح من الكلام. وهذا السياق كثير فى كلام فطاحل البلغاء، كما يقول الرجل جوابا للسائل: ها أنا ذا. وهذه الآية نزلت بيانا من الله تعالى للمؤمنين عن معاملتهم لليهود والنصارى والمنافقين، لأن الإسلام جمل قلوبنا بالرحمة والعطف، فجعلنا نطمع فى إيمان اليهود والنصارى، وفى توبة المنافقين، فنحسن إليهم بإخلاص لله تعالى، ومعاملة لوجهه الكريم. فبين لنا الحقائق، وحذرنا من مخالفته بأن نتخذ بطانة، ثم أظهر أحوالنا التى تدعونا إليها الرحمة بهم، والشفقة عليهم. بقوله تعالى: ﴿ **تُحِبُّونَهُم** ﴾ أى: تعاملوهم بأنواع من الرحمة، والحنانة، والشفقة، معاملة لا تكون إلا من أهل المحبة لهم، وفى ذلك مخالفة لأمر الله تعالى، بل الواجب علينا أن لا نحكّم العواطف فى قلوبنا، بل نطيع أمر الله تعالى، ونجاهد تلك العواطف والميول بقدر الاستطاعة، لأننا بمخالفتنا أمر ربنا، واتخاذنا بطانة من دوننا، وتلك البطانة كما أخبرنا الله تعالى تبطن لنا السوء والخبث، وتتمادى فى حديثنا اعتقادا أننا بله يغرنا خداعهم.

وليس بعد بيان الله تعالى بيان، خصوصا بعد قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ**﴾ وهذا خبر من الله تعالى، يفيد علم اليقين أن اليهود والنصارى والمنافقين مهما أظهروا لنا من الملق والود، وأنهم يسعون فى إصلاح حالنا، أو أنهم مسلمون

مثلنا، كل ذلك خبث يدعوهم إليه خوف من حرمانهم مما هم ممتعون به من الرحمة والشفقة وحسن المعاملة، وإقامتهم فيما يجعلهم أغنياء آمنين نافذى الكلمة.

وهناك شرٌّ أكبر يدعوهم إلى ذلك، وهو أن يلقوا بيننا وبين بعضنا العداوة والبغضاء طمعا فى تفرقنا، وقصما لعروة الرابطة الإسلامية. فكما أنهم إذا رأونا أظهروا الإسلام، وإذا خلوا إلى بعضهم تمنوا لنا الضر والشر، فهم كذلك إذا رأوا بعضنا ألقوا من الزور والبهتان ما يفسد الإخاء، ويزيل التوادد والتعاطف الإسلامي بين إخواننا. ﴿ **وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وإذا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا** ﴾ أى: تصدقون بالكتاب. و (ألـ) فى (**الكِتَاب**) للجنس، أى: تؤمنون بكل الكتب السماوية التى أنزلها الله، فلا تفرقوا بين رسل الله، ولا تغيرون أحكام الله، بل تراعون أحكام شريعته. وهم قد بلغوا من الكيد لكم، بعد أن تحققوا من سلامة ضمائركم، ومما فطركم الإسلام عليه من الرحمة والشفقة، أن يظهروا لكم ما يرضيكم بقولهم ما قاله تعالى: ﴿ **وَإِذَا لَقُوا آلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا** ﴾ (١) . و الواجب علينا جماعة المسلمين أن نحذر منهم، لنحتاط لأنفسنا من كيدهم لنا، حتى تقوم الحجة على صدقهم، فإذا ظهر لنا منهم ما يخالف أقوالهم كنا فى حفظ وسلامة من شرورهم، وهى سنة رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، فإن اليهود كانوا يأتونه فيقولون: السام عليكم يا محمد. فيقول: عليكم. والسام، يعنى: الموت .. فكان عليه الصلاة والسلام يردها عليهم من غير أن يسىء إليهم. وذلك من جمال الأخلاق، وكمال البصيرة، كما قال ﴿ **ﷺ وآله**﴾: (لاَ يُلْدَغُ الْمؤْمِنُ مِن جُحرٍ مَرَّتَيْنِ).

وما آل الأمر إلى ما نحن عليه من التفرقة وشتات الحال، وتمكين الأعداء؛ إلا من تلك الناحية، وهى أن البسطاء من المسلمين لا يثقون إلا في اليهود

---

(١) سورة البقرة آية ٧٦.

والنصارى في أعمالهم الخاصة ! بل وفى معاملاتهم، وفى شرائهم وبيعهم، حتى بلغ بهم البله والغرور إلى أن كانوا يفخرون بهذا، ويرمون إخوانهم المسلمين من التجار أو الصناع أو العمال بما ينفرهم ! كل هذا البلاء أصابنا لمخالفتنا أمر ربنا، وكيف قد أصبحنا وكل نوع من أنواع المجتمع أهلكته الغفلة عن آيات الله ؟. فالحسد: قطع العلماء عن الله. والخيانة: قطعت التجار. والظلم: قطع الحكام والزعماء. والكيد: قطع النساء. وهذه هى أمهات الكبائر. وكفى المسلم تعسة أن يغضب الله تعالى، وفى ذلك تعسته فى الدنيا وعذابه يوم القيامة. ولا يرضيه سبحانه بإتباع أمره واجتناب نهيه. وفى رضاء الله عنا نيل المجد فى الدنيا، والنعيم المقيم فى يوم القيامة.

وكيف لا يكون هذا حالنا والله يكشف لنا أسرار اليهود والنصارى والمنافقين كشفا جعل ما يخفونه عنا جليا بقوله سبحانه: ﴿ **وَإِذَا خَلَوْاْ** ﴾ أى: أن هؤلاء القوم ــ الذين هم أعداء ديننا ــ جعلونا كاللعبة فى يد الغلام الصغير. يلونوننا بأى لون، ويفسدون علينا عقائدنا وعباداتنا ومعاملاتنا وأعراضنا، ولا يرضيهم ذلك منا. وإنما الذى يرضيهم أن نصبح كفارا معهم، أو أن يبيدونا عن آخرنا ! كل ذلك قصدهم منا !! ونحن نراهم يستحقون الرحمة والمساعدة، وهم شياطين الإنس كما قال سبحانه: ﴿ **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُم**﴾ (١) فهم يرونا مخدوعين بلهاء لا نتبصر فى أمورنا. ونحن نراهم نشطاء أمناء متقنين للصناعة والتجارة، صادقين فى معاملاتهم لنا، ولا يكون ذلك حتى من البهائم السائمة، وقد بلغ السيل الزبى، وقارب الحزام الطبيين، ولم يبق إلا الموت أو النجاة،

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٧.

ولا نجاة إلا بالرجوع إلى ما كان عليه سلفنا الصالح، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾(١).

والأمر يسير؛ لأن النجاة من عذاب الله يصغر فى جانبها كل غال ورخيص، بل تصغر الشهوة والحظ واللذة فى جانبها لأن الله تعالى يقول: ﴿ **عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ** ﴾ أى: وضعوا أطراف أصابعهم بين ثناياهم، وهموا بقطعها حسرة على عدم فوزهم بإبادتنا، أو إطفاء نور ديننا. ولا يعمل الرجل هذا إلا وقد رخصت حياته فى نظره، واستعد للانتقام من عدوه. والأنامل: جمع أنملة، وهى طرف الأصبع ﴿ **مِنَ ٱلْغَيْظِ** ﴾ والغيظ حرارة فى القلب لا تطفأ إلا بالانتقام، ولا يكون الانتقام فى الغيظ إلا بإهَراق الدماء. وقد لا تطفأ هذه الحرارة إلا بشرب دم المقتول، كما فعل أهل الكفر بالله يوم أحد، عندما أكل بعضهم كبد حمزة بن عبد المطلب ! فالمسلم الذى يسمع عن الله هذه الآيات، ويخبره التاريخ عن تلك الانتقامات؛ ثم يخالف الله تعالى فيتخذ بطانة من أهل الكفر بالله؛ حكم على نفسه بالردة عن الدين، وحرمت عليه زوجته، وحرم على المسلمين دفنه فى مقابرهم، قال تعالى: ﴿ **لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ** ﴾(٢).

بل أي مسلم أن كافراً بالله يدعو إلى ذم الإسلام؛ وذم رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾؛ ثم يجتمع عليهم؛ ويسمع كلامهم؛ ويخرج من مجلسهم وهو مسلم ؟ لا أشك أنه يخرج كافرا، لأن الغيرة الإيمانية خرجت من قلبه، ولأنه غير مكره على الاجتماع بهم حتى نقول: خاف على دمه وأهله. قال ﴿ **ﷺ وآله**﴾: (مَن كَثَّرَ

---

(١) سورة الرعد آية ١١.

(٢) سورة المجادلة آية ٢٢.

قَوْماً فَهُوَ مِنهُمْ) والذين يجتمعون على من يعتقدون أنه عدو الله ورسوله وعدو المؤمنين لا تقبل توبتهم، إلا إذا دفعوا المنكر بأيديهم و ألسنتهم وقلوبهم ولو كان فى ذلك قتلهم فى سبيل الله تعالى، فإن القتل فى هذا الموطن شهادة حقيقية. فكيف يبلغ بالمسلم أن يدعى الإسلام ويسمع عدوا من أعداء الإسلام يكذب القرآن، ويقيم الحجة على أن الله له ولد، ثم يخرج وفيه نفس يتردد ؟ أنا لا أعتقد أن هذا مسلم ـــ وإن كان يخالفنى فى رأيى هذا من لا خلاق لهم ـــ فإن الرجل إذا قال له رجل : أنت تشرب الخمر، أو أبوك يشربها، أخذته العزة فغضب غضبة يكاد يقتل بها من قال ذلك فى حقه أو حق والده، لولا يدفعه الناس عنه، فكيف يرضى أن يمس جانبا يجب أن يكون أغلى عليه من روحه التى بين جنبيه وأعز عليه من الدنيا والآخرة ؟ لا يقول بإسلام مثل هذا رجل عقل عن الله كلامه، ولا رجل فى قلبه ذرة من إيمان.

إن الشريعة المطهرة رخصت لنا فى حد مخصوص ـــ تجاوزه كفر ـــ وهو أننا نرضى بظلمهم لأنفسنا، وسلبهم لأموالنا عند غلبتهم علينا انتظاراً للفرج، وتحرفا لقتال، وتحيزا لفئة مسلمة قوية، فإذا بلغ الشَّرُّ والضُّرُّ أن مسوا جانب الدين أو طعنوا فيه، وجب علينا الجهاد فرض عين، أو بؤنا بالكفر. ويكون القتل فى هذا السبيل طلبة المؤمن الكامل، ورغبته، قال تعالى: ﴿ **وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ** ﴾ (١) . وهذه الآية وإن كان سببها خاصا فحكمها عام، وإنى على يقين أن بشاشة الإيمان لا تفارق القلوب، وإن فارقتها المراقبة والمحبة. والمجتمع الإسلامى كالبركان الثائر، ينتظر أول صيحة من تقى كامل الإيمان تهيج قلبه إلى لقاء ربه. وإن ننس كل الحوادث لاننسى الحروب الصليبية، التى كانت فى زمان تفرق فيه المسلمون وخرج

---

(١) سورة التوبة آية ١٢.

بعضهم على بعض، ولكن الصيحة الحقة جمعت شتاهم، ولمت شعثهم، وردوا الصليبيين بشر هزيمة. ولا ننسى ما فعله نابليون بالمسلمين من الكيد والظلم، وما آل إليه أمره، والقوم يَجِدُّونَ الضغط على البركان، ناسين نقم القوى الديان، بل وناسين غضبة المجتمع الإسلامى؛ لغرورهم بزعماء يسارعون فيهم، والغيب مستور.

وكم فى الزوايا خبايا قال الله تعالى: ﴿**حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ**﴾ (١) وقد أخذت أرض أوربا وأمريكا واليابان وغيرها زخرفها وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها، ووعيد الله كائن لا شك فيه، وسيأتيها أمره فيلقى نار الحرب الانتقامية بينهم، فتصبح حصيدا كأن لم تغن بالأمس.

﴿ **قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ** ﴾هذه الآية الشريفة تنزل من الله تعالى ليطمئن قلوبنا بفوزنا فى الدنيا والآخرة، فإنه سبحانه يخاطب رسوله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، يأمره أن يقول لليهود والنصارى والمنافقين الذين يكيدون للإسلام والمسلمين، قل يا محمد: ﴿ **مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ** ﴾ والباء هنا للسببية، أى: أن الله يخبرنا أن أعداء الإسلام والمسلمين يموتون بغيظهم منا؛ لأن الله تعالى يسرع عليهم بالنقمة فلا يمكنهم منا، فيدوم غيظهم وذلهم فى مزيد، حتى يموتوا مما يرونه فينا من إحسان الله تعالى إلينا بالتحابب، والتوادد، والتعاطف، والإيثار. وفى هذه الآية بشرى لنا من الله تعالى، وقهر لأعدائنا. وإنا نسمع تلك الآية بآذان قلوبنا كأنها نزلت اليوم، فيقوى يقيننا،

---

(١) سورة يونس آية ٢٤.

وينكشف لنا معنى قوله﴿ ﷺ وآله﴾: (آحْفَظ آللّه يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ أَمَامَكَ، كُن مَعَ اللهِ تَرَ الله مَعَكِ).

﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ أي:إن الله ذو علم بما تخفيه صدورهم فى قلوبهم من سوء النوايا، ومن سعير نار الحقد والحسد وحب الانتقام من المسلمين، وكفانا إكراما من الله تعالى علم الله تعالى بما فى صدور أعدائنا لنا من الحرص على الضرر والشر، وعلمه سبحانه وتعالى بما فى قلوبنا لهم والعطف عليهم لنجاتهم يوم القيامة؛ ولكن بعد أن بين الله لنا هذا بيانا يجب أن تكون الرحمة التى فى قلوبنا خاصة بإخواننا المسلمين، محافظة عليهم من كيد أهل الكفر بالله تعالى بهم.

وهنا أبين لك أن المسلم بصير على نفسه، بصير فى دينه، يجب عليه أن لا يجعل للعاطفة حكما إلا فيما يرضى الله ورسوله﴿ ﷺ وآله﴾ ومسلم تدعوه العاطفة إلى أن يتخذ من غير المسلمين بطانة؛ حكم على نفسه بأنه لا بصيرة له، ومن لا بصيرة له اتبع الهوى، ومن اتبع الهوى فقد غوى، لأن الهوى أخو العمى، وما أضر المجتمع الإسلامى إلا أن المسلمين قلوبهم ملئت بالرحمة والعطف على كل ذى كبد رطبة، ومن لم يحصن تلك الرحمة والعاطفة الإسلامية بالحصون الشرعية هلك وأهلك، وكيف يعطف مسلم على كافر ؟ ويرحم عدوا لله كافرا به سبحانه جاحدا ؟ والكافر عندى شر من إبليس، وأضر من الوحش الكاسر، يجب على المسلم مهما رأى منه من الإحسان والتقرب أو التودد أن يسىء به الظن، وكيف يأمن المسلم عدوا من أعداء الله تعالى ؟ والمسلم يتحفظ من مرتكبى المعاصى، فكيف يركن إلى كافر ؟ اللهم إلا ما رخّصت لنا فيه الشريعة فى معاملة أهل الذمة بما بينته لنا الشريعة.

وهذه الآية وإن دلت على أن الله قدّر فى أزله أن المنافقين من اليهود والنصارى وغيرهم؛ الذين كانوا إذا رأوا المؤمنين قالوا إنا معكم؛ وإذا خلوا عضوا عليهم الأنامل من الغيظ؛ قَدّر سبحانه فى أزله أن هؤلاء الأعداء يموتون مما يرونه فى المسلمين من عناية الله وإكرامه لنا؛ فإن هذه الآية أيضا تبين أن الله تعالى يأمر نبيه محمدا ﴿**ﷺ وآله**﴾ بالدعاء عليهم أن يهلكهم الله بغيظهم، فإن قوله تعالى: ﴿**قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ**﴾ صادق أن يواجه أعداءه بهذا القول، ويسأل الله تعالى به عليهم، وإحياء للسنة يسن لنا أن ندعو عليهم بهذا الدعاء، فنسأل الله أن يهلكهم جميعا بغيظهم منا، وأن لا يمكن لهم فى الأرض.

قوله تعالى: إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

﴿**إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ**﴾ يزيدنا الله بيانا عن أحوال أعدائنا من اليهود والنصارى والمنافقين، بأنهم إن نصرنا الله وأقبل بوجوه خلقه على الإسلام، وأظهر المعجزات الباهرات على يد حبيبه محمد ﴿**ﷺ وآله**﴾، الدالات على صدق نبوته ورسالته، وفتح لنا كنوز عطاياه ظاهرا وباطنا؛ من الحب والتعاون والتعاضد بيننا، ومن تأييد الله لنا، ومن توالى الخيرات منه سبحانه، وهى الحسنة التى يتفضل الله بها علينا؛ بمعنى أن الله تعالى إذا تفضل علينا بأنواع الحسنات الدنيوية والأخروية (**تَسُؤْهُمْ**) أى: تحزنهم وتبكيهم وتغمهم.

وفى هذه الآية الشريفة يقظة لقلوب المؤمنين؛ لينشطوا فى القيام بطاعة الله، والمسارعة فى تنفيذ أوامره، وليدخلوا على أعدائهم الذل والخزى؛ فيكونون فى عمل يرضى الله وينيلهم خير الدنيا والآخرة، ويذل لهم أعداءهم.

﴿ **وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا** ﴾ يقيم الله لنا الحجة على ما مَكُنَ فى قلوبهم لنا من الحقد والضغائن ــ قاتلهم الله ــ يسرهم ما يُصِيبنا من السوء. كما حصل منهم جميعا فى وقعه أحد، وفى سفر رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ إلى تبوك حين ارتد عبد الله بن أبىّ بن سلول هو والمنافقون إلى المدينة، وتركوا رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ ومعه أصحابه رضوان الله عليهم لمحاربة الروم فى الشام. وكما فعل يهود خيبر من مساعدة قريش فى وقعة الخندق وقريظة وقينقاع وبنى النضير، من ذم رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، ومن مساعدتهم لقريش فى عصر رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾. وكما فعل المنافقون من الردة بعده ﴿ **ﷺ وآله**﴾ ولو تصفحنا أوراق التاريخ لوجدنا ألف حجة وحجة على صدق خبر الله عنهم، ولا يزالون ولن يزالوا تنمو الخبائث فى قلوبهم، وتقوى على عمل الشرور نفوسهم، ولا نزال نحن ولن نزال مؤيَّدين بروح من الله تعالى، مادمنا على ما كان عليه سلفنا الصالح رضى الله عنهم.

﴿ **إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾ بعد أن شرح الله تعالى لنا ما عليه أعداء الإسلام والمسلمين من سوء قصدهم، وخبث نواياهم، ومسارعتهم إلى الكيد للإسلام والمسلمين فى الآيات السابقة بين لنا ما به نجاتنا من شرورهم بقوله تعالى: ﴿ **وَإِن تصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيدُهُم شَيْئاً** ﴾ افتتح الآية بـ (**إن**) الشرطية بيانا لخيبتهم فى إرادتهم السوء لنا، لأن (**إن**) تدل على ضعف مكائدهم. والصبر هنا يراد به العمل بأوامر الله تعالى، خصوصا التى أنزلها فى نهينا عن موالاتهم، وعن اتخاذ بطانة منهم، وفى أمرنا بالتحفظ من شرورهم وخدعهم فى الظاهر مما يضمرونه لنا إذا خلوا، لأن تلك الحقائق تحتاج فى تحملها ودوامها إلى الصبر، والصبر هو حبس النفس عما تحب عملا بأوامر الله تعالى ومخالفة للعواطف والميول النفسانية. ﴿ **وَتَتَّقُوا** ﴾ والتقوى

هي مخافة الله تعالى، ووقاية من الوقوع فيما يغضبه بدوام مراقبته . ﴿ **لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيَئاً** ﴾ أى: لا يصيبكم شيء من كيدهم لكم، بإظهار الإيمان إذا قابلوكم وعضِّ الأنامل عليكم غيظا إذا فارقوكم، والسعى فى عمل ينتج الفساد بينكم فى الدين والإخاء أو غيرهما. وهذه الآية ميزان حق، لأن المسلمين إذا عملوا بوصايا القرآن وأوامره ونواهيه، حصنهم الله بحصن الحكمة، والوقاية، وأيدهم بعناية وبروح منه، وجملهم بالعزة التى وعدنا بها جماعة المسلمين، والأسباب التى وضعها الله تعالى لا نرى فيها تفاوتا. فإنا نرى النظام الشمسى مرتبطا كمال الارتباط يختلف فى الغالب. وكذلك الأسباب وضعها الله تعالى وجعل القيام بها وتنفيذها مقتضيا لنيل الخير منه سبحانه فى الدنيا والآخرة لا تختلف أبدا. فإن الله سبحانه لا يخلف وعده، قال الله تعالى: ﴿**وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ**﴾ [1] لأن الأسباب والأواسط أقامها الله تعالى للعقول لتتعرف بها إليه، وتشهد البصائر حكمته فى إبداع بدائع صنعه سبحانه. ﴿**إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**﴾ أُكدت الآية الشريفة بـ (**إِنَّ**) ليهش قلب المؤمن ويبش بها. والإحاطة هنا بـ (**إِنَ**) ليست هى الإحاطة الحسية التى يجعل المحيط ظرفا للمحاط به، ولكنها حيطة قدرة، وقوة، وقهر، فهى مجازية. ومعنى ((**إِن اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**)) أى: أنه قادر على الانتقام منهم، ودفعهم عن بلوغ ما يريدون من إساءقم وضررهم بعد تمكينكم فى الأرض بالحق رغم أنوفهم.

قوله تعالى: وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

---

[1] (١) سورة الحج آية ٤٧.

بعد أن أخبرنا الله تعالى بأحوال اليهود والنصارى والمنافقين التى تدل على بغضهم للإسلام والمسلمين كما تقدم؛ وأعلمنا أنه محيط بأعمالهم؛ بعد أن بشرنا بأننا إذا صبرنا على طاعة أمره و لم نخالف رسوله﴿ ﷺ وآله﴾ لا يضرنا كيدهم شيئا؛ وحصلت المخالفة عندما أحب عليه الصلاة والسلام أن يلقى عدوه فى المدينة، ورأوا الخروج إليه، فأصابهم بذلك بلاء فى أحد. فصَّل ذلك فقال سبحانه: **﴿ وإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكِ تُبَوِّىءُ آلْمُؤْمِنِينَ مَقَعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾** يذكرنا غزوة أحد بدليل ما بينه فى هذه الآية.

﴿**غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ**﴾ أى: خرجت من أهلك غدوة من المدينة. ﴿ **تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ**﴾ أى: تنزل المؤمنين محال القتال بما تقضيه الخطط الحربية، فجعل أُحُداً ضلعا للقلعة وأوقف الرماة فى موضعهم، وأمرهم أن لا ينتقلوا منه؛ سواء أكانت لنا أو علينا، وجعل ضلعين للقلعة من الأصحابة. ﴿ **وَآللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ يعنى أن الله سمع كلام الصحابة لرسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ عند مشورته لهم فيما يفعل بقريش، الذين جمعوا العرب وأتوا لحربه ﴿ ﷺ **وآله**﴾، حتى تولوا بأحد بعد أن أخبرهم بأنه يحب أن لايخرج إليهم من المدينة، وأحضر عبد الله بن أبى بن سلول ليستشيره، و لم يكن تكلم معه فى شأن من تلك الشئون قبل ذلك.

قوله تعالى: إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴿١٢٢﴾

هذه الآية الشريفة برهان ساطع على ما للإيمان من المكانة عند الله، حيث تفضل سبحانه على أهل الإيمان بفضله العظيم، حتى ولو وقعوا فى المعاصى، فكيف لا ؟ وهو بعد أن يخبرنا بأن طائفتين همتا بالفشل، ويخبرنا سبحانه أنه وليهما يعصمهما من الوقوع فيما يكره ويوفقهما لما يحب وبعد قوله تعالى: ﴿ **وَإِن**

طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾(١) فحكم سبحانه أنهما مع وقوعهما فى القتال لم يسلب منهما الإيمان. وبعد أن أخبرنا أن الكفر بالله لا ينفع معه عمل ولو كان من خير البر بدليل قوله تعالى: ﴿ **لن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ آللهِ شَيْئاً**﴾(٢).

والهم وإن تأوله بعضهم بأنه لم يبلغ درجة الاختيار ولا العزم؛ فهو من الصغائر عندهم. وعلى فرض أنه من الكبائر لا يضر عقدة الإيمان، ولا يخرج المسلم عن دينه، ومادام الإيمان ثابتاً فى القلب. فالله يغفر الكبائر والصغائر، ولكنه سبحانه لا يغفر أن يشرك به، ومن منحه الله تعالى الفقه فى دينه علم مراد الله تعالى من كلامه. وعبد منحه الله الإيمان فى قلبه وهو أصل الخير لم يعتوره شك ولا ريب فى عقيدته؛ لا نحكم عليه بالكفر ولا بعذاب النار والخلود فيها. وفى تلك الآية بشرى من الله تعالى لأهل الإيمان جميعاً. وفيها روح يقوى به الحياء من الله سبحانه وروح المراقبة له سبحانه، والأحرى لمن ينتسبون إلى العلم أن لا يفتحوا أبواب الفتن على المسلمين؛ بتأويل مثل هذه الآيات الشريفة. بل الواجب أن يسارعوا إلى تلقى فهمها ممن هو أعلم منهم، والله لا يخلى الأرض من قائم له بحجة. وهذه الآية معطوفة على قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ آلْمُؤْمِنِينَ مَقَعِدَ لِلْقِتَالِ**﴾.

﴿**إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ** ﴾ عند التبوء، والهم كما أنه قد يكون واردا، وخاطرا، يكون إرادة للنجاة من كثرة العدو. لا مفارقة للدين وبغضا له. وفى الوارد والخاطر والتردد فالهم صغيرة. وفى العزم والاختيار كبيرة. والكبيرة والصغيرة

---

(١) سورة الحجرات آية ٩.

(٢) سورة آل عمران آية ١٠.

يمحو ظلمتها نور الإيمان الذى انعقد عليه القلب، حتى لو وقع المؤمن فى شىء منها فإن نور القرآن يبين له خطأه، ويرجع به إلى التوبة والإنابة رحمة من الله بالمؤمنين وعطفا عليهم، وفى قوله تعالى (**مِنكُمْ**) حجة على أن القوم كانوا على إيمان كامل.

﴿ **أَن تَفْشَلا** ﴾ الفشل هو الجزع، والرعب، والفزع، ولولا أن الله تعالى دفع عنهما هذا البلاء لا هزم القوم. وكان سبب هذا الهم أن عبد الله بن أبى بن سلول لما أشار على رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ بالبقاء فى المدينة، ومحاربة الأعداء فيها، وأشار عليه بعض الصحابة بالخروج إليهم، بعد أن كان يريد عليه الصلاة والسلام أن يقيم فى المدينة فأطاع من رغبوا فى الخروج إلى لقاء العدو، وبشرهم بالنصر عليهم، ولبس آلة الحرب وخرج، فحزن عبد الله بن أبى بن سلول وقال: خالفنى وأطاع غيرى. وانتهز فرصة لقاء الأعداء وكاد للمسلمين؛ لأنه كان رأس المنافقين، وقال لأهل النفاق منهم: إذا نحن لقينا العدو نرجع مهزومين من الجيش فيرجع معنا غيرنا، وهذه عادة أهل النفاق مع النبى وأصحابه. فلما انهزم عبد الله بن أبى بن سلول وانهزم معه ثلثمائة رجل من المنافقين، هم بنو سلمة و بنو حارثة من الأوس بالهزيمة تبعا لعبد الله بن أبى سلول ــ قاتله الله ــ فأكرمهم الله تعالى بدفع الشر عنهم، وثبت قلوبهم، وأيدهم بروح منه.

﴿ **وَٱللهُ وَلِيُّهُمَا** ﴾. وفى رواية: ﴿ **وَلِيُّهُمْ** ﴾. وولاية الله تعالى تأييده لأهل الإيمان، وحفظ قلوبهم من أن يكون للشيطان عليهم سلطان. قال سبحانه: ﴿ **إِنَّ عِبَادى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ** ﴾ (١) وكفى المؤمن فخرا ولاية الله له. حتى كان من تأثير الآية على قلوب المؤمنين الذين لم يهموا بالفشل قالوا: ما يسرنا إذ لم

---

(١) سورة الحجر آية ٤٢.

هم بالفشل بعد قول الله تعالى ﴿ **وَٱللهُ وَلِيُّهُمَا** ﴾ ؟ فإن فى ذلك من صلاح الله والثناء منه سبحانه ما يشرح صدور المؤمنين، بعد أن أنزل فيهم تلك الآية بالثناء والمدح. وولاية الله كلمة جامعة لكل خيرات الدنيا والآخرة، فمنها النصر على الأعداء، والتمكين فى الأرض بالحق، والسلامة والعافية فى الدين والدنيا والآخرة، وتنفيذ الكلمة، والتوفيق لمحاب الله ومراضيه، وغير ذلك مما لا يحصر من الفضل العظيم.

﴿**وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤمِنُونَ** ﴾ التوكل هو تفويض جميع الأمور إلى الله، تفويضا يطمئن به القلب، حتى يتجمل العبد بالرضا عن الله فى كل شأن من شئونه، والتوكل أرقى مقامات اليقين، وهو فضل الله الذى يتفضل به على كُمَّلِ أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام وورثتهم من بعدهم. قال تعالى مخبرا عن هود عليه السلام: ﴿ **إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وربكم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا** ﴾ (١) والتوكل بعد مقام المحبة. والمحبة لا تكون إلا بعد كمال المعرفة. والمعرفة لا تكون إلا بعد مقام التوبة، والرجاء، والخوف. فإن الجاهل بالله لا يحبه ولا يتوكل عليه. وكيف يحب الإنسان من يجهل ؟ ومن أحب من يجهل عاداه. فقد يحب معنى من معانى جماله، ويكون الله تعالى قدّر عليه شيئاً من جلاله ينكره العبد نفورا منه، فيكره الله تعالى لعدم رضاه بقدره، وذلك من جهله بربه. وما أمر الله المؤمنين أن يتوكلوا عليه إلا لأنه يحب أن يرفعهم إلى أعلى مقامات اليقين، بعد أن تفضل عليهم بالإيمان وبمزيده وبالمحبة، وأهّلهم لمقام التوكل.

ومعنى الآية أن الله تعالى يقول وعلى الله فليعتمد ويلتجىء ويستعين كل مؤمن حصل له وهن أو ضعف أو رعب مما لا طاقة له به، أو خوف من نزول

---

(١) سورة هود آية ٥٦.

مصاب فادح. وهذه الآية بشرى للمؤمن بعد بشرى؛ لأن أمر الله للمؤمن أن يتوكل عليه سبحانه حجة على إغاثة الله له، ونصرته وفوزه بطلبته فى الدنيا والآخرة. وفى هذه الآية أيضا دليل على أن الله سبحانه وتعالى يسرع فى الإجابة على من أقبل عليه، وتوكل وتاب إليه، وأناب ورجع. فما على المؤمن إلا أن يلتجىء إلى الله فى كل حاجاته موقنا بإغاثة الله وسرعة إجابته، لأن المؤمن إذا التجأ إلى الله وحصل له الاضطرار شرح الله صدره، ومنحه اليقين الحق بنيل مقصده. أما ضعيف الإيمان فإنه إذا نزلت به مصيبة تحير قلبه، وسخط على الزمان والمكان، وانزعج فلم يصبر، وطاش عقله فنسى الله ونسى الاستغاثة، والله يقول: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ آلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ (١) وصدق الله العظيم، وكذب العبد ضعيف الإيمان . والمؤمن لا يجرب ربَّه، ولا يخالف أمره.

والتوكل على الله صولة اليقين فى القلب، التى تجعل العبد يرى ما فى يد الله أقرب إليه مما فى يده، بل ويسمع بأذن قلبه تلبية الله له عند الشدائد، بل ويحس بإمداد الله له بالخير الذى يحتاج إليه فى دنياه ودينه وآخرته. التوكل ذخيرة المؤمن، وكنز المحسن، وخير أهل اليقين، وهو مقام عَلِيٌّ خصَّة الله تعالى بأهل القرب منه، جعلنا الله من المتوكلين عليه سبحانه.

قوله تعالى: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ** ﴾ هذه الآية الشريفة مرتبطة بقوله تعالى: ﴿ **وَإِن تَصبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً** ﴾ والمعنى: إذا صبرتم على لقاء عدوكم وكيده لكم؛واتقيتم ربكم، ينصركم ويؤيدكم بنصره العزيز الذى

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٦.

نصركم به أيام كنتم قِلَّةً وكان عدوكم كثرة، وكنتم أذلة وأعداؤكم أعزة فى يوم بدر، فإن الله نصر أهل بدر وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا، وكان جيش الكفار أكثر من ألف معهم السلاح والدروع، ومعهم أحباشهم وخدمهم، وليس مع أهل بدر سلاح ولا خيل، لأنهم خرجوا من المدينة ليسوقوا عير قريش القافلة من الشام إلى مكة، وعليها أموالهم وتجاراتهم. كما أخبرنا الله تعالى فى قوله: ﴿ **وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ** ﴾ (١) أى: أن العير بما عليها يكون لكم، وأن لا تلقوا ذات الشوكة ــ يعنى الجيش ــ ولم تكونوا مستعدين له فنصركم الله وأيدكم، وهزم المشركين وأذلهم وجعلهم غنيمة لكم. وذلك لأنكم سمعتم وأطعتم وصبرتم واتقيتم، وكذلك يكون لأهل الإيمان إذا هم صبروا واتقوا. ولو أجمع على قتالهم أهل الكفر بالله جميعاً فإن الله ينصرهم ويهلك الكافرين بقوته وقهره، وكيف لا يكون ذلك ؟ وكان جيش أهل بدر ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا، فهزم الله به جيوش قريش المشركين.

. والمسلمون الآن أربعمائة مليون مسلم تقريباً(٢)، وكلهم أذلاء تحت يد من كانوا بالأمس عبيدا يباعون فى أسواقهم. فذلوا مع كثرتهم، وافتقروا مع وفرة خيراتهم، وهانوا مع قوتهم، وما ذلك إلا لأن النصر لا يكون إلا من عند الله، والله لا ينصر إلا من صبروا واتقوا. والواجب علينا فى مثل هذا الزمان أن نرجع إلى ماكان عليه، سلفنا الأول، فنجدد سنة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، ونعمل بكتاب الله، ونصبر على بلاء الله، ونجاهد فى سبيل الله، موقنين بأن النصر لا يكون إلا من عند الله . ومعنى هذه الآية أن الله تعالى يخبرنا أنه نصرنا ونحن فى قلة وذل، والعدو

---

(١) سورة الأنفال آية ٧.

(٢) كان ذلك وقت إملاء التفسير سنة ١٣٤٠هـ.

فى كثرة وعز يوم بدر، وهذا النصر من حيث لا نحتسب. فعلينا أن نتذكر هذا الفضل العظيم فنتوكل على الله، ونلتجىء إليه، وننتظر الفرج منه سبحانه.

﴿ **فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ تقدم الكلام على التقوى، ولما كان من معانى التقوى رعاية جانب الله تعالى ؛ رعاية تجعلنا نتمثل ما تفضل به سبحانه علينا من الخير فى وقت الإعطاء والمنع أمرنا بالتقوى ؛ لنشكره على ما أكرمنا به من تنجيز وعده، ومن إغاثتنا عند اضطرارنا إليه . فإذا نحن اتقينا شكرنا، وإذا نحن شكرنا منحنا المزيد من فضله، قال تعالى : ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾ (١) فالتقوى أصل كل إحسان وفضل من الله تعالى، قال سبحانه : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** ﴾ (٢) وقد تقدم الكلام على معنى (**لَعَلَّ**) فى القرآن.

قوله تعالى : إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾

هذه الآية الشريفة نزلت فى غزوة بدر على الأرجح من الروايات، وعلى هذا تكون (**إِذْ**) متعلقة بقوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ** ﴾ وروى بعضهم أنها نزلت فى أحد وتكون (**إِذْ**) متعلقة بقوله : ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ** ﴾ وظاهر اللفظ يدل على أن هذه الآية أنزلت فى غزوة بدر، ودليل ذلك اتصالها بالآية السابقة، وأن الملائكة قاتلوا يوم بدر وهزموا الأعداء . وأن المؤمنين علموا أن كرز بن جابر المحاربى همّ أن يمد المشركين بجيش، فحصل لهم حزن شديد . فقال لهم رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ **أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم**

---

(١) سورة إبراهيم آية ٧.

(٢) سورة الطلاق آية ٢ ــ ٣ .

بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ والاستفهام هناك لإنكار عدم الكفاية، ولن لنفى المستقبل . ﴿ **يَكْفِيكُمْ** ﴾ من الكفاية : وهى دفع الأذية ونيل الخير، و (**أن**) وما دخلت عليه مؤولة بمصدر أى : إمدادكم، و (**بَلَى**) إيجاب للنفى بـ (**لَنْ**) و ﴿ **ثَلاثَةِ آلاَفٍ** ﴾ أصلها ألف . بدليل قوله تعالى فى الأنفال : ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴾ (١) فأكمل الله آلاف المردفين فجعلهم ثلاثة آلاف هنا . وكل ذلك فى غزوة بدر . و لم يرد خبر يثبت أن الملائكة قاتلوا فى غزوة أحد على الأصح . والحقيقة أن الله أمد أهل بدر بألف ملك قاتلوا قريشاً مع الصحابة . ولما بلغهم خبر كرز بن جابر، وحصل لهم الحزن أمر الله تعالى رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يقول للصحابة : ﴿ **أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ** ﴾ قال الصحابة : بلى، إيجابا للمنفى . و لم يأت كرز، وهزم الله قريشا، ونصر نبيه ﴿ ﷺ وآله﴾ . فثبت بأن الله أنزل ملائكة يوم بدر زيادة عن الألف تقاتل مع الصحابة . ولما أن اطمأنت قلوب الصحابة بخبر الله فى أن يمدهم بثلاثة آلاف؛ زادهم الله طمأنينة وشكرا وفرحا بقوله لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قل لهم : ﴿ **بَلَى إِن تَصْبِرُوا ...** ﴾ .

قوله تعالى: بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

﴿ **بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا** ﴾ شرط الله تعالى للإمداد بخمسة آلاف : الصبر، والتقوى، ومجىء كرز بمن معه من الجيش . و لم يأت كرز فى بدر لما علم بهزيمة قريش . وهذا كله على أن هذه الآيات نزلت فى بدر، وقد قررنا مامضى فيها أن الله أمد أهل بدر بألف ملك قاتلوا . ومَن أوَّل

---

(١) سورة الأنفال آية ٩.

تلك الآية الشريفة أنها كانت فى أحد يرى أن انقلاب عبد الله بن أبى بن سلول مع ثلثمائة رجل من جيش رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، وقد هم أن تفشل طائفتان من الصحابة مع عبد الله وآخرين ممن بقى منهم فأيدهم الله وثبتهم، وطمأن قلوبهم فى يوم أحد بقوله : ﴿ **أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ** ﴾ على لقاء عدوكم ﴿ **وَتَتَّقُواْ** ﴾ ربكم في الرغبة فيما عنده والزهد فيما فى الدنيا . وقد تقدم معنى ﴿ **تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ** ﴾ ﴿ **وَيَأْتُوكُم** ﴾ أي : قريش ﴿**مِّن فَوْرِهِمْ** ﴾ أي : من غضبهم وحقدهم على من قتل منهم يوم بدر .

.

﴿ **يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم** ﴾ أي : يؤيدكم وينصركم ﴿ **بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ** ﴾ إن كانت من : سامت الإبل، أى : انطلقت فى المرعى، أو من قولك : الأنعام السائمة، فالمعنى : مسومين أى : مهلكين للكفار، لأن الأنعام إذا سامت أرضا أهلكت ما فيها من النبات . وتأويل هذه الكلمة بمعلَّمين بالفتح أو معلّمين بالكسر، أقرب إلى بيان الآية . وفى هذه الآية طهور مدار على أرواح أهل الإيمان إذا وفقهم الله تعالى فصبروا على مناوأة الأعداء، واتقوا الله بالرغبة فيما عنده، والزهد فيما فى الدنيا من زبرجها الفانى، وزخرفها الباطل، أمدهم سبحانه بروح منه تقوى بها هممهم، وتطمئن بها قلوبهم، وبالملائكة مردفين ومسومين، وكم أكرم الله هذه الأمة وخَلَفَها بالتأييد والنصرة — حتى فى الحروب الصليبية وبعدها إلى اليوم — والواجب علينا فى مثل تلك الظروف العصيبة ونحن فى القرن الرابع عشر من الهجرة (١) أن نعمل بقوله تعالى : ﴿ **بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ** ﴾ وقد جربنا السياسة العوجاء مع الإفرنج، واقتدينا بزعمائها، ونسينا وعد الله تعالى،

---

(١) كان هذا وقت إملاء الإمام لهذا التفسير

وكانت نتائج هذه السياسة العوجاء والمخالفة للشريعة ؛ إذلاَلنا وتمكين عدونا مِنّا . وقد وضحت الحجة لذى عقل، فهلم بنا نرجع إلى ما وعدنا الله به، ونثق أنه حكيم، قال تعالى : ﴿ **قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْك** ﴾ (١)

قوله تعالى : وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾

يزيد الله المؤمنين إيمانا حتى تبلغ بهم طمأنينة القلب التى تمناها الخليل عليه السلام . فأنزلهم ــ له الحمد والشكر ــ منازل أنبيائه الكرام ؛ لأن الخليل عليه السلام قال : (**بَلَى ولَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى**) فسأل الله أن يريه تعلق القدرة بالمقدور بقوله : ﴿ **أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى** ﴾ (٢) والله تعالى إكراماً لحبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ يكرمنا بما به تطمئن قلوبنا . كما أكرم حبيبه سيدنا محمداً ﴿ ﷺ وآله﴾ فشرح صدره بدون سؤال فقال سبحانه : ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ** ﴾ (٣) بعد قول موسى عليه السلام : ﴿ **رَبِّ آشْرَحْ لِى صَدْرِى** ﴾ (٤) ﴿ **وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ** ﴾ أي وما جعل الله وعده بإمدادكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين إلا بشرى، أى : خيرا وسرورا لكم. ﴿ **وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ** ﴾ عطف الفعل على الاسم، وكان يمكن أن يقول : وطمأنينة لقلوبكم، ولكنه سبحانه أتى بالاسم وعطف عليه الفعل ؛ لأن الوعد بالإمداد يحصل منه للإنسان أمران عظيمان : أولهما البُشرى. وثانيهما الطمأنينة، وهى القصد الأعظم . فقدم سبحانه

---

(١) سورة الأنعام ٧٣.

(٢) سورة البقرة آية ٢٦٠.

(٣) سورة الشرح آية ١.

(٤) سورة طه آية ٢٥.

البشرى، ثم أتى بالمقصد الأعظم متصلا بلام التعليل ؛ فأتى به تعالى فعلا تقوية للاطمئنان، كما قال تعالى : ﴿ **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً** ﴾ (١) فعطف الفعل على الاسم هنا لتلك الحكمة . وجائز أن تقول : الواو هنا زائدة، ويكون المعنى : وما جعله الله إلا بشرى لكم لتطمئن قلوبكم به . ولما أن وعدنا الله تعالى بإمداد الملائكة لنصرتنا على أعدائنا ؛ طهر قلوبنا من شوب التوحيد بالنظر إلى الأسباب . وإن كان الصحابة بل وكمل المؤمنين من المسلمين لا يشوب توحيدهم شوب الأسباب، لأنهم يرون الأسباب قد وضعها الله تعالى ليتعرف بها إلينا، ولكنه سبحانه تفضل فأشهدنا حقيقة التوحيد ؛ لتكون طهرة لنا مما يلم بقلوبنا من النظر إلى الأسباب، أو من الوقوف عندها، عصمنا الله تعالى مما يشوب التوحيد ويوقع فى الشرك الأخفى.

.﴿ **وَمَا النَّصْرُ** ﴾ أي : وما الظفر والفوز بالنجاة من الأعداء ونيل الخير فى الدنيا والآخرة ﴿ **إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ** ﴾ وحده فهو سبحانه القادر على أن ينصرنا من غير إمدادنا بالملائكة . قال تعالى : ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾(٢) وما وضع الله الأسباب إلا لتقوم الحجة له سبحانه على النفس والعقل والحس والجسم؛ وليظهر للأرواح ظهور القادر الحكيم الفاعل المختار، المدبر شئون خلقه، وصدر الجملة بأداة الحصر، وهو النصر الحقيقى . أو قصر الصفة على الموصوف، يعنى : النصر لا يكون لأحد من الخلق إلا من عند الله. فمن شهد النصر بكثرة عَدد أو بقوة عُدد أو بحيلة وكيد أو بسياسة وخدع ؛ فهو مشرك يجب عليه أن يجدد إسلامه ؛ لأن الشئون قدَّرها الله أزلا بإرادته

---

(١) سورة النحل آية ٨.

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٩.

ومشيئته، ونفذها أبدا بقدرته وحكمته، وأظهر الأسباب للعقول والأبصار ؛ ليظهر كمال إيمان المؤمنين، أو شرك المشركين بوقوفهم عند الأسباب .

﴿ **الْعَزِيزِ** ﴾ أي : القهار الذى يؤيد أولياءه الذين جملهم بالصبر والتقوى بقوته العلية ؛ فيذل أعداءهم وينصرهم عليهم بقهره وانتقامه، وذلك بتدبيره وتقديره الخير لهم من الأزل، وينفذ ماقدره أزلا. ﴿ **الْحَكِيمِ** ﴾ أي : الذى يظهر ماقدره بحكمة علية، وتدبير ؛ ليقوى إيمانهم، وليدخل فى الإيمان أهل الكفر بالله، الذين أذلهم الله بالمؤمنين بما أظهره من عنايته بهم وإكرامه لهم .

قوله تعالى : لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾

يزيد الله المؤمنين قوة فى إيمانهم ؛ بما بينه لنا من حكمة إمدادهم بالملائكة، فيجعل من تلك الحكمة قطع طائفة أو جماعة أو فئة من الذين كفروا . وقطعهم : إهلاكهم . والحقيقة أن الحرب إذا قامت أهلكت الطرف الذى يلى المجاهدين، وأيقظت الطرف الثانى والوسط، فمعنى ﴿ **طَرَفًا** ﴾ أى : الطائفة التى برزت للحرب، وتركت الوسط والطرف الثانى وراءها، وفى قطع هذا الطرف إذلال لمن وراءهم من قومهم وقهرلهم . وأراد سبحانه بالطرف : المقاتلين منهم . ومتى قهر الله طرفهم سرى القهر منه إلى الوسط وإلى الطرف الثانى، ولذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **أَوْ يَكْبِتَهُمْ** ﴾ والكبت لغة : هو لصق الوجه والبطن على الأرض ذلا وقهرا، وهو مأخوذ من : كبه على وجهه، ومنها كبته، أى : رماه على وجهه فوق الأرض . والمعنى : أن من لم يُقتل منهم يهان حتى يسقط على وجهه فوق الأرض من الجراح والخوف .

﴿ **فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ** ﴾ أي : فيؤول من كبتهم الله و لم يهلكوا فى القتال بالخيبة من الظفر بما كانوا يقصدونه، ومن سلب ما كان فى أيديهم من الأموال والنعم باستيلاء الصحابة عليه غنيمة . والخيبة : حرمان الإنسان من الضرورى والكمالى ومن آماله .

قوله تعالى : لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾

معنى هذه الآية بحسب النظم : ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون، ليس لك من الأمر شيء . فقدم سبحانه : ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ على نظم الآية، لأنه هو المقصود الأعظم من البيان، لأن ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ** ﴾ أي : ليس لك من أمور عبادى فى الرحمة بهم، والشفقة عليهم، وتمنى الخير لهم، أو فى الانتقام منهم، وقهرهم، لأن ذلك كله إلىَّ لا إليك، والذى لك هو أن تنفذ أمرى مسارعة إلى رضاى، ولا تجعل لك مرادا إلا المسارعة إلى القيام بما أمرتك به، فإن فى ذلك نيل مرضاتى ؛ أما ما جعلته فى قلبك من الرحمة العامة ؛ والشفقة الشاملة ؛ وحب الخير للخلق جميعاً ؛ فذلك إنما تستعمله فيما أمرتك به ؛ ونهيتك عنه ؛ لأكون أنا الفاعل المختار وحدى، لا شريك لى .

وذلك لأن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بقدر ما كان يحصل من الرسل السابقين من الدعاء على قومهم، وتمنى إهلاكهم، ودمارهم، كان قلبه عليه الصلاة والسلام مفعما بالرحمة على الخلق، والعطف عليهم، وتمنى هدايتهم، حتى عتب الله

سبحانه عليه فى هذه الأحوال الرحمانية، قال تعالى : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ آللهِ لِنتَ لَهُمْ .وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَ نفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ (١) وقال سبحانه : ﴿**فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَات** ﴾ (٢) وقال جل جلاله : ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ** ﴾ (٣) وأمثالها من الآيات الشريفة . بعد قول نوح عليه السلام: ﴿ **رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا** ﴾ (٤) وقول موسى عليه السلام: ﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ** ﴾ (٥) الآية . مع أن رسول الله محمداً ﴿ **ﷺ وآله**﴾ كان إذا اشتد عليه البلاء قال : ﴿ **رَبِّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ وهذه الآية الشريفة من هذا المعنى . فقوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ آلأَمْرِ شَيْءٌ** ﴾ أنزلها الله عتابا لنبيه محمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾ على ما كان يتمناه للخلق أجمعين من الهداية، والنجاة من الكفر والعذاب يوم القيامة .

وعلى تأويل أن الآية افتتحت بـ ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ** ﴾ تكون (أَو) الداخلة على ﴿ **يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ** ﴾ بمعنى حتى، ويكون الفعل منصوبا بها .

والآية الشريفة من قوله سبحانه : ﴿ **لِيَقْطَعَ طَرَفاً** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿**فَإِنَّهُمْ ظَلِمُونَ** ﴾ نزلت فى غزوة أحد . سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﴿

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩.

(٢) سورة فاطر آية ٨.

(٣) سورة الكهف آية ٦.

(٤) سورة نوح آية ٢٦.

(٥) سورة يونس آية ٨٨.

ﷺوآله﴾ صلى الفجر بعد غزوة أحد، وبعد أن كسرت رباعيته وشجت رأسه دعا للمستضعفين من المسلمين فى مكة، ودعا على جبابرة قريش، وهى المرة الفذة التى دعا فيها فأنزل الله عليه : ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ** ﴾ أى : ليس لك من الحكم والقضاء على خلقى شىء، إلا أن تنفذ أمرى فيهم ؛ لأنى أنا الحكم العدل الذى قضيت ما قضيته أزلا حتى أتوب عليهم أو أعذبهم، فإنى لا أعذب إلا الظالمين ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ **فَإِنَّهُمْ ظَلِمُونَ** ﴾ . والظلم هو الشرك بالله . وتقدم الكلام فى غزوة أحد بالإجمال، ومن رغب التفصيل فليراجعه فى مكانه .

وفى هذه الآية الشريفة من الإشارات على مشاهد التوحيد ما فيها . إن الله تعالى يقول : ﴿ **أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ يبين الله تعالى أن الخلق أجمعين لن يضروه شيئاً ولو كانوا على قلب أكفر رجل منهم، وأنهم إنما يظلمون أنفسهم بالكفر والمعصية، وهو جل جلاله أخبرنا أن له سبعين اسما من أسماء الجمال، وله تسعة عشر اسما من أسماء الجلال، وأن رحمته وسعت كل شىء، فله فضل وإحسان على عباده، فيقدّر الخطايا جل جلاله، ويقدِّر العفو والمغفرة سبحانه، ويوفق العبد بما يُنيله به التوبة إليه، ويتفضل فيقبل التوبة . ثم يتفضل فيغفر الذنوب . ثم يتفضل فيبدل سيئاته بحسنات . وهو الحَكَمُ العدل، فيؤاخذ من شاء من عبيده بخطاياه فيحرمه سبحانه من التوبة، وتكون مؤاخذته جل جلاله للعبد على قدر الخطايا، وذلك كله برهان على أنه سبحانه هو الفاعل المختار، الملك القادر الحكيم، الذى لا يسأل عما يفعل . هذا إذا نحن فهمنا أن قوله : ﴿ **فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ خبر عن مفعولى يتوب ويعذب، ويكون : ﴿ **فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ صادقا على من تاب عليهم، وعلى من عذبهم . ونحن نجوز أن الله تعالى يخلف وعيده وإن لم يخلف وعده، ويجوز أن تكون المغفرة منه لأهل الظلم لأنفسهم يوم القيامة ؛ لأن

الله على كل شيء قدير، لا يتقيد بوعيده بل ولا بوعده، إلا أن وعده تَفَضُّل منه فلا يخلفه ؛ لأنه سبحانه ذو الفضل العظيم .

قوله تعالى : وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

﴿ **وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ هذه الآية مرتبطة بالآية قبلها. والمعنى أن الله تعالى يقول لحبيبه محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾، ليس لك من الأمر شيء، بل الأمر كله له سبحانه وتعالى، فيتوب على من شاء، ويعذب من شاء ممن خالفوا أمره، وذلك لأنه سبحانه وتعالى له ما فى السموات وما فى الأرض مُلْكًا وإيجادا ، ولما كانت السموات والأرض مكانا لخلقه، وكان من خلقه من هم أفضل من السموات والأرض، لزم أن تكون السموات والأرض له جل جلاله بدليل قوله تعالى : ﴿ **لَهُ مُلْكُ آلسَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾(٢) وبهذا يثبت أن من فى السموات والأرض وما فيها له سبحانه مُلْكًا وإيجادا، ومتى ثبت ذلك قامت الحجة أنه سبحانه يفعل ما يشاء فى ملكه، ويتصرف فيما يريد سبحانه من غير أن يسأل عما يفعل، لأنه مالك كل شيء، وموجد كل شيء .

وفى هذه الآية الشريفة حجة على أن كل مخلوق ــ وإن علا ــ عبد لله طوعا أو كرها، وبها تجريد التوحيد من الشوب حتى تثبت وحدة الأفعال، وهى أن الفاعل المختار ﴿ **أَحَدٌ** ﴾ هو الذى وضع الأسباب وأقامها أواسط بينه وبين خلقه، فظهر سبحانه بمعانى صفاته فى تلك الأسباب والأواسط، فإن الكائنات جميعها لا

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٧.

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٥.

تخلو من خصوصيات، ليست لها تلك الخصوصية لأنها مادة ؛ بل لأن القادر الحكيم خلق تلك الخصوصية فى كل مادة بحسبها .

وفى طى تلك الخصوصيات تجليات لأهل البصائر تجلى للناظر إليها بعيون عقله ونفسه، وجمال علىٌّ يشهد الأرواح أنوار الأسماء العلية التى أفاض الله منها جماله وجلاله على الخلق . وما من مادة من المواد، ولا حقيقة من الحقائق، إلا وأبدع الله فيها من بدائع إبداع صنعه أنواعا كثيرة من الخواص لا حياة للعالم بأجمعه إلا بها، فترى الشمس مع أنها تضىء تعطى الحرارة للأجسام، وتبخر الماء، وتؤثر فى الهواء، وتنمى المعادن، وتحمل المدر فى البحار العظيمة، وتغذى النباتات بما تكمنه فيها من أنواع الحرارة التى تكون فى أليافها وجذوعها وفروعها، وتوجد عند التهاب النار بها، وتعطى الألوان للزهور، وتنضج الفواكه، وتوجد الزيوت فى البذور المؤهلة لها، وتعمل غير ذلك بالخواص التى أودعها الله فيها .

جمع الله السموات وأفراد الأرض ؛ ليدل على أن السموات كثيرة، وأن الأرض واحدة . فإنه ماذكر السماء فى القرآن إلا وأخبر سبحانه أنها سبع سموات، ولاذكر الأرض إلا وأفردها . وما وقع من الخلاف بين العلماء وتخبط علماء الأحكام الشرعية إلا من عدم تحقيق علماء الأحكام، وجهل علماء التحقيق بآداب المناظرة . وإلا فالقرآن أنزله الله تعالى الذى خلق كل شىء وعلم بكل شىء قبل خلقه، فخبره لا يخالف المشاهدات الحسية والعقلية، وقد أثبت الحس أن الأرض واحدة، وأنها ليست كروية تامة التكور، ولا مبسوطة كل البسط، ولم ترد فى القرآن آية تدل على أنها مبسوطة ولا أنها كرة . ولكنا نرى أن كل ما خلقه الله من تلك الأجرام الهائلة يكون مستديرا . والأرض وإن كانت منقسمة إلى سبعة أقسام، وهى آسيا وإفريقيا وأوربا واستراليا والأمريكتان وجزائر الأوقيانوسات ؛ فإنها كتلة واحدة فصلت بالبحار . ولا يجوز أن نسميها سبعة أراضى .

وإن ورد فى الآية الشريفة قوله تعالى : ﴿ **خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُن** ﴾(١) فإن المشبه به السموات، والمشبه الأرض، ووجه الشبه هنا أن الله خلق الأرض سبع طبقات . ووجه الشبه هنا أن الله خلق الأرض كما خلق السموات، ولم يرد نص صريح على أن الأرض سبع طبقات لتقوم الحجة . وهذه الآية لا تقوم بها الحجة على ذلك، وما مال إليه الباحثون فى طبقات الأرض ؛ مما وصلوا إليه من أن الأرض فيها طبقات ترابية، ثم حجرية، ثم معدنية، ثم بعد ذلك أجسام أشفّ من ذلك وأهش ؛ فذلك مما لا يستدل به على شىء ؛ فإن تأثير الأفلاك على الطبقات العليا، وما تقبله تلك الطبقات العليا من تأثير تلك الأفلاك؛ من حرارة ورطوبة، وما يحدث فيها من انفعالات كيماوية فى جرم الأرض الباطن؛ يجعل تلك الأجسام التى كمنت فيها تلك الآثار ؛ تخالف كل المخالفة سطحها الظاهر، كما يحصل هذا التأثير فى الأجسام الحية، التى تكون فى الأقاليم الباردة أو الحارة، والواجب ألا نتعصب لما نفهمه فى كتاب الله حتى تقوم الحجة، فلا نفتح أبواب الفتن على المسلمين فيقعون فى الجدل الذى حرمه الله تعالى .

﴿ **يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء** ﴾ المغفرة فى اللغة : هى الستر على الذنب، حتى ينسى ذنوبه فلا يرى أحد عليه ذنبا ولا الملائكة، قال ﴿ **ﷺ وآله**﴾: (إِذَا تَابَ آلْعَبْدُ أَنْسَى آللهُ آلْحَفَظَةَ ذُنُوبَه وَأَنسَى ذَلك جَوَارِحَهُ وَمَعَالِمَهُ مِنَ آلأَرْضِ حَتى يَلْقَى آللهَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ شَاهِدٌ بِذَنبٍ) والعذاب هو الانتقام من المجرم المرتكب للكبائر .

---

(١) سورة الطلاق آية ١٢.

وفى هذه الآية دليل على أن الله تعالى لا يتقيد بشىء فهو الملك المطلق، يتفضل بفضله العظيم على من يشاء بغير استحقاق، ويعاقب من يشاء باستحقاق.

﴿ **وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ أي : ستار يستر العيوب، والذنوب الصغائر والكبائر بفضله وإحسانه . (**رَّحِيمٌ**) أى : عطوف وسع خلقه برحمته، ولولا رحمته لما وجد كون، ولولاها لما بقى فى السموات والأرض مخلوق. فبرحمته أوجد الخلق، وبرحمته أمدهم بمابه بقاؤهم إلى الأجل المحتوم، وبرحمته تفضل فأرسل الرسل، وأقام العلماء، وبها أنزل الأمطار، وسخر السحاب، وصرف الرياح، وأجرى الأنهار، وزرع النباتات، وأمد الخلق بما لا بد لهم منه وأكمل . فسبحان الغفور الرحيم . وقد ذكر هذين الاسمين الشريفين ليشهد النفوس فضله العميم، وبره وجوده ولطفه ورأفته، فتنجذب إلى الإسلام بعامل المحبة .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾

بعد أن بين الله تعالى أحكام الجهاد ؛ وما يجب على المؤمنين أن يقوموا به بالنسبة لأعداء الله تعالى ؛ استأنف الكلام بأحكام يجب أن يراعيها المؤمنون . وجائز أن يكون كفار قريش حصلوا من ربح الربا أموالا أنفقوها فى محاربة الله ورسوله، فجائز أن تميل قلوب الصحابة إلى استعمال الربا . ليجمعوا منه أموالا كثيرة يجاهدون به أعداء الله تعالى، فبين لهم حرمه الربا بقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ** ﴾ الآية . أى : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿ **لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً** ﴾ هذه أول آية نزلت فى الربا، وهى منسوجة بقوله تعالى : ﴿

وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾[1] ومعناها أن الرجل فى الجاهلية كان إذا أعطى الرجل مالا وزاد عليه ربا و لم يتمكن من دفع المال فى ميعاده، زاد عليه مالاً آخر وأجَّله، حتى قد يبلغ الربا أضعاف رأس المال، فنهانا الله عن ذلك . وهذه الآية لا تفيد إباحة الربا بأقل من ذلك .

﴿ **وَاتَّقُواْ اللّهَ** ﴾ تقدم معنى التقوى والفلاح فى سورة البقرة، ولكنا نزيد هنا بأن الله تعالى جعل كل خير يمنحه العبد متوقفا على التقوى . فالتقوى سبب كل خير فى الدنيا والآخرة ؛ لأن تقوى الله تعالى تكسب الإنسان أخلاقا جميلة من المراقبة لربه، فيحب لغيره ما يحب لنفسه، بل ويؤثر غيره على نفسه فى مرضاة الله تعالى فيلقى الله عليه محبة منه سبحانه فيحبه الخلق، وبذلك يعيش سعيداً عزيزا، فإذا مات واجهه الله بما يواجه به الأتقياء من عباده، فأنزله فى دار كرامته، وجمعه مع النبيين والصديقين والشهداء، وفى مقعد صدق عند مليك مقتدر . ومن اتقى الله تعالى ملأ الله قلبه غنى، وأراح جسمه من العناء، ووسع له رزقه، والتَّقِىُّ قريب من الله ؛ قريب من الخلق ؛ قريب من الجنة، بعيد عن النار .

﴿ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ أى: لتفلحوا، والإفلاح هو الفوز بجميع المقاصد . فمن كان مراده الله فاز بمقصده، ومن كان مراده مادون الله تعالى من نعيم الآخرة ومسراتها فاز به بسبب التقوى .

.قوله تعالى : وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧٥.

﴿ **وَاتَّقُواْ النَّارَ** ﴾ بينت لك فيما سبق أنواع القوى، وهى تقوى الله، وتقوى الرب، وتقوى اليوم، وتقوى النار، وقد تقدم لك تعريف التقوى . وتقوى النار هاهنا ؛ هو العناية بالتحفظ عن عمل يستوجب دخول النار .

﴿ **الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ أي : أعدها الله للكافرين . فإذا قارف المؤمنون عملا لا يعمله إلا أهل الكفر بالله ؛ اتصلوا بهم . وهذه الأعمال التى سيقت الآية الشريفة لها هى الربا . فإن أكل الربا لا يستطيبه إلا أهل الكفر بالله، الذين سلب الكفر الرحمة من قلوبهم ، وابدلها بالطمع والحسد والحرص، ولا تكون تلك المعانى فى قلب كمل فيه الإيمان، فإن الإيمان كما قررت لك : عقد القلب على إفراد الله بالتعظيم، وعلى المسارعة إلى العمل بأمره، والبعد عما نهى عنه، فإقرار باللسان، فعمل بالجوارح، وقلب عمر بعقيدة التوحيد واطمأن بذكر الله يعصمه الله من الوقوع فى الكبائر، قال تعالى : ﴿ **إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾(١) ولا يفرح عبد بعمل المعاصى وقلبه فيه الإيمان، قال ﴿ **ﷺ وآله**﴾ : (لَاَ يَزْنِى آلزَّانِى حِينَ يَزْنِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلاَ يَشْرَبُ آلْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِن) الحديث . وهذه الآية تدل على أن مرتكبى الكبائر التى لا يقع فيها إلا أهل الكفر باله تعالى يدخلون النار، ولم يخالف ما عليه أكثر المسلمين من أن المؤمن لا يدخل النار . فإن المراد منها أن المؤمن الذى طهره الله من الوقوع فى الكبائر — مهما ارتكب من السيئات الأخرى — لا يدخل النار، وذلك لأن الإيمان يزيد وينقص، ونقصانه بعمل المعاصى، وزيادته بتحصيل العلم النافع، والمسارعة إلى العمل الرافع .

قوله تعالى : وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾.

---

(١) سورة النساء آية ٣١.

.﴿ **وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ** ﴾ هذه الآية يعتب الله بها على الصحابة الذين شهدوا يوم أحد من الرماة الذين خالفوا رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وتركوا مواقفهم وأسرعوا للغنيمة، فكان ما كان، وإن كان سببها خاصا ولكنها عامة فى الحكم . ومعناها : أن الله يقول للمؤمنين أطيعوا الله تعالى فيما كلّفكم به فى كتابه العزيز، وأطيعوا الرسول فيما بيَّنه لكم من كتاب الله، وما أمركم به بالقول والعمل .

﴿ **لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ أى : لترحموا فتنالوا النجاة فى الدنيا من عقوبة الله تعالى فيها، وتنالوا النجاة فى الآخرة بالفوز بالجنة والعبد عن النار . هذه الآية وما بعدها وما قبلها متصلة بغزوة أحد .

وفى هذه الآية إشارة إلى أن طاعة الرسول فرض عين علينا فيما أمرنا به و لم يكن له دليل من القرآن، وهى حجة على بعض من لاخلاق لهم، ممن إذا سمعوا الخبر عن الرسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ قالوا : ما رأيناه فى كتاب الله عملنا به، وما لم نره فى الكتاب لم نعمل له !! وقد ورد فى آخر الحديث الطويل قوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾: (أَمَا وَإِنِّى أُوتِيتُ آلقُرآنَ وَأَكْثَرَ مِنَ آلْقُرْآنِ) وإنا لم يصل إلينا القرآن إلا منه ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وقد قامت الحجة بالمعجزة وبالعقل وبما أنزله الله فى الكتب السالفة من أنه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ خاتم الرسل، وأنه معصوم، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴾(١).

قوله تعالى : وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾

---

(١) سورة النجم آية ٣ ــ ٤ .

﴿ **وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ هذه الآية الشريفة من متعلقات غزوة أحد، والحكم فيها عام أيضا، والمسارعة لا تكون إلى المغفرة، ولكنها تكون إلى ما ينيل العبد المغفرة من الله تعالى، والأمر فيها عام لا يختص بحكم دون حكم ؛ لأن السياق يقتضى المسارعة إلى طاعة الله وطاعة رسوله فى كل أمر ونهى، وإن خصه بعضهم بقوله : هو الإسلام، أو الجهاد، أو الحج . والظاهر أنه لا قرينة تعين نوعا من أنواع الأحكام دون غيره . ونيل المغفرة لا يكون إلا بالقيام بتأدية كل الأوامر واجتناب كل ما نهى الله عنه .

﴿ **وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ** ﴾ هذا دليل على أن الجنة مخلوقة، وأن مكانها فوق السماء السابعة، وسقفها العرش، وهى محيطة بالسماء السابعة وأكثر، حتى أن عرضها لو وضعت طبقات السموات ومدت الأرض واتصلت بطبقات السموات لكانت مثله، والعرض أقل من الطول بكثير فكيف يكون طولها؟ ومادعا بعض من يجهل قدرة الله تعالى إلى السؤال بقوله : إذا كان عرض الجنة كالسموات والأرض متصلة بعضها ببعض ممتدة، فأين تكون النار ؟ الأمر هين عقلا ؛ لأن داراً سقفها العرش، ومكانها فوق السموات السبع، والسموات السبع تحت أرضها من كل جهة، وكل سماء فى جوف الأخرى، وبين الجنة والسماء السابعة كما بين الأرض والسماء السابعة من الارتفاع، هذه الدار يكون طولها بعد هذا التصوير مساويا لعرض السموات والأرض . ولكن الجاهل عدو نفسه ؛ وقد كتب هرقل ملك الروم فى الشام إلى رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ يسأله : أنت تقول : الجنة عرضها السموات والأرض فأين تكون النار ؟ فأجابه رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ بقوله : (سبحان الله، هذا النهارُ فأين يكونُ الليل ؟) وفى هذا الجواب الحجة البالغة، التى أخضعت أهل الشك والريب .

. ﴿ **أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ أى : أن الله تعالى خلق وجعلها دار نعيمه المقيم، وأعدها محملة بما به مسرات الروح، وبهجة العقل، ولذة الجسم، وأنس الحس، وأكرم بها أهل التقوى من عباده المؤمنين، وجعلها دائمة أبدية، ولما كان هذا الخير من الله تعالى يجعل نفوس أهل الإيمان يشتاقون إلى علم ما يحصلون به الفوز بهذا النعيم الأبدى . بين الله صفات المتقين، ولم يذكر أشخاصهم رحمة بعباده، ووسعة لرحمته سبحانه، حتى يسارع من سبق فى عمله تعالى إعدادها لهم، وذكر تلك الصفات وافتتحها بما هو شاق على النفوس، وهو الإنفاق فقال سبحانه :

قوله تعالى : الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

﴿ **آلَّذِينَ يُنفِقُونَ** ﴾ والإنفاق هو صرف المال فى سبيل الله تعالى كالجهاد، والحج، وإغاثة الغريب، والأسير والفقير ؛ ليعلم أكلة الربا ــ من سُلبوا الرحمة من قلوبهم فصاروا أضر من الوحوش الكاسرة ببنى الإنسان ــ كيف يكون الإنفاق فى سبيل الله تعالى، وكيف لا ؟ والله تعالى أعد الجنة التى عرضها السموات الأرض لكل تقى بمفرده، وجعل من أعظم صفاتهم وأجلها الإنفاق فى السراء والضراء فى سبيل الله تعالى . ﴿ **فِى آلسَّرَّآءِ** ﴾ والسراء هي مزيد السرور، وهو الوسعة فى الأرزاق، والعافية فى الأبدان، والصلاح فى الأهل والأولاد . ﴿ **وَآلضَّرَّآءِ** ﴾ هى الشدة فى الضرر، وتكون بالفقر، والمرض، وسوء الحال . والتقىُّ هو الذى ينفق ماله فى وجوه الخير حالة الغنى والفقر، كما قال الله تعالى : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾(١).

---

(١) سورة الحشر آية ٩.

.﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ** ﴾ أى: الذين يقهرون أنفسهم عند إسعار نار الغضب، وهيجان شهوة الانتقام، فيحسبون أنفسهم عن إظهار مقتضى الغيظ . وكظم الغيظ برهان على جهاد العبد نفسه، مسارعة إلى نيل رضاء الله تعالى .

.﴿ **وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ** ﴾ لما كان كظم الغيظ تجرع مرارة الصبر على مضض ؛ وكان هذا مقاما من مقامات أهل المعرفة ؛ ولكن أعلى منه وأفضل أن يحسن إلى المسيء، قال رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ : (أَحْسِنْ إلى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ تَكُنْ أَعْبَدَ آلنَّاسِ) وفى الحكمة : ((الإِحسانُ وراءَ الإِحسانِ إحسانٌ، وأحسن منه : الإِحسانُ وراء الإِساءَة . والإِساءةُ وراءَ الإِساءةِ إساءةٌ، وأسوءُ منها الإِساءةُ وراءَ الإِحسانِ)) وكظم الغيظ لأهل الصبر، والعفو عن المسيء عفوا ينتج عنه صفاء جوهر النفس ؛ صفاء يجعل العافى عن المسيء يعطف عليه، ويتودد إليه، وهو من أعلى مقامات أهل اليقين، بدليل قوله تعالى : ﴿ **وَآللهُ يُحِبُّ آلْمُحْسِنِينَ** ﴾ فجعل محبته سبحانه التى هى أعظم نعمة ينعم بها على من اصطفاهم من خيرة خلقه — تفضلا منه على من جملهم بتلك الصفات المحبوبة لحضرته، ومن أجلّها العفو عن الناس .

﴿ **وَآللهُ يُحِبُّ آلْمُحْسِنِينَ** ﴾ أخبرنا سبحانه بأنه يحب المحسنين، والمحبة من الله هى إيثار الله العبد إيثارا يجعله فردا لذاته، كما قال مخبرا عن إخوة يوسف عليه السلام : ﴿ **تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا** ﴾(١) وخبر الله بأنه يحب المحسنين حجة على منكرى محبة الله للعبد، وقد بينتُ هذا الموضوع فى كتاب : (أصول الوصول

---

(١) سورة يوسف آية ٩١.

)(١) فى مقام المحبة، فليرجع إليه طالب المزيد من العلم . والمحسن هو الذى سارع إلى القيام بأوامر الله تعالى ابتغاء مرضاته جل جلاله، مراعيا فى ذلك الاقتداء بالسنة الشريفة ؛ ولا يكون الإحسان إحسانا إلا إذا كان عمل الجوارح مستمدا من القلب، حتى يكون القلب والجوارح متحدين نية وإرادة وعملا، قال رسول الله عنه: (ٱلْإِحْسَانُ أن تَعْبُدَ ٱللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِن لَمْ تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) فالمقام الأول اليقين المؤيد بالشهود، والمقام الثانى مقام المراقبة والرعاية المؤيد بالعلم الحق . وكفى المحسنين شرفا أن الله يخبرنا بمحبته لهم، وهذا هو المقام الذى تسارع إليه أرواح الصفوة من عباد الله المؤمنين، وما أحب الله عبدا إلا جمله بجذبة المحبوب لحضرته العلية، قال سبحانه : ﴿ **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ﴾(٢).

قوله تعالى : وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾

لَمَّا بين الله تعالى لنا أنه أعد جنة . عرضها السموات والأرض لكل تقى، ورحمة بعبادة بيّن لهم الصفات التى تجعل لمن تجمل بها هذه الجنة . وذكر تلك الصفات فى أنواعها، فجعل من أهم تلك الصفات وأجملها تلك الأخلاق الجميلة، التى يتجمل بها المتطهرون من دنس البشرية من ولوازم الحيوانية، ودواعى النفوس الأمارة بالسوء، وشرحها بقوله مبتدئا بالقسم المالى : ﴿ **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ** ﴾ ثم بالنوع الأخلاق بقوله : ﴿ **وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ**

---

(١) يطلب هذا الكتاب وغيره من كتب الإمام أبى العزائم رضى الله عنه من مكتبة دار المدينة المنورة ١١٤ ش مجلس الشعب ــ بالقاهرة .

(٢) سورة المائدة آية ٥٤.

عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ وبشرهم بمحبته لهم بقوله : ﴿ **وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ وهو فضل من الله مضاف إلى تفضله سبحانه عليهم بتلك الصفات العالية . ولما أن بين سبحانه صفات المتطهرين من خلقه، طمأن قلوب أهل المعاصى ؛ وهو النوع الثانى الذى ينال من وفقه الله للقيام به جنة عرضها السموات والأرض فقال تعالى :

. ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً** ﴾ أي : وقعوا فى ذنب تجاوزوا بوقوعهم فيه حد الأدب مع الشريعة تجاوزا فاحشا، وإن كان خصه بعضهم بأن الفاحشة هى الزنا، بدليل قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَقْرَبُوا ٱلزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً** ﴾(١) والمعنى: والذين إذا فعلوا فعلة فاحشة، فأتى بلفظ الفاحشة نكرة، ونسلم بأن الفاحشة هى الزنا، إلا أن ذلك لا يمنعنا من أن نفهم أن (**فَاحِشَةً**) هنا قد يراد بها كل كبيرة، وهذه وسعة من الله تحفظ قلب المؤمن من اليأس، أو القنوط بارتكاب الكبائر، وتُطْمِعُه فى نيل مغفرة من الله وثوابه،و هذا كمال الفضل من الله العظيم الذى لا تضره المعاصى ولا تنفعه الطاعات . وعلى هذا، فالمؤمن فتح الله له أبواب التقرب إليه، وجذبه بجواذب الإحسان ؛ ليفوز بما لديه، فلا يدخل مؤمن نار جهنم إلا إذا كان ممن سبقت لهم السوءى، وقفل الله قلوبهم عن ذكره .

﴿ **أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ** ﴾ ذكر ظلم النفس هنا بعد الفاحشة دليل على أن ظلم النفس هو وقوع المؤمن فى الصغائر التى لم يَحدُ لها القرآن المجيد حدًّا يقام على مرتكبيها . إلا أنها تكون سببا فى الوقوع فى الكبائر إن تمادى المؤمن فى فعلها، وهى كالنظرة، والتهاون بفعل السنن المرغب فيها أو ما أشبه ذلك مما لا يتنزه عن الوقوع فيه كُمَّل الرجال أهل المقامات العالية . وهنا نتحقق أن الله تعالى هو

---

(١) سورة الإسراء آية ٣٢.

لنا نعم الرب، ونسأله سبحانه أن يجعلنا له نعم العبيد، فإن ذلك بفضله وإحسانه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وعلينا أن نحكم على أنفسنا بالعجز عن شكره جل جلاله، ونسأله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، قياماً لحضرته العليّة بالواجب علينا على قدرنا لاعلى قدره .

﴿ **ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ** ﴾ ولما كان ذكر الله تعالى يكون على قدر علم العبد به سبحانه ؛ حذف المضاف إليه . فإن من المؤمنين من يذكر عقوبته فى الدنيا كالفقر والمرض والزلزال وعداوة الخلق فيستغفره عند وقوع الكبائر والصغائر، ومنهم من يذكر الموت وعذاب القبر فيسارع إلى الاستغفار، ومنهم من يذكر حساب الآخرة وعقوبتها ونعيمها فيستغفره سبحانه مما ألم بنفسه من اللقس، ومنهم من يذكر رضوانه الأكبر ومشاهدة جماله العلى فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ؛ فيستغفر الله من أصغر الهفوات التى يراها كأكبر الكبائر بالنسبة لأهل الغفلة، فإنه إنما يعظم الهفوات بقدر تعظيمه لربه، كما أن أهل الغفلة بجهلهم بالله لا تعظم فى نفوسهم إلا الكبائر . ومنهم أهل الرضا عن الله ؛ الذين رضى الله عنهم وأرضاهم، فإنهم يستغفرون الله إذا لم يقوموا بما قام به أهل العزائم من السلف والخلف . فاستغفارهم لا ستغفارهم أعظم القربات، والذى كان يستغفر فى المجلس الواحد سبعين مرة هو سيد المحبوبين وإمام المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام، وهل هذا الأستغفار منه ﴿ ﷺ وآله﴾ إلا علم بنفسه وبربِّهِ ؟ قال تعالى: ﴿ **إِذَا جَآءَ نَصْرُ آللهِ وَآلْفَتحُ وَرَأَيْتَ آلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ آللهِ أَفْوَاجاً** ﴾⁽¹⁾ الخ السورة . ومن احتسى جرعة من هذا الطهور المحمدى ؛ يعلم كيف أن الله أمر نبيه وأصحابه بعد نصر الله لهم فى الجهاد ودخول الناس فى دينه أفواجا بفادح جهادهم، وبذل أنفسهم تحت شفار السيوف ؛ أمرهم بعد ذلك بالتسبيح

---

(١) سورة النصر آية ١ ـــ ٢.

والاستغفار، وهم فيما كانوا فيه من مرضاته جل جلاله، فكيف بنا ونحن فى كمال الغفلة والنسيان ؟ ونحن أولى بأن نستغرق أنفاسنا فى الاستغفار والتوبة إلى الله، ونطمع أن يغفر لنا ؛ بل نتمنى أن يغفر لنا .

فقوله : ﴿ **ذَكَرُوا آللهَ** ﴾ أي : ذكروا عقوبته ومؤاخذته فى الدنيا والآخرة. ﴿ **فَآستَغفَرُواْ لِذُنُوبِهِمُ** ﴾ أي ذكروا ما قررتُ لك، فأنتجب الذكرى انفعالا نفسانيا تمثلت فيه النفس وقوع المكروه ولا محالة، ولم يبق لها إلا طلب الخلاص منه ؛ أو الوقوع فى اليأس والقنوط . فيسرَّ الله للمذنبين سبل النجاة، وفتح لهم أبواب القبول، فسارعوا إلى الاستغفار بوجدان جاذب إلى الله تعالى بعد تمثل ما توعد الله به أهل الكفر والنفاق، فلما أنتجت تلك الذكرى ؛ وأنتج هذا الانفعال المسارعة إلى الاستغفار بعد كسر القلب، من ندم على الوقوع فى معاصى الله، والعزم على عدم العودة بمجاهدة فادحة ؛ تفضل الله فطمأن قلوبهم، وبين لهم سبحانه أنه هو المتفرد بالعفو والمغفرة والقبول دون غيره، وأنه سبحانه لا تضره معاصى الخلق، كما لا تنفعه طاعاتهم . فأتى بقوله تعالى ﴿ **وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ** ﴾ .

. ﴿ **وَمَن يَغفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ** ﴾ وهى جملة حالية مقحمة بين الآيتين ؛ ليسرهم بقبول توبتهم، بأنه غفر لهم، ثم ساق الآية الثانية متصلة بالتى قبلها، مبينا فيها أن هذا الاستغفار نتج عن يقين حق، وتمثيل صحيح، فقويت الإرادة، وعظمت لديهم الرغبة فى بغض الذنوب وكراهتها، حتى ذاقوا مرارة الذنب بعد وقوعه، كما ذاقوا حلاوة المعصية عند وقوعها بدليل قوله سبحانه : ﴿ **وَلَمَ يُصِرُّواْ عَلَى مَافَعَلُواْ** ﴾ يخبرنا الله أن الذين فعلوا الفاحشة وظلموا أنفسهم ؛كانوا مصرين عليها فرحين بالوقوع فيها . فلما ذكروا الله تعالى وتمثلوا هول الموقف أمامه ؛

دعتهم العناية الإلهية إلى الندم وبغض المعاصى، وانكسرت قلوبهم أمام من ذكروا عقوبته، والجملة معطوفة على قوله تعالى : ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً** ﴾ والإصرار على الشيء : الرغبة فى العودة إليه، والعزم على عمله . ﴿ **عَلَى مَا فَعَلُوا**﴾ أي : من المعاصى ﴿ **وَهُم يَعلَمُونَ** ﴾ معناها أن الله تعالى يتجاوز عن الناسى والساهى والجاهل، والمكره لا لوم عليه وله العذر . أما العالم بالأوامر والنواهى، المخالف لما أمر به فهو المؤاخذ الذى لا عذر له .

قوله تعالى : أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾

الإشارة عائدة إلى المتقين الذين بيّن الله صفاتهم لنا، وأعد لكل واحد منهم جنة عرضها السموات والأرض، ولما أن شرح لنا صفاتهم المتعلقة بقواهم النفسانية والأخلاقية والجسمانية ؛ أعاد لهم البشرى بما به تطمئن قلوبهم، فقال سبحانه : (**أُوْلَئِكَ**) أى : هؤلاء الذين أثنيت عليهم، وأقمتهم موفقين للعمل بما أمرتهم به ونهيتهم عنه ﴿ **جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ** ﴾ أى : ستر لذنوبهم حتى ينساها كل مخلوق والملائكة الحفظة ؛ لأن الذنوب والمعصى معلومة لله تعالى لا تمحى، ولكنه يغفر، والمغفرة هى الستر، فيسترها عن الشخص نفسه، وعن الخلق، وعن معالمه من الأرض، وعن الملائكة، وعن الخلق أجمعين، فيلقون الله تعالى وليس عليهم شاهد بذنب . ﴿ **مِن رَّبِهِم** ﴾ أى : تلك المغفرة فضل من ربنا جل جلاله . لا بشفاعة ولا وسيلة (**وَجَنَّتٌ**) أى : وبساتين زاهرة زاهية، جامعة لأنواع المسرات الجسمانية والعقلية والروحانية، بحسب ما احتوت عليه من الجمال والكمال والنور ﴿ **تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ أى : من تحت أشجارها . وهذه الآية إشارة إلى دوام النعيم مع راحة الأبدان من عناء التعب فى تحصيل مالا بد منه ؛ لنضرة

النباتات من الماء . وقد أفرد الجنة فى أول الآية وجمعها فى آخرها ؛ ليدل على أن كل واحد منهم له جنة خاصة لكمال مسراقم ؛وطهارة قلوهم من التنافس والحسد .

. ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ أثبت الله لهم البقاء فى الجنة ؛ لتطمئن قلوهم بدوام المسرات فى غير انزعاج من خوف حصول نقص، أو أمل فى مرغوب فيه لتوفر كمالياته، لأن الله تعالى لما قال : ﴿ **جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ** ﴾ أمِنَّا العذاب، وكلنا تشوقنا إلى نيل الخير، فقال : (**وَجَنَّتٌ**) أى : بساتين، ففر حنا، ولكنا تشوقنا إلى أن تكون تلك البساتين توفرت فيها لوازمها، وأعظم اللوازم هو الماء الذى كنا نتحمل فى تحصيله الشدائد الفادحة، التى تقع فيها المشاحنات والمنازعات والخصومات، خصوصا إذا قام الظلمة بالانتفاع بالماء، وأهملوا الفقراء ﴿ **تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ ففرحنا براحتنا من هذا الوجه، ولكن خطر ببالنا الموت الذى كنا نتوقعه فى الدنيا فى كل نفس، ونخاف منه ومما بعده، فأزال الله عنا تلك الوحشة، لتكمل لنا المسرات، وتتم علينا النعمة، فقال سبحانه : ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ فلمَّا بشرنا بالخلود عجزنا عن شكره سبحانه وصرنا معه جل جلاله، بعد أن أكرمنا بما هو فوق ما نشتهيه ونتمناه، فقال سبحانه : ﴿ **دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾(١) .

انظر إلى تفضل الله وإحسانه، كيف وفقنا وهدانا فى الدنيا للتوبة والإنابة إليه من معاصينا، وكيف أقامنا فيما يحبه ويرضاه من الأعمال القلبية والبدنية، وكيف تنزل جل جلاله فنسب ما تفضل به بإحسانه ومنته من التوفيق والهداية إلينا، ثم تفضل فضلا أكبر وأعظم ومنحنا نعيم الآخرة الأبدى، والأنس فى رياض

---

(١) سورة يونس آية ١٠.

الجنة، وجعل ذلك الفضل جزاء لنا وهو جل جلاله الفاعل المختار . وإذا كان هذا فضله ؛ فالواجب علينا أن نعرف قدر أنفسنا لنعرفه، ونعلم أننا عبيد مقهورون، وعباد مربوبون، أبدعَنَا البديعُ القادرُ الحكيمُ من العدم، وتفضل فجمّلنا بما يحبه من صفاته العلية، وهدانا لما يحبه من الإِسلام والإِيمان، وأعاننا على العمل بشرائع الإِسلام، ثم أتم نعمته علينا بما أقامنا فيه من خير الخيرين فى دار كرامته، والأنس فى جوار حضرته، فله الحمد وله الشكر حتى يرضى .

.﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ يعنى أن المغفرة والجنات التى تجرى من تحتها الأنهار والخلود فيها أجر عظيم لعملهم، ونعم هذا الأجر على عملهم . هذا ظاهر الآية .

.أما ما فيها من سرها الغامض فهذه الآية تنزل من الله لأحبابه ؛ ليعلمهم كيف تفضل عليهم بما قاموا به، وكيف نسب إليهم هذا التفضل، ليعلموا كيف يتأدبون لحضرته العلية، وكيف ينظرون إلى أعمالهم القلبية والجسمانية فى جانبه جل جلاله . وهذا مشهد أهل التوحيد الكامل . وظاهر الآية لأهل الظاهر، وسرها لأهل المحبة والقرب . جمَّلنا الله بما به نكون مقربين من حضرته، مشاهدين لغيب أنواره، حاضرين معه سبحانه .

قوله تعالى : قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾

هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى تبيانا للمؤمنين، وعبرة لهم ليعتبروا بها، وتشنيعا وتوبيخا للكافرين ليتحققوا أن وقوع ما وقع منهم على المسلمين فى يوم أحد إنما كان استدراجا من الله تعالى لهم، وإمهالاً منه سبحانه لا إهمالا حتى إذا أخذهم لم يفلتهم، كما أخذ من قبلهم ممن كذبوا الرسل وكفروا بهم، كقوم نوح

وعاد وثمود ولوط، وقوم عيسى من بنى إسرائيل . وفى ذلك يقظة لقلوب المسلمين من الرماة الذين خالفوا رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ وفارقوا مواقفهم فى غزوة أُحد طمعا فى الغنيمة، فكان وقوع ما وقع من سفك دمائهم وسلطة المشركين عليهم آية من الآيات الكبرى، ليعلموا أن مخالفة رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ تنتج مالا يرضوه لأنفسهم فى الدنيا والآخرة .

. ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ** ﴾ أي : مضت، فإن لفظة خلا، إذا دلت على الزمان كانت بمعنى : مضى، وإذا دلت على المكان كانت بمعنى : انفرد، فيقال: خلا المكان أى : انفرد من الناس . والسنة هى : العادة والعمل الذى يقع ممن يقتدى به، فهى كالإمام . والمعنى أن الله تعالى يقول قد مضت من قبلكم أمم من أهل الإيمان الذين أقامهم الله دعاة إلى الحق بالحق، فصبروا على ما أوذوا مسارعة إلى نيل رضوان الله الأكبر، ومضى أقوام من أهل الكفر بالله كذبوا رسله وآذوهم، فأمهلهم الله تعالى و لم يهملهم، حتى انتقم منهم فى الدنيا بما أنزله بهم من خسف وغرق ومسخ وتسليط الأعداء عليهم، ثم أجَّل الانتقام منهم بالخلود فى نار جهنم يوم القيامة . ولكل من الطائفتين آثار : فآثار أهل الإيمان مدح الله لهم فى كتبه المنزلة ؛ وحسن الأحدوثة الباقية لهم فى تلك الدار ؛ ثم ينيلهم النعيم الأبدى كما أخبرنا الله بذلك . وآثار أهل الكفر بالله ما نراه من مدن خاوية على عروشها؛ وآثار مشيدة تدل على ظلم وقهر واستعباد عبادالله كما تراه فى مصر وفى بابل، وفى غيرها مما أثبته التاريخ، ولذلك فالله تعالى يقول : ﴿ **فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ** . . . . ﴾ .

﴿ **فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ هذا أمر من الله تعالى لأهل الإيمان الذين صدقوا الله تعالى وصدقوا رسوله ﴿ﷺ **وآله**﴾،

يأمرنا سبحانه أن نتنقل فى البلدان لنرى بأعيننا آثارا عن ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾[1] حتى غرهم الدنيا وما خولهم الله من الملك فهلكوا وهلك من كان معهم، وصارت آثارهم عبرة لمن يعتبر . ﴿ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ يكلفنا الله بالنظر الفكرى فيما نراه من آثار الكفار التى شيدوها وأقاموها وأبادهم الله وأهلكهم، و لم يبق لهم أثر يذكر فيُشكر، بل كل ما نراه دال على الظلم والانتقام . و (ٱلْمُكَذِّبِينَ) أى : الذين لم يمنحهم الله القابل الذى ينتفعون به بما جاءهم من عند الله على ألسنة رُسله صلوات الله وسلامه عليهم . وسبب نزول هذه الآية أن الله تعالى يبين لمن شهدوا أحداً أن ما أصابهم من البلاء ـــ وكان سببه مخالفة الرماة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ـــ وإنما هو تمحيص لهم، وعبرة لمن يأتى بعدهم، ليحسنوا اتباع السنة بإخلاص .

قوله تعالى : هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾

.

الإشارة هنا التى لا تكون إلا للقريب المسموع أو المرئى ؛ تعود إلى الآيات السابقة التى بين الله فيها غزوة أحد ؛ وختمها بالعبرة التى ذكر فيها : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ إلخ الآية . وجائز أن نقول : الإشارة عائدة إلى القرآن المجيد، والبيان هو كشف الحقائق لتظهر لمن يدعى إلى الحق رغبة فى أن يقبل البيان فيفوز . والهدى : هو الدلائل التى تظهر أحكام الدين للعمل بها بعد ظهور السبل للهدى . والموعظة : هى القول المؤثر للمتساهل ليسارع إلى الإقبال بالكلية على ما يقيمه فى مقام الأبرار . فالهدى هو القول الذى تستبين به أصول الدين وفروعه، والموعظة

---

(١) سورة الفجر آية ٧.

هى القول الذى يلفت القلوب والأبدان إلى ترك ما يخالف، وعمل ما يوافق السنة، ولذلك فالله تعالى يقول : ﴿ **هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ** ﴾ فخص البيان بالناس عامة . وخص الهدى والموعظة بالمتقين . وكل قول أو عمل لأهل الجهل أو لغيرهم من أهل النفاق أو الكفر بالله يسمى بيانا . وما كان لأهل الإيمان الراغبين فى تحصيل العلم وقبوله للعمل به فهو هدى . وما كان لأهل الإيمان الذين حصلوا العلم اللازم للمسلم وتساهلوا فى العمل به ؛ أو وقع منهم ما يخالف السنة فهو موعظة . (**لِّلْمُتَّقِينَ**) تقدم الكلام على المتقين .

وفى هذه الآية دليل على أن أهل التقوى هم الذين يقبلون الهدى والموعظة من العلماء غير الحكماء، لأن ظرف الجوهرة لا ينقص الرغبة فيها . وكذلك المتقين إذا سمعوا الهدى والموعظة من العدو البغيض البعيد أقبلوا عليه وقبلوا منه . قال ﴿**ﷺوآله**﴾ : (ٱلْحِكْمَةُ ضَالَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ) وميزان أهل الإيمان الذى نعلم به مقدار إيمانهم ؛ هو أن يشرح الله صدورهم للهدى والموعظة، حتى تظهر عليهم انفعالات نفسانية تدل على صدق توبتهم، وحسن إنابتهم . وأما أهل الإيمان الضعيف فإنهم إذا سمعوا الهدى والموعظة انتفخت أوداجهم، واكفهرت وجوههم، وظنوا أنفسهم أنهم فوق الهدى والموعظة، وربما خاصموا من يدلهم على الحق . ومن كان من المتوسمين يعلم من صحيفة وجوههم جهلهم بأنفسهم، وغرورهم بما فى أيديهم من خراب قلوبهم .

قوله تعالى : وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

﴿ **وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا** ﴾ هذه الآية مرتبطة بغزوة أحد، إذ يكرمنا الله بأن ينهانا عن أن نضع أنفسنا فى هوان مما أصابنا يوم أحد، ومن أن نحزن، لأنا إنما قمنا مسارعين بنصرة الله تعالى ورسوله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، ومن أقامهم الله أنصاراً

لدينه ونبيه وأصابهم ما أصابهم، يجب أن يفرحوا بتلك الإقامة، ويجب أن يتمناها كل مؤمن، لأن المؤمن إذا قتل فى الجهاد فاز فوزا عظيما ؛ لأنه شهيد، وإن نصره الله وأيده شكر الله تعالى على ما أمده به من قهر الباطل، ونصرة الحق، ومن التمكين فى الأرض، ومن الغنيمة . فمن أين يلم به الهوان أو الحزن ؟ اللهم إن كان فى ذلك على أهل الباطل، والله تعالى نفى نصرة الباطل على الحق بخبره الصادق بقوله تعالى: ﴿ **وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ** ﴾ وفى هذا يبشرنا ربنا نحن أمة محمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾ بالمقام الأعلى مكانة فوق المقام الأعلى مكانا، وهذه البشرى فوق البشرى بالجنة ونعيمها.

ومعنى هذه الآية بحسب ظاهر العبارة ؛ أن الله تعالى ينهانا عن أن يصيبنا الهوان مما قدره جل جلاله فى واقعة أحد من شج رأس رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ وكسر رباعيته، وقتل من قتل من الصحابة . والهوان : هو الذل لفقد المحبوب . والحزن : هو هم يحبس القلب بسبب ضياع ما فى اليد . وخبر الله أننا الأعلون لأنا نلنا من الكفار فى بدر أكثر مما نالوا منا فى أحد ؛ فوق ما يتمناه كل مؤمن لخاصة نفسه من الشهادة فى سبيل الله، ومن تأييد الله لنا بعد أن كان ما كان . وأعلوْنَ بما أصاب كفار قريش فى بدر، وبما أصابهم فى أحد ؛ لأن قتلاهم انتقم الله منهم عاجلا، وينتقم سبحانه منهم آجلا يوم القيامة بالخلود فى نار جهنم . فنحن والحمد لله الأعلوْن .

وأما معناها بحسب ما يفقه أهل العلم بالله، فأعلون : مكانة عند الله تعالى، وهنا أشير إليك بقوله تعالى عن إدريس عليه السلام : ﴿ **وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا** ﴾(١) وفرق بين رفعة المكان ورفعة المكانة . فمن أخبرهم الله أنهم أعلَوْن أى قرَّبهم

---

(١) سورة مريم آية ٥٧.

سبحانه حتى صاروا عند العلىِّ جل شأنه ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ **وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ**﴾ من الآن إلى ما لا نهاية . ومن فقه ما كان فيه الصحابة مع المشركين فى تلك الغزوات ؛ وما قاموا به مسارعة إلى نيل رضوان الله الأكبر ؛ يعتقد أنهم ليسوا من بنى البشر . ومن يقول أن ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا ليس معهم سلاح للقاء الأعداء ـــ إذ أنهم خرجوا ليسوقوا عير قريش فوجدوا جيش قريش المستعد غيرة وشوقا للانتقام لأنفسهم وأموالهم من رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ وأصحابه ـــ يهزمون هذا الجيش ويسلبون ما معه من ذخيرة ؟!! .

وإليك غزوة أحد : جاء جيش قريش بأحباشه وحلفائه إلى المدينة لحرب رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، بعد أن أجج الشيطان فيهم نار حب الانتقام لقتلاهم فى بدر، وهم أكثر من خمسة آلاف فارس ؛ فأسرع إليهم رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ ـــ ومعه ألف فارس، فارتد عبد الله بن أبى سلول رأس المنافقين بثلثمائة منهم وبقى سبعمائة ـــ فهجم الصحابة عليهم شوقا إلى نيل الشهادة، وحباً فى لقاء الله تعالى، فكان ما قدَّره الله تعالى من إحسانه إلى رجال لم يشهدوا بدرا بالشهادة يوم أحد، ثم أمدهم الله بالملائكة الذين قاتلوا يوم أحد من غير أن يراهم مؤمن، بل كان كل مؤمن بعد أن علم أن رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ حىٌّ بينهم يتمنى أن يقتل بين يديه . هذا فضل من الله حق . وتفضل بما هو أفضل من هذا الفضل فجعلهم الأعلين، ولا يزال جل جلاله يتفضل بهذا الفضل على كل جماعة من المؤمنين رخصت حياتهم فى أعينهم، فبذلوها لنصرة الحق فرحين مستبشرين، فسبحان من منحهم الصدق، فالعلم، فاليقين، فالشهود، فبيع الأنفس والأموال والأولاد لله تعالى، فالشهادة فى سبيله، فالإِحسان إليهم بأن يكونوا الأعلين عند العلىّ الأعلى، وهنا نمسك القلم عن أن يسطر على صفحات الأوراق ما لا يباح إلا لأهل هذا المقام، من القلب إلى القلب .

﴿ **إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ المعنى الظاهر أى : دمتم على الإيمان الذى هو اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح، فإن أهل الإيمان من تفضل الله عليهم بما تفضل به على أصحاب محمدٍ ﴿ ﷺ وآله﴾ إلى يوم القيامة، والله سبحانه ما وعد المؤمنين وعداً وهم على الحالة التى يرضاها إلا زادهم إحسانا، خصوصا أهل زماننا هذا الذى كثرت فيه الفتن المضلة، وانتشرت فيه البدع، حتى أصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر .

قوله تعالى : إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾

هذه الآية الشريفة نزلت لمناسبة حادثة أحد .

﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ** ﴾ والقَرح بفتح القاف : الجراح والقتل . والمعنى : إن يصبكم جراح وقتل فى أحد فقد أصاب القوم جراح وقتل فى غزوة بدر، وجرحاكم وقتلاكم شهداء عند الله فى مقام الأنس والقرب منه، وجرحاهم وقتلاهم أعداء الله فى غضبه وانتقامه منهم فى الدنيا والآخرة، وشتان بين من فاز بالشهادة برضوان الله الأكبر ؛ وبين من خسر الدنيا والآخرة بغضب الله عليه وانتقامه . فللشهداء المقام الأعلى عند الله، فهم الأعلون فى الدنيا والآخرة .

﴿ **وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ إشارة إلى بدر وأحد، والسبب خاص والحكم عام . وهذه سنة الله الماضية فى عبادة، يسلط أعداءه على أوليائه ؛ لتقوم لهم الحجة عند الله أنهم كاملوا الإيمان، حسنوا الظن والثقة به، صادقوا الحال فى

الإقبال عليه، ويسلط أولياءه على أعدائه ليقهرهم بالذل فى الدنيا، وليعجل لهم النقمة فيها، وي}جل لهم العذاب الأليم فى نار جهنم يوم القيامة. وإنا لنرى الدول قد تدول للكافرين، وهنا يكون البلاء الأكبر والامتحان الشديد : فيظهر أهل اليقين والتمكين مطمئنى القلوب ثابتين على ما يحبه الله ويرضاه، ويظهر المنافقون يترددون فى نواياهم، يقولون : نخشى أن تصيبنا دائرة، وإنما قدّر ظهور الكافرين على المؤمنين ليمحص أهل الإيمان، قال تعالى : ﴿ **لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ** ﴾(١) وهو سبحانه الحكم العدل .

ومتى أظهر الله أهل الحق أخفى أهل الباطل، وأهل الباطل لا يزالون أبدا، ومهما كثروا فهم الأذلاء وإن قويت شوكتهم، وامتدت سلطتهم، وكفاهم تعسة كفرهم بالله . ومهما قَلَّ أهل الحق فهم الأعزاء، فهم كثير وإن قلّوا، وأعزاء عند الله، وإن ذلوا فى نظر أهل الجهل ؛ ولو أن قليلا من أهل الإيمان اتحدوا على العمل بكتاب الله وبسنة رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ ؛ وتسلط عليهم العالم أجمع ؛ لأظهرهم الله ونصرهم وأيدهم، قال تعالى : ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾(٢) وما كانت حادثة أحد إلا لحكمة اقتضتها إرادة الله، إعلاء لمقامات أصحاب رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، وأدباً لمن خالفوا أمره صلوات الله وسلامه عليه من الرماة، ليكونوا فى غزواتهم على بصيرة، مسارعة إلى طاعة أمره عليه الصلاة والسلام .

وهناك سر غامض، وهو أن الله إذا أحب قوما أدام لهم ما يجعلهم فى يقظة لشهود مقام العبودية الكامل، لتدوم لهم المراقبة والأخذ بمحابه ومراضيه سبحانه،

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٢.

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٩.

فلا يعملون برأى ولا هوى ولا تأويل فيما هو صريح فى الكتاب والسنة، كما حصل منهم فى أحد ؛ بعد أن أمرهم رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أن لا ينتقلوا من مواقفهم مطلقا ــ ولو انهزم الكفار ــ فتأولوا الأمر الصريح وفارقوا مواقفهم للغنائم، فكان ما يسىء كل مؤمن .

﴿ **نُدَاوِلُهَا** ﴾ أي : نجعلها دولا فتدول الدولة لقوم على قوم، وتدول منهم لغيرهم، لينفرد الله تعالى بالملك والبقاء والعزة والجلال والبهاء والنور، لا ينازعه فى صفة من صفاته أو اسم من أسمائه أحد ؛ إلا قصم ظهره وأهلكه . وفى تاريخ الأمم السابقة عبرة لمعتبر، وإلا فأين الأكاسرة والفراعنة والقياصرة وأبناء السماء من ملوك الصين و غيرها ؟ والعاقبة للمتقين .

﴿ **وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ** ﴾ بعد أن بين الله تعالى أن تلك الأيام الدنيا يداولها بين الناس ؛ ولفظة : ﴿ **بين الناس** ﴾ معلوم أنه يراد بها المؤمن والكافر والمنافق، لأن الله تعالى ما ذكر الناس بـــ (ال) التعريفية فى القرآن كله ؛ إلا وهو يريد أن يخاطب أو يخبر عن جميع الناس، فإذا أراد المؤمنين ذكرهم بصفاتهم فقال : الذين آمنوا، أو أحسنوا، أو اتقوا .

علمتَ أن المداولة انتقال الشىء من يد إلى غيرها، ولما كانت غزوة أحد ظهر الكافرون فيها على المؤمنين ؛ وكان ظهورهم عليهم بعد قهر المؤمنين للكافرين فى بدر آية من آيات الله الكبرى، التى يظهر بها مكنون غيبه، فإن البلايا والمحن إذا أصابت الكافرين فحسب أسلم جميع الناس خوفا من البلايا، ولكن الله تعالى أراد أن يقيم الحجة لأهل الإيمان على المنافقين والكافرين، فامتحن أهل الإيمان بما أصابهم فى أحد، ليميز الله تعالى أهل الإيمان بما جملهم به من الصبر، واليقين و القيام له بما يحب . وأظهر جل جلاله أهل النفاق كعبد الله بن أبى بن سلول ومن

معه، الذين انقلبوا على وجوههم فارتدوا عن رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ كما بينت لك . ولذلك فالله تعالى بين ذلك بقوله : ﴿ **وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ** ﴾ لو جاءت الآية بغير واو لكانت متصلة بما قبلها، وهى خبرية معطوفة على التى قبلها . وفى هذه الآية مجاز بالحذف، ويكون المعنى : وليعلم نبىُّ الله الذين آمنوا، فحذف لفظ : نبى، وذكر اسم الله تعالى رفعه لقدر رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، وقد ورد فى القرآن ما يدل على هذا المعنى وهو قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّه**﴾(١). وجائز أن يكون المعنى : لِيُعْلِمَ الله، أى : لِيُظهر الله تعالى مكنون ما قدَّره فى علمه ؛ من تأييد المؤمنين بروح منه حتى يدوموا على الإيمان الكامل فى وقت المحن الشديدة والفتن الهائلة كما حصل فى غزوة أحد . وجائز أن يكون المعنى لتمييز أهل الإيمان من أهل النفاق والكفر . ولما كان لا يُعلم إلا ما ظهر بالنسبة لنا، ولا يُعلم ما قدره الله تعالى إلا بالنسبة له سبحانه كان (**لِيَعْلَمَ**) أى : ليتميز .

﴿ **وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء** ﴾ هذه الآية الشريفة خير بشرى لنا، لأن الله تعالى يقول : ﴿ **وَيَتَّخِذَ** ﴾ ولا يتخذ إلا أصفياءه وأولياءه . وفى قوله تعالى : ﴿**شُهَدَاء** ﴾ أى : جمع شهيد، والشهيد هنا : إما المقتول من المؤمنين بين الصفين ؛ وهى مكانة عالية عند الله تعالى . وتأتى بمعنى : شاهد ؛ وهى إقامة الله تعالى من اجتباهم من أمة سيدنا محمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾ شهودا على الأمم يوم القيامة ؛ بدليل قوله تعالى :﴿ **لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ** ﴾(٢) وهى المكانة التى يجمل الله بها رسله وأنبياءه، فأنزَلَنا الرسل والأنبياء، وفى ذلك من عظيم الفضل علينا من الله تعالى، ما نعجز عن القيام بشكره سبحانه . وتكون حكمة ما أصابنا يوم أحد تفيد

---

(١) سورة الفتح آية ١٠.

(٢) سورة البقرة آية ١٤٣ .

الفضل من الله لنا ؛ لأن الله تعالى لا يخذل نبيه ولا أصحاب نبيه ﴿ ﷺ وآله ﴾ ؛ وينصر أعداءه الكافرين أبدا . ولكنه سبحانه استدرج أعداءه، وأظهر أحبابه بما فازوا به من الصبر والثبات، والتفانى فى نصرة الله تعالى ورسوله ﴿ ﷺ وآله ﴾ وتلك الآيات وإن كان سبب نزولها خاصا إلا أن أحكامها عامة . وقول الله : مِن، فى (**مِنكُمَ**) إما أن تكون للابتداء أو للتبعيض ؛ وهى للابتداء أقرب ؛ لوسعة رحمة الله . وعلى هذا فكل من وقف موقف الصحابة مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله ﴾ أمام أعداء الله ؛ وصبر حتى استشهد أو رجع بالنصر والغنيمة ؛ فله ما وعد الله به أحبابه فى هذه الآيات .

﴿ **وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾ تقدم الكلام على معنى محبة الله للعبد ومحبة العبد لله، وقامت لك الحجة فيما سبق، ووضحت المحجة . وضد المحبة البغضاء . فكأن الله تعالى أثبت بغضه للظالمين ونفى عنهم محبته لهم سبحانه . والظلم : هو الشرك، والله تعالى يبغض من ظلم نفسه بالشرك بالله تعالى، أو بارتكاب معاصى الله تعالى من الكبائر . وقد بينتُ لك أن الرحمة : إرادة الله الخير الدنيوى للعبد، والمحبة : إرادة الله الخير الأخروى للعبد وإقامته فى محابه ومراضيه . ويكون بغض الله تعالى للعبد تقدير السوءى له فى الأزل وإقامته فى مغاضب الله ومساخطه، أعاذنا الله وإخواننا المؤمنين من ذلك .

قوله تعالى : وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾

التمحيص : هو التنقية والتطهير . والمحق : هو النقص والإبادة . والمعنى : أن الله تعالى قدّر ما قدّره فى غزوة أحد ليظهر المؤمنين بالتمحيص، ولينقيهم ممن لا بسهم من أهل النفاق، الذين ارتدُّوا عن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى غزوة أحد .

علمتَ أن الله تعالى محّص المؤمنين أى : طهرهم، واللام فى قوله تعالى : **﴿وَلِيَعْلَمَ﴾** **﴿ وَلِيُمَحِّصَ ﴾** متعلقة بقوله تعالى : **﴿ نُدَاوِلُهَا ﴾** على فرض عدم وجود الواو، وخبر بعد خبر مع إثبات الواو، وكأن الجمل معطوفة على محذوف ملحوظ، أى : نداولها بين الناس وكيف وكيت لنعلم .

قوله تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾

. **﴿ أَمْ ﴾**هنا منعطفة وتقدم الكلام عليها، و **﴿ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ﴾** أى : قوى ظنكم أن تنالوا النعيم المقيم والخير العظيم الذى أعده الله لأحبابه، ومجاورة الأخيار من رسله الكرام وأنبيائه العظام، ونيل المسرات العليا بمشاهدة وجه الله تعالى، والأنس بما يجليه لأهل الصفوة من عباده، لإظهار أنوار أسمائه وصفاته ظاهرة فى أنواع الطيبات التى أعدها لهم .

﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ أى : ولما يظهر لرسوله محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ وللمؤمنين معه قوة إيمانكم وثباتكم عند الجهاد فى سبيل الله، وصبركم على تحمل البلايا الفادحة فى لقاء العدو، حتى تطمئن قلوبكم على نيل بغيتكم من الجنة، ومن رضوان الله الأكبر، ومن الفوز بالعندية التى وعد الله بها عباده الأخيار من صفوة خلقه فى قوله تعالى : **﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي**

جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾(١). وكلنا نعلم أن العندية فوق المعية، فإن العندية تقتضى الرضا الأكبر، ورؤية وجه الله العظيم . بخلاف المعية فإن الله تعالى يقول :﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ** ﴾(٢) . ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ**﴾(٣) : فهو سبحانه مع الخلق أجمعين بالإيجاد والإمداد والإعطاء والمنع، وقليل من يكونون عنده سبحانه ومن يكون عنده أو معه .

﴿ **الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ** ﴾ الجهاد هو بذل ما فى الوسع ابتغاء وجه الله تعالى وإعلاء لكلمته، وتجديدا لسنة نبيه ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وإظهاراً لأهل الحق، وإهلاكاً لأهل الباطل . وخير الجهاد جهاد النفس فى ذات الله تعالى، قال ﴿ ﷺ **وآله**﴾ : (**أَكْثَرُ شُهَدَاءُ أُمَّتِى عَلَى آلْفُرُشِ**) . يعنى أن المجاهدين لأنفسهم ؛ الناشرين لشريعة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ . يعنى أن الإنسان لا يخاف إلا الله فى نشر الدعوة، فلا يخافون لومة لائم فى جهاد أنفسهم وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإن المجاهدين بين الصفين قد يشوب نيتهم الطمع فى غنيمة أو رياسة، وأما الذين يجاهدون ـــ فى سبيل الله ـــ أنفسهم، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، لا يمازجها طمع ولا أمل، وهم الأفراد الذين أقامهم الله ورثة لرسله صلوات الله وسلامه عليهم ؛ لا تأخذهم فى الحق لومة لائم، وهذا هو الجهاد الذى يثنى الله على من قاموا به هذا الثناء، فيجعل لكل رجل منهم جنة عرضها السموات والأرض .

---

(١) سورة القمر آية ٥٤ ـــ ٥٥.

(٢) سورة الحديد آية ٤.

(٣) سورة المجادلة آية ٧.

. ﴿ **وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾ الصبر : هو قهر النفس على المسارعة إلى نيل مراضى الله تعالى . والفرق بين الصبر والرضا أن الرضا هو أنس النفس بمواقع البلايا، ويكون فى القضاء والقدر . وأما الصبر فهو قهر النفس على العمل بأمر الله، وهى العبادات المفروضة والمرغب فيها، والأخلاق التى كان عليها المصطفون الأخيار من عباد الله تعالى . والصبر بحسب الأصل يكون على القيام بالعبادة والمحافظة عليها والمداومة على إقامتها كما قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ** ﴾(١) . وقد شرحتُ مقام الجهاد والصبر فى كتاب : (أصول الوصول) عند شرح مقامات أهل اليقين، فراجعه إن شئت المزيد، وهذه الآية سببها غزوة أحد أيضا وحكمها عام .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

اللام هنا للقسم . و (**قَدْ**) لتحقيق الخبر . و ﴿ **كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ** ﴾ أى : ترغبون فيه بحرص عليه وشدة فى الطلب ؛ لأن المُتَمَنَّى : المتعذر الوقوع . ومعنى هذه الآية أن الصحابة بعد غزوة بدر كانوا يسألون الله تعالى غزوة يستشهدون فيها حُباًّ منهم فى الشهادة، وهذا خبر من الله تعالى يرتب عليه بيان الآتى، ليعلمنا أن نتجمل فى كل أوقاتنا بالرضا عنه فيما أقامنا فيه، من غير أن نتمنى غير ما أقامنا الله تعالى فيه، بل نجعل أنفاسَنا كلَّها مستغرقه فى شكره سبحانه وذكره، والفكر فى آلائه وآياته، حتى نفوز بشهود جماله الظاهر الجلى فى جميع مكوَّناته .

---

(١) سورة المعارج آية ٢٣.

﴿ **مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ**﴾ أى : من قبل أن يهاجمكم الأعداء، ويطلبون منكم. وهذه الآية الشريفة أدب من الله تعالى، يبين فيه لعباده أن المؤمن الكامل يعمل ولا يقول، وينفذ ولا يتمنى، أما تمنى عمل الخير وغيره يسبقه إلى عمل الشر فإن حرب الكفار شر عليهم، وهم يسارعون إليه، وجهاد المؤمنين خير لهم وهم يتمونه، وشتان بين التمنى والعمل، وفى هذا الأدب إشارة إلى من خالفوا رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ من الرماة، ومن خالفوه فى المدينة عندما كان يُحِب أن يحارب الكفار فيها فاستحثوا الخروج إليهم . ﴿ **وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ** ﴾ إن كانت الواو للحال فالجملة حالية، وإن لم تكن للحال فهى توكيد ؛ لقوله تعالى : ﴿ **رَأَيْتُمُوهُ** ﴾ والمعنى : إنكم تنظرون إليه وهو قريب منكم جدا وذلك يوم أحد .

قوله تعالى : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

. ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ** ﴾ هذه الآية المفيدة للقصر الحقيقى الدالة على الرسل والرسالة، لأن لفظة ﴿ **رَسُولٌ** ﴾ تفيد فاعلا ومفعولا، وإن تضمنت الرسالة بحسب دلالتها فهو ﴿ ﷺ **وآله**﴾ رسول ورسالة . ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ﴾ يعنى مضت وسلفت، وهى سنة الله فيمن يرسلهم، ولما كان ﴿ ﷺ **وآله**﴾ رسولا لزم أن يخلو كما خلوا . إذْ لاَ بقاء لغير الله تعالى فإن كل رسول أو نبىّ أو ولىّ أو غيره بعد انتهاء ما قدّره الله له من العمر يموت .

سبب نزول هذه الآية ما وقع للصحابة رضوان الله عليهم من الهلع والفزع فى غزوة أحد، عندما ظنوا أن رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ قد قتل . وتفصيل هذه الحادثة أن رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، لما نزل بأُحد أمر الرماة أن يقفوا بأصل الجبل

ولا يتحولون عنه، سواء كان الأمر لهم أو عليهم . فلما حمل جيش المسلمين على الكفار وأمعنوا فيهم فتكا، وَقَتَلَ على بن أبي طالب طلحة بن أبي طلحة صاحب لوائهم، وكذلك فعل الزبير والمقداد، وحمل الرسول مع أصحابه فهزموا أبا سفيان ورجاله، وانهزم المشركون وترجعوا . فلما رأى بعض الرماة هزيمتهم طمعوا فى الغنيمة فتأوّلُوا أمر رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ وفارقوا أماكنهم وانحدروا يطلبون الغنائم، وكان خالد بن الوليد يقود ميمنة الكفار، فلما رأى الرماة قد تفرقوا في طلب الغنيمة، حمل على جيش المسلمين فهزمهم وفرق جموعهم، ورمى عبد الله ابن قميئة الحارثى رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ بحجر فكسر رباعيته، وشج رأسه، وأقبل يريد قتله !! فتصدى له مصعب بن عمير صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد، فقتله بن قميئة وظن أنه قد قتل رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ فصاح : قتلت محمدا، وصرخ الشيطان فى المسلمين : قُتل محمد . فانتشر الخبر بين الناس فوقع الهلع فى قلوب المسلمين، وقال بعضهم : ليت عبد الله بن أبي يأخذ لنا الأمان من أبى سفيان. وقال بعض المنافقين : لو كان نبيا لما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم، فصاح فيهم أنس بن النضر عم أنس بن مالك قائلا : يا قوم إن كان قد قتل محمد فإن رب محمد حى لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ ؟ قاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات فى سبيله، ثم قال : اللهم إنى برىء مما يقول هؤلاء . وسل سيفه وهجم على المشركين فقاتل حتى قتل رضى الله عنه .

ولما شج الكفار وجهه عليه الصلاة والسلام دافع أبو بكر وعلىّ وغيرهما، واحتمله طلحة بن عبيد الله وكان حوله ثلاثون من صناديد الصحابة يقاتلون عنه، وكلما سقط واحد منهم جثا الآخر بين يديه وقال : وجهى لوجهك وقاء، ونفسى لنفسك فداء، وعليك سلام الله غير مودع . ولما تفرق المسلمون وظنوا أن

رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ قد قتل بدت عليهم الهزيمة، وقتل منهم عدد كبير، أخذ رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ يصيح قائلا : (إلىَّ عبادَ اللهِ) فسمع بعض الصحابة صوته الشريف فانحازوا إليه، وقد سرت فيهم روح الحياة، فلامهم عليه الصلاة والسلام على هزيمتهم، فقالوا : يا رسول الله ــ فديناك بآبائنا وأمهاتنا ــ أتانا خبر قتلك فولينا مدبرين .

﴿ **أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ** ﴾ دخل الاستفهام على فعل الشرط وهو مقدم عن تأخير، والأصل دخوله على الجواب . والانقلاب الردة عن الإسلام والفرار يوم الزحف، ولم يحصل من ذلك شيء فى تلك الغزوة لا موت ولا قتل، أما القتل فلأن الله تعالى بشرنا فى القرآن بأنه يعصمه من الناس بقوله تعالى : ﴿ **وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ** ﴾(١) فما بقى إلا الموت على الفراش كما بشره الله تعالى، وهى معجزة كبرى . ﴿ **وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا** ﴾ أى: ومن يرتد عن الإسلام فيرجع إلى الكفر فى الدنيا فلن يضر الله شيئا، فإن الله هو الضار النافع سبحانه، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾(٢).

﴿ **وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ معلوم أن الشكر عمل، قال تعالى : ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾(٣) وثناء الله تعالى فى هذه الآية على الشاكرين الذين عملوا مع رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ عندما هجم عليه عبد الله بن قميئة ورماه بالحجر وهم بقتله، فدفعه عنه مصعب بن عمير كما

---

(١) سورة المائدة ٦٧.

(٢) سورة يونس آية ٢٣.

(٣) سورة سبأ آية ١٣

تقدم، ووقف علىّ وأبو بكر وغيرهما من أفذاذ الصحابة الذين ثبتوا أمام رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ فى وقت الفزع الأكبر، وهم الذين يمدحهم الله تعالى بموقفهم هذا، ويبشرهم بالخير العاجل والآجل، بالفعل قد تفضل الله عليهم فجعل أبا بكر خليفة عن رسول الله ﴿ﷺ وآله﴾، وأقام علياً هذا المقام بعد عثمان، وأعد لمن مدحهم الله تعالى المقام الأعلى يوم لقائه فى مواجهة وجهه العظيم .

بينت لك أن الشكر عمل، لأن الشكر قيام كل جارحة بما أوجبه بما أوجبه الله عليها . والحمد قول، لأنه لا يكون إلا باللسان . ولأن الشكر لله تعالى ولكل من أسدى إليك نعمة من الخلق كالوالدين، ومعلم الخير، والسلطان العادل، وغيرهم . أما الحمد فهو قول باللسان، وهو الثناء باللسان على جميل اختيارى، ولا يتفضل عليك بالجميل اختيارا إلا الله، فهو خاص بالله فلا يحمد إلا الله فى السراء والضراء .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِنفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

تضمنت هذه الآية الشريفة حقيقة من حقائق التوحيد الذى يجب أن يكون عليه أهل الإيمان بالله، لأن الله تعالى ينفى بتاتا أن تُموت نفس إلا بإذن الله . والقصر هنا بالاستثناء حقيقى، أى : بتقديره ومشيئته وعلمه سبحانه، فإذا كانت تلك الحقيقة قامت عليها الحجة بالآية الشريفة فكل كائن من إيجاد وإمداد يبرز فى الوجود الظاهر لابُدَّ وأن يكون بتقدير الله تعالى، وإذاً نصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾(١) أى : خلقكم وخلق أعمالكم، والمكان

---

(١) سورة الصافات آية ٩٦.

الذى تعملون فيه، والمادة التى تنوعونها بعملكم، وقال سبحانه : ﴿ **هَلْ مِنْ خَلِقٍ غَيْرُ آللهِ** ﴾[1]. وهذه الآية مرتبطة بالآية السابقة، وسبب نزولها إرجاف المبطلين بقولهم: إن محمدا قتل، فيقصم الله ظهورهم بقوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ** ﴾ أى : أن الله لم يقدر موت محمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾ فى غزوة أحد، وعلى ذلك فإنه لم يمت و لم يقتل، ولأسباب نزولها حِكم كثيرة .

ومعناها أن الله تعالى يعتب على من انهزموا من الصحابة يوم أحد، مبينا لهم الحقائق الإسلامية التى بايعوا عليها رسوله ﴿ **ﷺ وآله**﴾؛ من أن الأعمار والأرزاق قدرها الله قبل أن يخلق الإنسان ؛ وأن الموت والقتل لا يكونان إلا بإذنه، أى : بتقديره وإرادته، وتلك العقيدة تنتج للمتمسكين شجاعة إسلامية وإقداما على الشدائد العظام من غير خوف من القتل والموت، فإن الله إذا قدَّر على العبد الموت أو القتل فى وقت معين ؛ نفذه مهما احتاط الإنسان وتحفظ . وإذا لم يقدِّر عليه شيئا من ذلك وألقى بنفسه فى النار، أو فى متلاطم البحار لا يصيبه شىء . ومسلم يعتقد تلك العقيدة الحقة ويفر من الصفِّ ؛ أقام الحجة أنه ضعيف الإيمان . وعلى ذلك فإنى أعيد ما قررته قبل من أن العلم إذا لم يبلغ اليقين الذى تؤيده الحجة، أو يبلغ حق اليقين الذى هو شهود الحقائق ؛ قد يضر ولا ينفع، وكم نرى الآن من عالم يقرر الحقائق وهويخالفها فى مجلس التقرير، فيشرح ضرر الغنيمة والنميمة والحسد، وهو فى أثناء الشرح يذم وينبذ ويغتاب، ويظهر ما يفيد انه حسود وحقود . ولو كان للعلم فائدة لحفظه علمه عن الوقوع فيما يخالفه، فالله سبحانه يكشف لنا غيبا مصونا من أسرار التوحيد كشفاً تهش له القلوب وتبش بقوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً** ﴾ حتى لا

---

(١) سورة فاطر آية ٣.

تجبن عند لقاء الأعداء ولكثرة عَددهم وعُددهم، فإن الموت والقتل مقدر أزلا لا مفر منه، وَلأَن يموت المسلم أو يقتل مجاهدا ؛ خير من أن يقتل منهزما .

﴿ **كِتَابًا مُّؤَجَّلاً** ﴾ (**كِتَاباً**) مصدر منصوب بفعل محذوف ملحوظ تقديره : كتب الله كتابا، أى : كتبه فى اللوح المحفوظ كما بينته السنة، وإنما كانت كتابته لأن الله وضع الأسباب قائمة وسائط بينه وبين خلقه من الملائكة والإنس والجن، فكتب فى اللوح المحفوظ ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وأقام لتلك الأحداث المؤقتة ملائكة فى آناتها الخاصة يتلقونها من اللوح لتنفيذها فى الأعيان الحادثة، وهذا غيب القدر ولا يطلع على هذا الغيب إلا مَلَكٌ أقامه الله عاملا فيه، أو مقرب من الله تعالى يطلعه عليه ليقوى إيمانه بعجائب قدرة الله تعالى وحكمته . أما الغيب المصون الذى هو جمال الله جلا جلاله، وبهاؤه، ونوره، وضياؤه، وكماله، وأحكامه التى يحبها من أمره ونهيه، فإنه لا يطلع عليها إلا رسول، قال سبحانه : ﴿ **فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ٱرْتَضَى مِن رَّسُولٍ** ﴾(١) ومعنى الآية : أن الله تعالى كتب الأقدار التى خصصتها إرادته فى حضرة علمه فى اللوح المحفوظ، كما ورد أنه محدود بأوقات مخصوصة، مرتبط بأسباب خاصة اقتضتها حكمة الله .

﴿ **وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا** ﴾ هذه الآية جملة شرطية، بينت تقييد العقوبة فى الآخرة والنعيم فيها مرتبا على المعصية والطاعة، والمؤاخذ عليه أو المجازى عليه بالنعيم هو الإرادة، ومعنى الإرادة هنا الاختيار . فإن الإرادة أولا هى : التردد بين عمل الشىء أو اركه . أما الاختيار فهو أعلى من الإرادة، وهو العزم المؤكد على عمل الشىء، قال ﴿ **ﷺ وآله**﴾ : (إِنَّمَا الأَعْمَالُ وَإِنَّمَا لِكُل امْـرِىءٍ مَـا

---

(١) سورة الجن آية ٢٦ ــ ٢٧.

نَوَى). ومعنى الآية أن الله يقول : من كان يريد ثواب العاجلة مختارا له، فلم يرد ثواب الله ونيل النعيم المقيم يوم القيامة ؛ والفوز بجوار الأخيار وبالمغفرة من الله والرضوان؛ نعطه منها أى فيها، فيعطه ما يريده من مال أو بنين أو جاه وشهرة، وكل ما يناله فيها زائل تعقبه العقوبة بعد السؤال عن العمل، وتاكون الحجة قامت على العبد أنه ضعيف الإيمان جاهل بحقائقه .

﴿ **وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا** ﴾ أى : يختار وينوى الفوز بالنعيم المقيم فى جوار الأخيار والصديقين والشهداء، فيعمل ما فى وسعه مستصغرا نفسه وماله فى سبيل الله تعالى، نؤته من ثولب الآخرة فيها .

سبب نزول هذه الآية خاص لمن شهدوا أُحدا، فإن منهم من كان يريد الدنيا وهى : الغنائم والشهرة والانتقام من الأعداء ؛ ولم يرد غير ذلك من ثواب الآخرة، وهؤلاء إذا عاقهم عن بلوغ مرادهم عائق ؛ فروا وانقلبوا ؛ تمنى أهلهم خاسرين . وأما من كان يريد ثواب الآخرة فإنه إذا اشتد الفزع وهلعت قلوب أهل اِلنفاق ؛ تمنى الشهادة ليفوز بمراده الذى من أجله جاهد فى سبيل الله وهو الفوز بنعيم الآخرة، ولا ينال نعيم الآخرة وهو فى الدنيا أبدا، وسبيل الوصول إلى الآخرة هو القتل فى سبيل الله تعالى، فكيف يتحقق الفوز بمراده المختار له ويفر ؟!! وهذه الآية تقريع شديد من الله تعالى لكل مؤمن أراد الدنيا، ويقظة لقلوب أهل الإِيمان أن يطهروا قلوبهم للعمل فى سبيل الله، تبارك ربنا وتعالى، ما ترك شيئا ننال به الزلفى عنده إلا وبينه بيانا يشفى كلوم القلوب، ولا شيء يوقعنا فى نار جهنم إلا وبينه بيانا جليا، أسأل الله تعالى التوفيق لما يحبه ويرضاه، والحفظ من معاقبته سبحانه .

﴿ **وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ** ﴾ تقدم شرحها فى قوله تعالى : ﴿ **وَسَنَجْزِي آللهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ إلا أن هذه الآية قال فيما : ﴿ **وَسَنَجْزِى** ﴾ وفى الآية المتقدمة قال : ﴿ **وَسَنَجْزِى آللهُ** ﴾ والفرق بينهما أن الآية الأولى نزلت فى أفراد وقفوا موقفا لا يقفه إلا أهل التمكين الكامل كأبى بكر وعلىّ، حيث كانت النفوس رخيصة، فكان قوله تعالى : ﴿ **وَسَنَجْزِى آللهُ** ﴾ في مقاماهم وعلو درجاهم حيث أسند الجزاء لذاته العلية . وأما هنا فالآية خبر لمن أرادوا الآخرة فأخبر عنهم بقوله : ﴿ **وَسَنَجْزِى** ﴾ أى : يكون جزاؤهم بنعيم الجنة والفوز فى الفردوس الأعلى وأما فى الآية المتقدمة فيكون الجزاء نيل رضوان الله الأكبر وشهود وجهه العلى العظيم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، وقد أخبرنا بالفعل المضارع المتصلة به السين الدالة على تأخير الجزاء على الحال الحاضرة، فدل ذلك على أن الجزاء يكون يوم القيامة .**قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾**

.

هذه الآية الشريفة قُرأت بهذه الرواية وبرواية أخرى وهى : ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ** ﴾ بضم القاف ﴿ **مَعَهُ رِبِّيُّونَ** ﴾ والروايتان صحيحتان . أما تأويل الأولى (**وَكَأَيِّن**) أى : كثير . و ﴿ **قَتَلَ مَعَهُ** ﴾ أى : جاهد معه . (**رِبِّيُّونَ**) أى : جموع كثيرة أو مؤمنون به من عامة أمته، ويكون الربانيون هم العلماء والولاة، وآلربيوّنَ بكسر الراء العامة المتبعون . ويكون التفسير على الرواية الثانية (**قُتِلَ**) بضم القاف، أى : أن النبى قتل، والحال أن معه جموعا كثيرة . وجائز أن تقول : قُتل معه رِبِّيون على تأويل لفظه قُتل بضم القاف حالا، ويكون المقتول فيها هو نبى الأمة . وإذا كان المقتول أكثر الربيين يكون الوهن والضعف والاستكانة منفية عن

القليل منهم الذى لم يقتل، ويكون (**رِبِّيُّون**) نائب فاعل (**قُتل**) ويكون المعنى على التأويل الأول أن كثيرا من الأنبياء قاتل معه ﴿ **رِبِّيُّون كَثِيرٌ** ﴾ أى : جيوش كثيرة، فكأن الجيوش الذين يقاتلون مع الأنبياء يثبتون فى القتال، قُتل نبيهم أو لم يُقتل . وإن لم يثبت بطريق صحيح أن نبيا من الأنبياء قتل فى الحرب . فكأن الرِبِّيُّونَ لا يزدادون كلما حمى الوطيس إلا إقبالا على الأعداء، وطمأنينة قلب، وكان الأولى بتلك الصفات هم أصحاب رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، لأن الله تعالى أكمل لنا به الدين فأتم علينا نعمته . وهذه الآية أدب لأهل الإيمان .

﴿ **فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ** ﴾
فالوهن : ضعف القلب، يجعل الواهن فى هلع وجزع ويأس وفزع . والضعف : ما يعترى الجوارح عند الخوف الشديد من الرعب وانحلال القوة . والاستكانة : هى الاستسلام للأعداء أو الردة عن الإسلام، ومن استسلم للأعداء أحاط به الذل والخزى، ومن أهلكه الفزع فارتد عن الإسلام يتمنى أن يكون ترابا يوم القيامة، أعاذنا الله وإخواننا من الكفر بعد الإيمان . فالله تعالى يشنع على من يفر يوم الزحف بخصال ثلاثة : الخصلة الأولى : ضعف القلب وجزعه . والثانية : انحلال الأعضاء لشدة الضعف والفزع . و الثالثة : حصول اليأس للإنسان حتى يذل للأعداء أو يرتد عن الدين بالإستكانة .

﴿ **وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾ هذه الآية ثناء من الله ومدح لمن ثبتوا فى غزوة أحد، والحكم فيها عام وإن كان سببه خاصا، فالله تعالى يحب كل عبد صبر على القيام بتأدية ما فرضه الله عليه وسنه رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، وقد يكون الصبر أيضا على مُر القضاء، والصبر هو حبس النفس على القيام بمحاب الله ومراضيه، وقد تقدم الكلام عليه فى قوله تعالى : ﴿ **وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ** ﴾ وبينت

لك محبة الله للعبد أنها إرادة الله اصطفاء العبد لحضرته العلية، وإيثاره على غيره ممن أقامهم فيما يحبه ويرضاه، قال إخوة يوسف له : ﴿ **تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا** ﴾(١) أى : أحبك . وإن أنكر بعض من لا علم لهم محبة الله للعبد وتأولوا قوله تعالى : ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه** ﴾(٢) على قدر عقولهم . وقد فصلت هذا المقام فى كتاب : (أصول الوصول)(٣) باب المحبة . ومن فقه خطاب الله تعالى فى تلك الآية المشيرة إلى غزوة أحد، لعلم أن الشدائد التى يصاب بها المؤمن التقى سوابغ إحسان من الله تعالى، يرفع بها درجات من امتحن قلبه للتقوى، وجواذب حب يصطفى الله بها من ابتلاهم فصبروا، وسارعوا إلى محابه ومراضيه، وهو التمحيص الذى يظهر به أهل سابقية الحسنى بعزائمهم العلية وكمال علمهم، وكفاهم شرفا ثناء الله عليهم بقوله: ﴿ **وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾، وليس فوق محبة الله للعبد مقام تتشوق إليه أرواح المقربين، وإذا تفضل الله بمحبته على العبد فقد رفعه إلى أعلى عليين .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾

. بيّن الله لنا ما كان عليه أتباع الرسل السابقين عليهم السلام، من حيث أجسامهم التى واجهوا بها سيوف الأعداء ورماحهم ونبالهم، مع الهمة والفرح بلقاء الله تعالى، وما كانت عليه قواهم الروحانية من التبرئة من القوة والحول إلا بالله، ومن لزوم العبودية بالابتهال والتضرع والدعاء، بدليل قوله سبحانه : ﴿ **وَمَا كَانَ**

---

(١) سورة يوسف آية ٩١.

(٢) سورة المائدة آية ٥٤.

(٣) يطلب من مكتبة دار المدينة المنورة ١١٤ ش مجلس الشعب ـــ القاهرة.

قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ الآية . هنا يقف العقل البشرى عن أن يدرك مقدار ما تفضل الله عليهم من مواجهتهم بوجهه الجميل ؛ حتى كأهم ليسوا بشرا فى القتال : وأى عقل يتصور أن إنسانا يمزق جلده بالنبال والرماح والسيوف؛ وقلبه حاضر مع الله يتمثل أنه مذنب مرتكب للكبائر ؟ فى وقت يتصور أعلم الناس بالدين أنه نصر الله وجاهد فى سبيله فيرى له عملا يُطمِع فى نيل الزلفى عند الله . وهؤلاء أقرب ما يتقرب به المجتبون يرونه ذنبا يستغفرون الله منه، وهذا هو كمال الأدب مع الله تعالى، والعلم به سبحانه .

. ومعنى ﴿ **اغْفِرْ لَنَا** ﴾ أى : استر لنا ذنوبنا وعيوبنا فإن الغفر هو الستر . ﴿ **ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا** ﴾ بلغ تعظيم الله فى قلوبهم مبلغا شهدوا به قدرهم فى هذا الجانب العلى فرأوا عجزهم عن القيام له سبحانه بما يحب، قال سبحانه : ﴿**وَمَا قَدَرُوا آللهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾(١) فكان شهود العجز والقصور منهم ؛ ذنبا فى نظرهم يستغفرون الله منه . والإسراف : هو التفريط والتبذير ﴿ **فِى أَمْرِنَا** ﴾ أى : فى جميع شؤوننا . ولما كان الإنس والجن لو اجتمعت قواهم فى فرد واحد، وعَبَد ذلك الفرد الله بجميع القوى، وكانت تلك العبادة خاصة به، لكان مقصرا فى جانب الله لو انكشف للإنسان حقيقة نفسه فعرف بها ربه، وفى قولهم : ﴿ **ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا** ﴾ الآية ؛ حجة على كمال عبوديتهم لله تعالى ومعرفتهم به .

﴿ **وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا** ﴾ بيان لكمال شهودهم حقائق التوحيد ؛ شهودا جعلهم يتبرءون من الحول والقوة إلى من بيده الحول والقوة . وهذه الآية برهان على أن الله تعالى خلق الإنسان وخلق عمله، قال سبحانه : ﴿ **هَلْ مِنْ خَلِقٍ غَيْرُ**

---

(١) سورة الأنعام آية ٩١.

آللهِ ﴾(١) وإن تأولها بعض من حجب عن شهود كمال التوحيد إلى أن تثبيتهم يكون بألطاف الله تعالى ليثبت للإنسان عملا بنفسه، ولهم العذر، قال تعالى : ﴿**وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ** ﴾(٢) وإنما هي البصائر إذا منحها الله نورا تستبين به الحقائق ؛ شهدت بما نظرت . وإن حرمت النور ؛ حجبت عن الغيب المصون . وكان المشهود للإنسان حكمة الله فى إيجاد الكائنات، ولكنه حجب عن شهود قدرة الله تعالى وآثارها فى المبدَعات .

وشتان بين من يرضى بالجنة، وبين من يجذبه العلم بالله حتى يكون على منبر من النور قدام عرش ربنا تعالى . فأهل العلم بالله فوق أهل الإيمان بالغيب مكانة ومكانا . والتثبيت هو التمكين الذى يجعل العبد لا يعتوره شك ولا ريب ولا خوف ولا فزع، حتى يكون الشيء الذى يخاف منه الشجاع المقدام ؛ يتمناه بنفسه شوقا إلى لقاء ربه تعالى .

﴿ **وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ إشارة لكمال توحيدهم، لأنهم يعتقدون العقيدة الكاملة أن النصر من عند الله . قال سبحانه : ﴿ **وَمَا آلنَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ آللهِ** ﴾(٣) فابتهلوا إليه أن ينيلهم التأييد بروح منه، وأن يقهر أعداءه وأعداءهم الكافرين حتى يكون الدين لله . وهذه الآية بيان من الله لنا، وعتب منه سبحانه على أهل أحد، فهى وإن نزلت فى غزوة أحد إلا إن الحكم فيها عام . والواجب علينا أن نسأل الله تعالى أن يجملنا بما جمل به أتباع الأمم السالفين،

---

(١) سورة فاطر آية ٣.

(٢) سورة الصافات آية ١٦٤.

(٣) سورة آل عمران ١٢٦.

خصوصا ونحن أمة خاتم الأنبياء . وفى هذه الآية مزيد فى الإِيمان لأهل الغيرة والفقه عن الله تعالى .

قوله تعالى : فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

﴿ **فَآتَاهُمُ اللّهُ** ﴾ أى : أعطاهم جزاء ما أخبرنا به عنهم عطية جعلها عامة لكل من جمله سبحانه بصفاقم إلى يوم القيامة . لأن (**آتى**) أى : أعطى عطية عامة لكل من آتاه ولغيره، و (أعطى) أى : أعطى عطية خاصة للمُعْطَى له . وفى قوله : ﴿ **فَآتَاهُمُ** ﴾ بشرى لنا جماعة المسلمين بأن هذا الخير المعطى لهم ينالنا إن شاء الله تعالى . ومعنى الآية أن الله تعالى تفضل على من وصفهم بأهم صبروا على لقاء الأعداء بعد قتل أنبيائهم ؛ صبرا أثبت أهم بلغوا كمال الشهود، وتحققوا بالوجود الحق، وكيف لا ؟ وقد قامت الحجة لهم بما وصفهم الله به أهم من المصطفين الأخيار . ﴿ **ثَوَابَ الدُّنْيَا** ﴾ أى : نفوذ الكلمة على الأعداء، والتمكين فى الأرض بالحق، وقهر أعداء الله وأعدائهم، والفوز بالغنائم، والحفظ من الفتن والمحن، وتوالى نعم الله عليهم من السماء والأرض .

﴿ **وَحُسنَ ثَوَابَ آلأَخِرَةِ** ﴾ وهو الخير الحقيقى الذى يتفضل به على أصفيائه من عباده، لأن الجنة ونعيمها هى ثواب الآخرة فقط . أما حُسن هذا الثواب ــ بضم الحاء ــ فهو ما فوقها من مقعد صدق جوار الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام عند مليك مقتدر، فرضوان الله الأكبر لأهل الذكر الأكبر، فالأنس بالله على بساط إكرامه . وهذا هو حسن ثواب الآخرة . وليس فوق هذا المقام إلا مقام فى قوله تعالى : ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَن**

سَيِّئَاتِهِمْ ﴾(١) والآخرة مأخوذة من اليوم الآخر . فإن الدنيا يوم، والبرزخ يوم، والآخرة يوم آخر، وآخِر بكسر الخاء أى : متأخر عن يومى الدنيا والبرزخ .

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ تقدم لك الكلام على محبة الله للعبد، وهنا يبشرنا الله تعالى بأنه يحب المحسنين . فمن هم المحسنون الذين يحبهم سبحانه ؟ . بين رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ هذا المقام فى الحديث الطويل الذى أورده البخارى بسنده إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (آلإِحْسَانُ أَن تَعْبُدَ آللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِن لَّمْ تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) فبين أن أهل الإِحسان نوعان : نوع أعلى وهو الشهود الذى دَلّ عليه (كَأَنَّكَ تَرَاه) ونوع يليه وهو مقام المراقبة الذى يجعل العبد حاضرا مع الله، بدليل قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (فإن لم تكن تراه فإنه يراك) وبعد مقام المراقبة مقام المحاسبة للنفس، وبعدها لا مقام للعبد، وهو سالك يطلب العلم، حتى يعرف نفسه فيعرف ربه، فيحاسب نفسه، ثم يراقب ربه، ثم يشاهد جماله .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

سبب نزول هذه الآية أن أبا سفيان واليهود والمنافقين لما أن علموا أن رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ قتل ؛ قام أبو سفيان فطلب ممن يعرف من المهاجرين أن يرجع إلى دينه وبلده، وقام عبد الله بن أبى بن سلول ومن معه من المنافقين يرسوسون إلى الأنصار بقولهم : لو كان نبيا مرسلا ما قتل، وقام اليهود يدخلون الريبة والشك فى قلوب المسلمين بما فطرت عليه نفوسهم الخبيثة، وخصوصا فى

---

(١) سورة الأحقاف آية ١٦.

وقعة أحد عند إشاعة قتل رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ فحذرهم الله تعالى بقوله سبحانه : ﴿ **إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ** ﴾ ومعلوم أن سبب نزول هذه الآية خاص ولكن حكمها عام، والله ينهانا ضمنا عن إطاعة كل كافر ويرتب عليها الكفر به سبحانه، والحكم هنا عام لم يتقيد .

فما هى الشؤون التى ينهانا ربنا عن إطاعة الكفار فيها ؟ هل ذلك ما يعنيه سبب نزول الآية ؟ أم الأمر شامل لكل ما يأتينا من قِبل الكفار ؟ والظاهر أن الله تعالى نهانا عن اتباع الكفار وعن نصرهم وتأييدهم، وعن سماع مشورتهم، وعن الركون عليهم والمسارعة فيهم، وعن التقرب إليهم . اللهم إلا ما عدت إليه الضرورة ؛ كالمبادلة التى لا يتسرب منها فساد فى دين ولا عرض ولا نفس ولا خلق، فإن المسلم إذا وجد ما يحتاج إليه من لوازمه الضرورية والكمالية عند أخيه المسلم يتعين عليه ألا يأخذ حاجاته إلا منه، فإذا دعت الضرورة فَقْد ما يلزم من عند المسلم ؛ جاز له معاملة غيره ،والمسلم الذى يستحسن معاملة غير المسلمين يقيم الحجة على نفسه أنه ضعيف الإيمان، وربما تسرب إلى قلبه شىء من حب غير المسلمين فيكون بذلك فارق الإسلام من حيث لا يشعر، فإن معاملة غير المسلمين ــ خصوصا فى بلاد إسلامية ــ تقوى شوكة الكافرين بما يكتسبون من الأموال، وتضعف المسلمين، ولا ترى مسلما يحب أن تقوى شوكة أعداء الإسلام .

وإذا كان الله تعالى يبين لنا أن إطاعة الكافرين ردة ؛ فكيف تكون طاعة من طعنوا فى ديننا، وآذونا فى نبينا، وفتحوا علينا أبواب الفتن بعد هذا كله ؟؟ حتى لا ترى بلدا من بلاد المسلمين إلا ويحتلها جيش من جيوش الكفار، طليعته دعاة النصرانية الذين لم يجدوا أمامهم غيرة إسلامية تصدهم بالقوة، فإن أعداء الله ليست لهم حجة يقيمونها على دعواهم، وحجتهم السب، والتنديد، ونشر أباطيلهم، ثم الجيش الجرار . فلو أن المسلمين تمسكوا بدينهم فصدوا قوة تلك الطليعة المضلة لما

وجدنا فى الشرق جيشا مستعمرا ومستعبدا، ولكن قاتل الله الطمع . هل بعد قوله تعالى : ﴿ **إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ** ﴾ يقف مسلم فيسمع قول دعاة النصرانية مفقود الغيرة لدينه ووطنه على أعدائهما ؟!! .

﴿ **يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ** ﴾ الفعل جواب الشرط، والردة والعياذ بالله معلومة . و ﴿ **عَلَى أَعْقَابِكُمْ** ﴾ أى : منهزمين فى الدنيا والآخرة، لأن الكفر بالله خسران فى الآخرة وهو شأن المنقلب على وجهه منهزما . ﴿ **فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ** ﴾ الفاء هنا للسببية، والمعنى : ترجعون خاسرين فى الدنيا والآخرة . أما فى الدنيا فَبِذُلِّ الكفر بسبب نصرة المسلمين التى وعدهم الله بها وتمكينهم فى الأرض، فإن حادثة غزوة أحد كانت أدبا من الله للمسلمين . وأما فى الآخرة ؛ فبسبب الانتقام منهم بخلودهم فى نار جهنم . وفى هذه الآية إشارة إلى أن الله يحفظ المسلمين من الردة ومن الخسران فى الدنيا والآخرة، بدليل الإتيان بـ (**إن**) الشرطية، ولله الحمد فإنَّا ما سمعنا بمسلم باشر الإسلام قلبه فهش له وبش أطاع كافرا أبدا، وما ارتد عن الإسلام مسلم من أب مسلم وماء حلال، ودليل ذلك ما يقوم به دعاة النصرانية المؤيدون بالحديد والنار، وبعشرات الملايين من الجنيهات من ايام الحروب الصليبية إلى الآن، و لم نسمع أن أجهل مسلم تنصر ــ ولو بذلوا له المال والجاه والسلطان ــ بينما نرى أهل العقل منهم والثراء يعتنقون الإسلام فى كل دولة من الدول .

قوله تعالى : بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾

هذه الآية الشريفة متعلقة بالآية قبلها وهى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ** ﴾ ووجه تعلقها بها أن الله تعالى يقول يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿**إِن تُطِيعُواْ** ﴾ أى : لا تطيعوا، إلى آخره . وسبب إطاعة الكافرين تكون لطلب

النصرة منهم، أو دفع الأذى، أو الطمع فى عاجل الحياة الدنيا، ومن اعتقد ذلك فقد وقع فى شرك خفيٍّ، وحرم الفوز بمقاصده التى لأجلها أطاع الكفار . والواجب على أهل الإيمان أن يفردوا الله تعالى بالقصد دون غيره، فلا يطيعوا غير أهل العلم بالله، العاملين بكتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام . ولذلك قال سبحانه : ﴿ **بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ** ﴾ أى : هو الذى يتولى أموركم فيؤيدكم بروح منه، وينصركم على أعدائكم، ويمكن لكم فى الأرض بالحق، إذ هو الفاعل المختار لا شريك له سبحانه . وجائز أن يكون الكلام لا تطيعوا الذين كفروا وأطيعوا (**آللهَ**) مولاكم بنصب لفظ الجلالة . أى : الذين هو وليكم يتولاكم بفضله السابق لكم واللاحق .

﴿ **وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ** ﴾ أى : وهو الناصر وحده . إذ لا قدرة لمخلوق على نصرة مخلوق، بل ولا على نصرة نفسه إلا بإذن الله تعالى . فلفظة (**خَيْرُ**) ليست أفعل تفضيل على بابه ؛ بمعنى أن هناك نصراء كثيرين وهو سبحانه خيرهم . تنزه وتعالى عن المعنى التى يفيدها اسم التفضيل . بل لفظة (**خَيْرُ**) هنا دالة على نفى النصراء سوى الله تعالى، ونفى النصراء سوى الله تعالى من الملائكة والإنس والجن، وكيف لا ؟ وكل من فى السموات والأرض عبيد مقهورون وعباد مربوبون .

قوله تعالى : سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾

﴿ **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ** ﴾ يطمئن قلوب أهل التوحيد بما تفضل عليهم من اليقين الحق، لأنه سبحانه وتعالى يلقى الخوف والفزع فى قلوب أهل الشرك به، لأن الشرك بالله لا تقبله إلا النفوس التى خلقت من أسفل

سافلين، ومن علاماها أن تعبد غير الله تعالى، فتصنع الأصنام بيدها، وتعبد البهائم والكواكب وغيرها . ومن علامات تلك النفوس ــ حتى ولو كان صاحب النفس مسلما ــ اعتمادها على الخلق، وتوكلها عليهم، ووقوفها عند الأسباب التى أقامها الله تعالى ليتعرف بها إلى عباده .

وتلك الأسباب قد تتخلف عن تأدية ما وضعت له لتفرد الله تعالى بالفعل. فقد ترى القمر منيرا والشمس كذلك ثم تنكسف ويخسف، وقد تنزل الأمطار فى الوقت الصائف فى أيام الصيف، وقد تتخلف الأمطار عن أوقاها والأهار، وقد تزيد الأهار فى غير أوقات زيادها ؛ لتقوم الحجة على كمال تفريد الله تعالى بالإرادة والعمل . ولذلك ترى المشركين لا تطمئن قلوهم، وتراهم فى رعب شديد من أهل الإيمان بما أودعه الله فى قلوب المؤمنين من اليقين الحق بالله، وعدم الانزعاج عند تخلف الأسباب، وتراهم يسارعون إلى محاب الله ومراضيه بشجاعة وإقدام، لفرحهم بالفوز بما عند الله تصديقا لوعده، وثقة به سبحانه . وكل خلق يتخلق به المؤمن فهو بإلقاء الله النُّورَ فى قلبه، وكل خلق قبيح تخلق به المشرك هو كذلك بإلقاء الله تعالى فى قلبه ؛ كسوء الظن به سبحانه والميل إلى الشريك، وهذا مشهد أهل التوحيد الكامل ؛ الذين تبرءوا من حولهم وقوهم بما آتاهم الله من العمل بأنفسهم وبه جل جلاله .

ظهر لك أن عقيدة التوحيد والأخلاق الفاضلة إنما يجمل الله بها من منحهم القابل لها، فإن الإنسان ــ من حيث هو إنسان ــ مفطور على الشر لخبث طبعه، ولقس نفسه الأمارة بالسوء، حتى تفضل الله تعالى عليه بالقابل الذى يعقل عن الله خبره، قال تعالى : ﴿ **أُوْلَئكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ آلإِيْمَانَ** ﴾(١) والكتابة في الحقيقة

---

(١) سورة المجادلة آية ٢٢.

هي غير المكتوب فيه، والتأييد غير المؤيد، فالله تعالى يزيد على الإنسان ما ليس منه. وقال تعالى : ﴿ **وَلَكِنَّ آللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ آلإِيْمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ** ﴾(١) والحب زائد على من يحب، والتزين زيادة على المزيَّن، فإذا تُرِكَ الإنسانُ ونشأته من غير عناية الله به ؛ فهو شيطان وأشر، ووحش كاسر وأضر، لفقده القابل الذى يقبل به عن الله .

وهذه الآية الشريفة بيان لأهل الإيمان أن الله تعالى ينصرهم، ويؤيدهم بقوته سبحانه وإن كانوا قِلاًّ وكان أعداؤهم كُثرا، بإلقائه الرعب فى قلوب الكفار. وهذه الآية نزلت لمناسبة غزوة أحد، لأن المشركين بعد أن قويت شوكتهم على الصحابة فقلوا وجرحوا فروا منهزمين، حتى وقف أبو سيفان فوق الجبل ينادى، فرد عليه عمر بن الخطاب بشجاعة وقوة، فقال المشركون : إنا تمكنا من القوم فما لنا لا نرجع إليهم فنستأصلهم ؟ ولكن الله ألقى الرعب فى قلوبهم فانهزموا . وحكم الآية عام بدليل أنها نزلت بعد أحد التى أصيب فيها الصحابة بفادح المصاب، فهى وعد من الله تعالى بدليل قوله سبحانه : (**سَنُلْقِى**) بالسين التى هى للمستقبل، وهذا هو الحق، لأن الله تعالى بعد أُحُد أيّد المسلمين فنصروا وظفروا، حتى فتح جنوب أوربا ووسط آسيا وشرقها، وشمال أفريقيا وسواحلها شرقا وغربا، وما مضى أقل من قرن حتى كان الإسلام تخفق أعلامه على أكثر من نصف الأرض شرقا وغربا . وهذا وعد الله تعالى . فكانت تلك الآية معجزة كبرى . والرعب فى اللغة بحسب الأصل هو الملء لذلك يقال : رعب الوادى، أى : امتلأ ماء . وهو استيلاء الحزن الشديد على تجويف القلب حتى يملأه فيبلغ مبلغ اليأس، وهو شدة الحزن والخوف . وورد فى اللغة رَعَب بفتح الراء والعين، وجائز أن يكون رُعْب بضم الراء مصدرا، ورَعَب بفتح الراء والعين الاسم منه .

---

(١) سورة الحجرات آية ٧.

.﴿ **بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ**﴾ معنى هذه الآية، أن الله تعالى ملأ قلوبهم خوفا وانزعاجا لأنهم اتخذوا من دون الله أندادا من الأوثان، والكواكب، والبهائم، وغيرها . وجعلوا لله ولدا وبنات من الأناسى والملائكة، وهذا هو الشرك الظاهر، وهناك شرك خفىّ، وهو خُلق ضعاف الإيمان يعتمدون على أهل الثراء وأهل السلطة والقوة، أو يقفون عند الأسباب كما قررتُ لك . وهؤلاء يحتاجون إلى أن يجالسوا العلماء العارفين بالله ليتعلموا علم التوحيد، وحكمة الأحكام، وبذلك يمدهم الله بتأييده وعنايته، ويجعل لهم نورا يمشون به فى الناس .

﴿ **مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا** ﴾ (**مَا**) هنا مصدرية ﴿ **لَمْ يُنَزِّلْ** ﴾ أى : لم ينزل بإشراكهم سلطانا، والسلطان مأخوذ من السليط الذى يسرج به السراج، أو من السلطة والقوة، أو من الحجة والبرهان . فيقال للسليط الذى يسرج به السراج : سلطان . وكذلك لصاحب القوة والسلطة : سلطان . وللحجة والبرهان : سلطان . فالمعنى أن الله تعالى لم ينزل فى كتبه السماوية آية تدل على أن له شريكا فى الأرض يُحَبُّ من دونه . وفى هذه الآية دليل على كمال تنزيه الله تعالى عن الشريك والند والضد والولد، لأنه قال سبحانه : ﴿ **مَا لَمْ** ينزل **بِهِ سُلْطَانًا** ﴾ ولما لم ينزل به سلطانا قامت الحجة على أن وجود الشريك لله مستحيل عقلا ونقلا، وصار لا وجه لمن يقول : إن عدم إنزال السلطان لا يقتضى استحالة وجود الشريك . لأن القرآن المجيد أنزله الله لمن منحهم القابل منه سبحانه، فلا عبرة لقول من لا عقل لهم يعقل عنه جل جلاله .

﴿ **وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ** ﴾ حكم الله تعالى على أهل الشرك به بأن يجعل لهم النار مأوى يأوون إليها يوم القيامة، لأنهم نظروا بعيون رؤوسهم ما خلقه لهم فى السموات والأرض والأجواء والأرجاء من النعم التى لا تحصى، ورأوها متوالية

عليهم من غير استحقاق لهم بها، فإن السموات والأرض وما فيهن خلقت قبل وجود الإنسان، وهى ضرورية له جدًّا، بحيث لو فقد عنصر من العناصر الكونية ؛ لهلك كل من فى الوجود، كالهواء والشمس والماء وغيرها . وهى دالة على وجود الصانع جل جلاله، وتفريده بالإيجاد والإمداد، ومع .ذلك فإنهم نسوا الله تعالى، غفوا عنه فأنساهم الله سبحانه أنفسهم، من حيث ما يجب أن يعلموه فيها من الذل والفقر والعبودية له والاضطرار إليه، والعجز عن جلب المنافع ودفع المضار إلا بحوله وقوته، بل وعن حفظ ما تفضل به عليهم من الجوارح والأعضاء الباطنة، وهذا يجعل الإنسان لا ينسى ربه، بل يديم ذكره وشكره، ويتخلق بأخلاقه العلية . ولأجل تلك النعم الغزيرة والمنن الوافية وحرمانهم من الفكر فيها ؛ عاقبهم الله بالخلود فى نار جهنم .

﴿ **وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ** ﴾ أى : وبئس مآل ومقر من ظلموا أنفسهم بالشرك بالله تعالى . ومن تلا تلك الآية وتدبر ما فيها من البشائر لأهل الإيمان ؛ وعقوبات أهل الشرك ؛ يطمئن قلبه، وتصغر الدنيا فى نظره، ويسارع إلى عمل ما يحبه الله ويرضاه، موقنا بالفوز بخيرى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

(**وَلَقَدْ**) افتتح الله هذه الآية باللام و : قَدْ ؛ المفيدتين لتقوية الخبر . ﴿ **صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ** ﴾ أى وعدكم وعدا حقا مصدقا فى بدر حيث نصركم وأنتم قِلٌّ وغيركم كُثْر، وفى أول غزوة أحد، حيث أظهركم عليهم ونصركم وهزمهم،

والقوم أكثر من خمسة آلاف وأنتم أقل من سبعمائة رجل . ﴿ **إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ** ﴾ أى : تقتلونهم وتمزقون جلودهم بالنبال والرماح، وحَسَّه أى : قتله أو جرحه (**بِإِذْنِهِ**) أى : بعنايتة وإرادته سبحانه .

﴿ **حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ** ﴾ أى : خالفتم أمر رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ بمفارقة الرماة مواقفهم التى أوقفهم عليه الصلاة والسلام فيها ؛ بتأويلهم الذى أولوه فى ألأمر الصريح، وذلك التأويل أنهم قالوا : إنما أمرنا بوقوفنا حتى تحصل النصرة، وقد نصرنا الله وهزم الأعداءَ فما لنا لا نسلبهم أموالهم ؟ فأبى رئيس الرماة وبقى معه أقل من عشرة ووقفوا، وأسرع بقية الرماة إلى تناول الغنائم، وكان خالد بن الوليد كامنا فى الجبل على يمين المشركين ومعه ثلثمائة فارس، فهجم على المسلمين من خلف ظهورهم . وقد بيَّنتُ لك فيما سبق عمل عبدالله بن قميئة عندما رمى رسولَ الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ بحجر كسر رباعيته وشج وجهه، وهجم عليه بالسيف فصده مصعب بن عمير رضى الله عنه فضرب ابن قميئة فقتله، ونادى : إنى قتلت محمدا، فصاح الشيطان بأعلى صوته : قتل محمد . ففر الصحابة وسال الدم من رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، والمشركون فى ثورة النصرة، وليس مع رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ إلا أبو بكر وعليّ . فعند ذلك نادى رسولُ الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ : (إِلَيَّ عبادَ الله) فأسرعوا إليه ﴿ **ﷺ وآله**﴾ بحماسٍ وغيرة .

وبيان هذا قوله تعالى : ﴿ **وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم** ﴾ الرسول، أى : تنازع الرماة فى البقاء أو مفارقة المواقف وعصوا أمر الرسول . ﴿ **مِن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ** ﴾ أى : فى بدر وفى أوائل أحد .

﴿ **مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا** ﴾ المراد بالإرادة هنا الاختيار، لأن معنى الإرادة : التردد بين أمرين فعلا وتركا، فإذا قويت إرادة أحد الأمرين كان اختيارا . فمنهم من

كان يختار الدنيا أى : النصر والغنيمة والسلامة، وهم ضعاف الإيمان ؛ أو المنافقون كعبد الله بن أبى بن سلول الذى ارتد ومعه ثلثمائة رجل ممن كانوا خرجوا مع رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لأُحد . أما ضعاف الإيمان فالذين فارقوا مواقفهم بعد صريح أمر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ لهم بالقباء فيها على أى حال كان .

﴿ **وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ** ﴾ أى : يختارها، وهم أهل الإيمان الكامل . وخير ما يختاره المؤمن لقاء الله تعالى بنيل الشهادة، ولا يختار الآخرة إلا أهل اليقين بوعد الله تعالى، الذين وقع بهم العلم على عين اليقين فأنِسُوا بما استوحش منه أهل الغِرَّة بالله تعالى، ونظروا إلى الدنيا بعين شهدت حقيقتها فاضمحلت أمام أعينهم وتضاءلت، ولا يبلغ المؤمن هذا المقام إلا فى وقت الفزع الأكبر كغزوة أحد .

﴿ **ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ** ﴾ معنى هذه الآية أن الله تعالى يقول : ﴿ **حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ** ﴾ حذف سبحانه الجواب وهو ملحوظ، ومعناه : فشى فيكم القتل والجراح والهزيمة، وعطف على الجواب ﴿ **ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ** ﴾ وعنى الصرف هنا : أن الله تعالى ألقى الرعب والخوف والفزع فى قلوب المشركين ــ بعد أن مكنهم من الصحابة وبلغوا منهم ما بلغوا ففروا منهزمين ــ عندما رجع الصحابة بحماس شديد وغيرة وفرح. بسلامة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ؛ وجائز أن يكون ذلك بما أمدَّ به رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ من الملائكة على صحة القول بقتال الملائكة فى أحد . ولما هزم الله تعالى الكفار أطمأن المؤمنون وانصرفوا عن الهجوم عليهم .

ويكون هذا الصرف رضا عن الله وطاعة له بوقوع ما قدره من هزيمة الأعداء، و لم يكن الصرف معصية، وكيف يكون معصية وقد أسنده الله إليه جل جلاله ؟ وما فهمه من فهمه أن الصرف معصية ؛ إلا لأنه ظن أنهم فروا بعد إسراعهم إلى رسول

الله ﴿ ﷺ وآله﴾، بعد أن تحققوا من حياته ﴿ ﷺ وآله﴾ ،وذلك لم يحصل منهم رضى الله عنهم، ولو حصل منهم ما أسند الله صرفهم عن المشركين إلى ذاته العلية جل جلاله . وحجة من فهم ذلك غير مقبولة، لأنه يدلل على رأيه بأن الله عتب عليهم، والعتب من الله تعالى فى كل هذه الآيات إنما هو على مخالفة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى أمره للرماة . فإن الرماة يرون أن لهم العذر فى مسارعتهم إلى الغنيمة بعد الهزيمة، والله تعالى يحب من أهل الإِسلام عُلُوَّ الهِمَّة، واحتقار الحياة الدنيا فى سبيل السمع والطاعة لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

وتلك المعاصى منهم على حد قولهم : حسنات الأبرار سيئات المقربين . وإلا فصرف الله تعالى أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ عن القوم كان مما يحبه الله تعالى، خصوصا بعد أن جرى القتل والجراح فيهم، وهى رحمة من الله تعالى ليتفرغوا لخدمة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فيما ألم به صلوات الله وسلامه عليه، والواجب على أهل العلم أن يسلّموا لله ولرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ تسليماً . فإن الغيب المصون فوق عقولنا، بل وفوق أرواحنا، والقرآن كلام الله، وكلامه صفته، وهو سبحانه ليس كمثله شيء فى ذاته وفى أسمائه وفى صفاته، وما علينا إلا أن نقول : ﴿ **ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** ﴾ ولم نكلَّف أن ندرك الحقائق، والله وليُّنا .

وجائز أن يكون : ﴿ **صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ** ﴾ عندما فارق الرماة موافقهم، وخالفوا صريح الأمر، وهجم على المسلمين جيش خالد بن الواليد، ونادى الشيطان : قتل محمد، فهجم الغم على قلوب الصحابة بحالة مزعجة فرجعوا، ولهم العذر ؛ لأنهم يرون بعد علمهم بقتل رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ ؛ وبعد ما رأوه من قتل حمزة رضى الله عنه ؛ وقتل سبعين من الصحابة ؛ أنه لابد من التحيز إلى من فى المدينة، ليعيدوا الكرة على كفار قريش . وعلى الوجه الأول يكون قوله تعالى : ﴿

لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ أى : ليمتحنكم بالخير الذى أسبغه عليكم فى بدر، وفى أُحُد بما ظهر فيها من النصرة بعد الهزيمة . وعلى التأويل الثانى يكون : ﴿ **لِيَبْتَلِيَكُمْ** ﴾ أى : ليمتحن إيمانكم قوة وضعفا ؛ بعد أن أصابتكم فى أحد الشدائد الفادحة .

﴿ **وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ** ﴾ فى هذه الآية ما يطمئن قلوب أهل أحد بفوزهم بعفو الله ؛ بعد مخالفتهم أمر رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، وفى قوله : ﴿ **وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ** ﴾ دليل على أن الكبائر لا توقع فى الكفر، لأن الله تفضل بالعفو عنهم بدون أن يبين لهم أهم تابوا إليه، والله تعالى يعفو عن التائب وغير التائب فضلا منه وكرما . وجائز أن يكون رجوعهم بعد سماع صوت رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ توبة منهم وندما على مخالفتهم أمره، ويكون الله تعالى عفا عنهم بعد حصول التوبة منهم التى وفقهم لها . ومن فقه هذه الآية ظهر له أن الذنب الذى وقع فيه الرماة بالنسبة لتأويلهم القريب؛ قد عجّل الله لهم به عقوبة فادحة ــ أسدُّها كسر رباعية رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، وشج رأسه الشريف، وقتل سبعين منهم، وقتل سيد الصحابة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه وعنهم ــ على فعلتهم ثم عفا عنهم، وأنت تعلم مقدار العفو من الله تعالى الذى لا يسمى بحسب العقل عفوا ؛ إلا إذا كان من ذنب عظيم، ونحن نرى شرَّ الفُسّاق يقع فى كل نفَس فى الكبائر ولا يلقى لها بالاً، فاللهم وفقنا لما تحب وترضى .

﴿ **وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ لأنه سبحانه لولا فضله العظيم لأبادهم جميعا بهذا الذنب . فتفضل عليهم جل جلاله فجعل منهم شهداء مع النبيين والصديقين، ومنَّ عليهم بالعفو عنهم، وهزم العدو، وحفظ رسوله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، ورجعوا إلى المدينة سالمين . وهذا كله بفضل الله تعالى، ولا يزال فضله العظيم أكثر ما يكون برسوله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ يوالينا به . لأنه لو آخذنا بذنوبنا فى زماننا هذا لما أبقى على

ظهرها من دابة، وإن كان يعاقبنا بتسليط الكفار علينا، وحصول التفرقة بيننا، وبخروج بعضنا على بعض، إلا أننا نعتقد أنه أدب منه وعبرة لنا لنرجع إليه سبحانه. وفقنا الله للإِنابة إليه، والرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح، ووفقنا لما يحبه ويرضاه .

قوله تعالى : إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

وردت الآية بضم التاء وكسر العين ﴿ **تُصْعِدُونَ** ﴾ وعليها أكثر القراء، ومعنى الفعل : تسرعون المشى على الأرض المنبسطة . ووردت بفتح التاء والعين ﴿**تَصْعَدُونَ** ﴾ ومعناها : ترفعون فوق الجبل أو فوق الأرض المرتفعة، وعلى الرواية الأولى أى : تسرعون إلى المدينة فوق الأرض المنبسطة، وعلى الثانى : ترفعون فوق صخور الجبل وذلك عند الهزيمة يوم أحد .

﴿ **وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ** ﴾ أى : ولا تلتفتون وترجعون على أحد . ﴿ **وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ** ﴾ بقوله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ : (إِلَيَّ عِبَادَ الله) . يذكرهم الله تعالى هذا الحادث ليتمثلوه فى مستقبلهم، ويكونوا على حال من السمع والطاعة لرسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ ؛ ينيلهم الله تعالى به ما يحبونه فى الدنيا والآخرة، بل ومحبته تعالى لهم التى هى أغلى من الأرواح، وتلك الذكرى يجب أن تكون ماثلة أمام كل مسلم عند قيامه لله بحق من حقوقه سبحانه، قال تعالى : ﴿ **فَإِنَّ ٱلذِّكْرَى تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾(١).

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٥.

﴿ **فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ** ﴾ الإثابة هي الجزاء، وما يكافأ به المحسن والمسىء يسمى إثابة مادام ذلك يستحقه بمبادلة أو بعمل ﴿ **غُمَّاً بِغَمٍّ** ﴾ أى : غما على غم . لأن أول غم سلب العقول، وأذهب الحفيظة سماعهم بقتل رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، ثم رؤيتهم جيش خالد بن الوليد هاجما عليهم يقتل فيهم قتلا ذريعا ؛ حتى قتل حمزة، ففزعت القلوب وجزعت، وطاشت الأحلام، وانحلت القوى، ولم يبق إلا الرجوع القهقرى، وهو البلاء الذى ابتلاهم الله به ليلزمهم الأدب مع رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، ويعلمهم أن إشارته ﴿ **ﷺ وآله**﴾ فوق شهود عيوهم، لأن رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ لا ينطق عن الهوى لاطلاعه على سر القدر المكنون، وإن كان الحذر لا يمنع القدر ؛ فنحن مكلفون بالأخذ بالأسباب، وهو ﴿ **ﷺ وآله**﴾ الإمام الذى يعلمنا بقوله وعمله وحاله . والواجب علينا التسليم بكل معاينه .

﴿ **لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ** ﴾ اللام متعلقة بأصابكم، والجملة مترتبة على قوله تعالى : ﴿ **فَعَفَا عَنكُمْ** ﴾ والمعنى : فعفا عنكم لكيلا تحزنوا حزنا يشوب التوحيد، فإن الحزن على المصائب والفرح بالنعم دليل على ضعف الإيمان . والمؤمن القوى الإيمان يفوض أمره إلى الله تعالى فيصبر ويرضى طمعا فى نيل عفو الله ورضوانه ﴿ **عَلَى مَا فَاتَكُمْ** ﴾ أى : من الغنيمة والنصر ﴿ **وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ** ﴾ في رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ وفى قتل حمزة والسبعين منكم معه، وفى الهزيمة عند لقاء العدو، وهى مصائب جمة تحزن القلوب حقا، خصوصا لأنها نتجت من مخالفة الأمر والحزن فطرة من فطر الإنسان، ولكنه يكون مذموما إذا لم يراع فيه الرضا عن قدر الله تعالى، والحزن على نفسه لأنها فقدت ما به نيل فضل الله تعالى ورحمته فى الدنيا والآخرة، وهو المحافظة على طاعة أمر رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، فإن كل تلك المصائب سببها تلك المخالفة حتى ظهر أهل الكفر بالله، ووقف أبو سفيان فوق الجبل يصيح بيوم بدر اعل هبل، هل فيكم ابن أبى كبشة ؟ فسكت القوم،

فقال : قتل محمد ورب الكعبة، ثم قال : أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ فسكتوا، فقال : قتل ورب الكعبة، ثم قال : أفى القوم عمر بن الخطاب ؟ فسكتوا ن فقال : قتل ورب الكعبة، ثم قال أبو سفيان : اعل هبل يوما بيوم بدر، وحنظلة بحنظلة، وأنتم واجدون فى القوم مثله، لم يكن عن رأى سراتنا وخيارنا، ولم نُكرهه حين رأيناه ؛ فقال النبى ﴿ **ﷺ وآله**﴾ لعمر بن الخطاب : (قم فناد فقل : الله أعلَى وأجلُّ، نعم، هذا رسولُ الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، وهذا أبوُ بكرٍ وها أنا ذا، لا يستوى أصحابُ النَّارِ وأصحابُ الجنةِ أصحابُ الجنةِ هم الفائزونَ، قتلانا فى الجنةِ وقتلاكم فى النارِ) .

﴿ **وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ أى : ذو خبرة بأعمالكم التى أوقعتكم فى تلك المصائب الفادحة، من ظهور الأعداء عليكم حتى صرتم بين ثلاثة أنواع : نوع قتلى، ونوع جرحى، ونوع منهزمون . بل وهو سبحانه خبير بما تكنه قلوبكم من النوايا التى دعتكم إلى عمل ما عملتم ؛ وهى نية الطمع فى الغنائم حتى خالفتم أمر نبيكم عليه الصلاة والسلام .

وفى هذه الآية يقظة لقلوب أهل الإسلام ؛ الذين إذا خلا لهم المكان من الخلق هموا بعمل المعاصى ؛ جاهلين بأن الله تعالى معهم أينما كانوا، ولو أنهم راقبوا الله كما يجب عليهم أن يراقبوه لما ظن مسلم أنه فى خلوته أبدا، وكيف يظن أنه فى خلوة والقوى القهار معه أينما كان لا يفارقه بعلمه وقدرته ؟ فيثيب المحسن بإحسانه وأكثر، ويعاقب المسىء بقدر عمله فحسب . ومن فقد محاسبة نفسه ومراقبة ربه؛ يخشى الناس والله أحق أن يخشاه، ولم يترك من الجهالة شيئا من ظن أنه إذا أغلق الأبواب عليه خلا بنفسه، لأن من يفعل ذلك لا فرق بينه وبين أهل الجحود بالله .
قال تعالى : ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ**

سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾(١) والمسلم غير معصوم، فقد يستهويه الشيطان بفعل الصغائر، حتى إذا بلغت الكبائر تداركته العناية فتذكر ؛ فراعى معية الله تعالى، فقد يخر صعقا، وقد يبكى على نفسه، وقد يفر إلى الله تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾(٢).

أما المسلم الذى إذا خلا من الناس ظن أنه فى خلوة يفعل ما يشتهى ؛ سجل على نفسه أنه غير مسلم . لأن الإسلام هو التسليم لله ولرسوله ولأحكامه، ومن ظن أن وحشاً فى غابة لا يراه لا يدخلها أبدا خوفا من الوحش الذى لا يراه، فكيف بالمسلم وهو يصدق أن الله معه يَخْبُرُه سُبحانه، ثم يتخلى فيقع فى الكبائر غير هياب ولا وجل ولا كأنه مسلم ؟! هذا دليل على أنه كالببغاء التى تقول ما لا تفقه، أو كآلة الصدى التى ترجع الأصوات فتحفظها وتعيدها، وهذا فى نظر أهل العلم بالله ليس بإنسان فضلا عن أن يكون مسلما . فإن الطير يتكلم ولا يفقه، وآلة الحديد تتكلم ولا تعلم، ولا فرق بينه وبينها والجهل ليس عذرا .

وما على المسلم الذى يزول إيمانه عند وقوعه فى الكبيرة ؛ إلا أن يتوب التوبة التى قررها الشريعة ؛ بأن يسلّم نفسه للحاكم الشرعى فيقطع يده فى السرقة، ويقتله فى القتل، ويرجمه أو يجلده فى الزنا، حتى يموت طاهرا من غير سابق حساب .

قوله تعالى : ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ

---

(١) سورة المجادلة آية ٧.

(٢) سورة الأعراف آية ٢٠١.

لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

معنى هذه الآية أن الله تعالى أنزل على أهل اليقين الكامل (**أَمَنَةً**) يعنى أمنا، ثم بين ذلك الأمن بقوله تعالى : (**نُّعَاسًا**) وهو بدل من (**أَمَنَةً**) ولفظة : (**يَغْشَى**) بالتاء والياء على أن الفاعل (**أَمَنَةً**) أو (**نُّعَاسًا**) وهما روايتان صحيحتان، والنعاس فى الجهاد أمنة من الله تعالى، وفى الصلاة غفلة من الشيطان . (**طَآئِفَةً**) أى : أهل الإيمان واليقين، وهم أهل التثبيت، وهم الذين لا يريدون إلا وجه الله تعالى . (**مِّنكُمْ**) أى : من الصحابة .

﴿ **وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ** ﴾ وهم أهل الشك والريب الذين شغلتهم أنفسهم ﴿ **يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ** ﴾ وهم الذين لم تقو حالتهم الإيمانية على تحمل تلك الشدائد الفادحة . فإنَّ قَوِىَّ الإيمان يتمنى ما عند الله عند الكرب العظيم وينتظر الفرج منه سبحانه، وانتظار الفرج عبادة الرسل الكرام والملائكة عليهم السلام، وقد ورد أهل اليقين من الصحابة أن النوم غشاهم حتى كانت السيوف تسقط من أيديهم . هنا كان الصحابة المنهزمون فريقين : فريق كر إلى المدينة، وفريق صعد الجبل وهو يشرف على المقاتلين . وهذه الآية والتى قلبها خبر من الله تعالى عن الذين فروا إلى المدينة وكانوا يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية الأولى، وقد قيل لعبد الله بن أبى بن سلول قُتِل الخزرج فقال : ﴿ **هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ** ﴾ فأمر الله رسوله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ أن قل لهم : ﴿ **قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ** ﴾ يعنى سبحانه أنه هو المقدّر الفاعل المختار لا شريك له ولا راد لقدره .

﴿ **يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ** ﴾ لأن الطائفة الذين أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق يخفون فى أنفسهم النفاق، وهو ظن السوء بالله تنزه وتعالى، ويبدون لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الإيمان فيقولون : ليس لنا من الأمر من شىء . ﴿ **يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا** ﴾ وهذا القول قول المنافقين الذين انهزموا إلى المدينة يقولون ﴿ **لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا** ﴾ أى: ما قتل من كانوا معنا، لأن القتلى رضى الله عنهم لم يقولوا ذلك وهم شهداء عند ربهم يرزقون .

﴿ **قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ** ﴾ يعنى بذلك جل جلاله : قل لهم لو كنتم فى بيوتكم أى : محصنين بأمنع الحصون، لنفذ الله قدره فيكم بأن تبرزوا من بيوتكم إلى مضاجعكم بأى سبب من أسباب الموت، ولا مفر من قدر الله تعالى . إنما يؤمن بالقدر من سبقت لهم الحسنى من الله تعالى، ولا يكون الريب والشك إلا من أهل النفاق الذين على قلوبهم أقفالها .

﴿ **وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ** ﴾ تقدم لك بيان فى قوله : ﴿ **وَلِيَعْلَمَ آللّهُ** ﴾، ﴿**وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ** ﴾ ونعيد هذا البيان، ومعنى قوله تعالى : ﴿ **وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ** ﴾ أى : وَلِيَبْتَلِيَ أَوْلِياءُ الله المنافقين، فأسنده الله إلى ذاته سبحانه، والمراد أن الذى يَبْتَلِيَ ويعلم هم المؤمنون، ليتميز لهم المؤمن من المنافق، والمعنى أن الله تعالى يقول : ﴿ **لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ** ﴾ أى : إلى مكان قتلهم حيث يراهم المؤمنون، ويرون حزنهم على ما هم فيه لنفاقهم، لأن تلك المشاهد يتمناها أهل الإيمان لأنفسهم . والابتلاء هو الامتحان، وما فى صدور المنافقين يجتهدون أن يخفوه عن المؤمنين إلا فى وقت الشدة، فإذا وقعوا فيها قهرهم حالهم فأظهروا مكنون صدورهم من الندم والأسف والحزن .

﴿ **وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ أى : أنه يقهرهم بالمصائب الشديدة التى تذهب عنهم الحفيظة فى كتم مقاصدهم ونواياهم عن المؤمنين حتى يظهروها مقهورين، والتمحيص هو التنقية كما تقدم، فتنقى البلايا ما يظهرونه من الإيمان بألسنتهم ؛ حتى يبيحوا بما يخفونه عن المؤمنين وهو الردة عن الدين .

﴿ **وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ أى : والله ذو علم بما يخفيه المنافقون فى صدورهم من سوء النية والقصد، فيعذبهم فى الدنيا بحرمانهم من المواقف التى ترضيه، وفى الآخرة بالخلود فى النار، وهو سبحانه العليم بظاهر الأمور وباطنها، فلا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

تقدم الكلام فيما سبق أن عبد الله بن أبى بن سلول ارتد فى غزوة أحد ومعه ثلثمائة رجل من المنافقين ،وأما هذه الآية الشريفة فقد نزلت فى المؤمنين الذين انهزموا بعد أن سمعوا الشيطان يصيح : قتل محمد، ﴿ ﷺ وآله﴾، ومعناها : أن الله تعالى يخبرنا أن الذين ولوا وجوههم عن قريش يوم أحد وانهزموا من أمامهم ﴿ **إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ** ﴾ أى : طلب زلّهم فحصلت منهم الزّلة بطلب الشيطان منهم ذلك . ولا ينكر الأسباب إلا جاهل، لأن الله تعالى هو الذى وضع الأسباب، وهو الذى خلقها لتؤدى مقتضاها، كما أن النار تحرق والماء يغرق بإذنه تعالى ؛ فكذلك خلق الله الشيطان سببا لوقوع الإنسان فى الكفر بالله ؛ أو فى معاصيه . والشيطان مأخوذ من : شطن، أى : بَعُد، أوشاط أى : احترق .

﴿ **بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ** ﴾ أى : ببعض الذنوب التى اكتسبوها وهى مفارقه الرماة مواقفهم، وإن كان الذين تولوا فى هذا اليوم أكثر الصحابة ؛ فإن الذين لم يتولوا وثبتوا مع رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ أفراد قليلة من الصحابة ؛ كأبى بكر، وعلىّ، وأبى عبيدة، وسعد بن أبى وقاص، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبد الله، وهؤلاء من المهاجرين . ومن الأنصار الحباب بن المنذر، وأبى دجانة، وعاصم بن ثابت، والحرث بن الصمة، وسهل بن عنيف، وأسيد ابن خضير، وسعد بن معاذ، وذكر أن ثمانية من هؤلاء رضى الله عنهم كانوا بايعوه ﴿ **ﷺ وآله**﴾ على الموت، ولما كانت روعة ذلك الحادث المؤلم فوق أن تطيقها إلا قوى الصديقين، والأفراد العالمين بالله تعالى ؛ كان لمن فر بعض العذر، خصوصا بعد أن سمعوا بمقتل رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، ولرحمة الله الواسعة بهم وعطفه وإحسانه إليهم قال سبحانه :

﴿ **وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ** ﴾ أى : عفا عنهم ما ارتكبوا من غير شك ولا ريب ولا عناد ولا ضعف فى إيمانهم .

﴿ **إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ أى : وذلك العفو من الله تعالى إحسان منه وتفضل عليهم، وظهور لمعانى اسمه الغفور، الذى يستر السيئات والخطايا والذنوب عن عيون مرتكبها وغيره من الخلق، حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب، بل ولا نفسه ولا جوارحه، وتفضل سبحانه بفضل بعد فضل بمعنى اسمه الحليم ؛ الذى لا يسرع بالعقوبة لمن عصاه، ثم يعفو ويغفر بظهور اسمه الحليم، أو يمهل وينتقم بظهور اسمه القهار، فأما الذين سبقت لهم الحسنى من الله فحلمه ليغفر لهم، والذين لم تسبق لهم الحسنى فحلمه عليهم إمهال، ثم يباغتهم بالنقمة والعقوبة، أعاذنا الله من جلاله بجماله العلىّ .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾

يتفضل الله سبحانه وتعالى فينادى الذين آمنوا نداء إحسان، قدر الله لهم به السمع والطاعة . ومعنى النداء : يا أيها الذين صدقوا الله تعالى ورسوله ﴿ ﷺ وآلـــه﴾ . فلما أصغوا بآذان قلوبهم ؛ نهاهم سبحانه عن أن يكونوا . مثل أهل النفاق الذين لم يقبلوا التوحيد بقلوبهم، وأظهروه بألسنتهم خوفا من القتل، وطمعا فيمـــا يفـــنى، وهؤلاء المنافقون هم شر من أهل الكفر لأننا نختاط منهم، وهم عنـــد الله كفـــار، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ **لاَ تَكُونُوا كَٱلاَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخوَانِهِمَ** ﴾ الآية . نهانا الله أن نشبه بالذين كفروا، ثم بين لنا شر صفاتهم وهى أنهم يقولون لإخوانهم ﴿ **إِذَا ضَرَبُواْ فِى آلأَرْضِ** ﴾ أى : خرجوا لطلب العلم، أو لطلـــب المعـــاش، أو لحج، أو لزيارة إخوان فى الله ﴿ **أَوْ كَانُواْ غُـــزًّى** ﴾ أى : غـــزاة فى ســـبيل الله، وأصاب بعضهم الموت أو فاز بالشهادة فى سبيل الله، يقولون ﴿ **لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ** ﴾ أى : لوكانوا مقيمين معنا و لم يخرجوا تحصيل الخير ما ماتوا وما قتلوا وهذه الآية حجة على أنهم كفروا بقضاء الله وقدره، إذ لا يقول لو كان كذا لكان كذا إلا جاهل بالقدر . (**لَوْ**) هذه بعد الوقوع باب من أبواب الشـــيطان، والمؤمن يعتقد أن الفاعل المختار هو الله تعالى، وما عليه عند نيل الخير إلا أن يقول : الحمد لله، وعند وقوع الشر إلا أن يقول : لا حول ولا قوة إلال بالله، ومتى قال مدعى الإسلام : لو كان كذا لفعلت كذا ؛ دل على جهلـــه بشـــعب الإيمـــان . والذين قالوا هذا الكلام هم عبد الله بن أبى بن سلول، وبعض المنافقين معه . وقوله تعالى : ﴿**لإِخوَانِهِمْ** ﴾ لأن القائلين هذا الكلام أظهروا الإسلام، وكانوا يصـــلون مع المسلمين، ويخفون الكفر فى صدورهم .

﴿ لِيَجعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أى : ليجعل الله تعالى هذا الكلام فى قلوبهم هما وغما فى الآخرة أولاً وبالذات عندما ينكشف الحجاب، فيظهر أهل الإيمان الذين جاهدوا فى سبيل الله فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، ويسحب أهل النفاق على وجوههم فى نار جهنم، ولديها تعظم الحسرة ولات حين مندم، وتكون الحسرة فى الدنيا بعد بيان الله تعالى هذا البيان ؛ الذى أخبرنا فيه أن الذين قتلوا يوم أحد لو لم يحضروا مع الجيش وتأخروا فى المدينة ؛ لقدر الله عليهم أن يخرجوا من بيوتهم ويبرزوا فى الصف فيقتلون، لأن الفاعل المختار هو الله تعالى، فهو المحيى وهو المميت جل جلاله . وفى هذه الآية من الهم والحزن والحسرة ما لا يوصف . وجائز أن تكون الحسرة بما يناله المسلمون من الظفر والنصرة وانتشار الإسلام كانتشار ضوء الشمس فى رابعة النهار .

﴿ وَٱللَّهُ يُحيِ وَيُمِيتُ ﴾ حجة لأهل الإيمان الذين جملهم الله باليقين الحق، وحجة قاطعة على أهل النفاق، وبرهان ساطع على تفريد الله بالإيجاد والإمداد والإيحياء والإماتة ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى : أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من عمل أهل الإيمان به، وعمل المنافقين والكافرين، فيحسن إلى عمل الخير مقتفيا أثر السلف، ويعذب من خالف الشريعة . وفى هذه الآية دليل على أن الله تعالى يبصر الحقائق بصراً يليق بكمال تنزيهه وعظمته .

قوله تعالى : وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

معنى هذه ألاية أن المنافقين فرحوا بفرارهم من الجيش، ففازوا بالحياة الدنيا فى نظرهم، وسلامة أموالهم وأولادهم، وبراحتهم من مواقف القتال التى لا يتحملها أهل النفاق . واعتقدوا أن إخوتهم الذين قتلوا حرموا من هذا الفضل، لأنهم فارقوا

الدنيا وتحملوا من الشدائد والآلام قبل القتل ما ر يطاق، وهم بفرارهم لم تصبهم الشدائد الفادحة، فشنع الله عليهم بأن الذين قتلوا فى سبيله فازوا بمغفرة الله وبرحمته، أى : بستره لذنبهم، وعطفه عليهم، وإحسانه إليهم فى البرزخ ؛ وفى الدار الآخرة .

﴿ **وَلَئن قُتِلتُمَ فِى سَبِيلِ آللهِ** ﴾ ففزتم بالشهادة ﴿ **أو مُتُّمْ** ﴾ فى سفركم لعمل الخير النافع للمسلمين ﴿ **لَمَغفِرَةٌ مِّنَ آللهِ وَرَحمَةٌ** ﴾ تفوزون بهما وهى﴿ **خَيرٌ مِّمَّا يَجمَعُونَ** ﴾ من الحرص على الصحة والعافية، ومن المال والأولاد والنساء، إذ لا مناسبة بين ما هو عَرَض زائل بوقع صاحبه فى السؤال يوم القيامة وفى شديد الحساب ؛ وبين ما هو فضل من الله وخير يتفضل الله به على أهل محبته، الذين بذلوا أنفسهم وأموالهم فى إعلاء كلمته ونصرة سنة نبيه . وعلى رواية الفعل المضارع ﴿**يَجْمَعُونَ**﴾ بالياء يكون لفظة (**خَيْرٌ**) وإن صيغت بمعنى اسم التفضيل، إلا أنها لا تدل عليه، لأن ما يجمعه أهل النفاق والكفر ليس فيه خير . وتكون مغفرة الله ورحمته خيرا حقيقيا لا خير سواه للكافر، وإن كان الفعل بالتاء والمخاطب هم أهل الإيمان تكون الخيرية بمعنى اسم التفضيل . لأن ما يجمعه المؤمنون هو حلال طيب، وينتفعون به فى زكاة وحج وبر وصلة، وتكون مغفرة الله ورحمته خيرا منه، بمعنى اسم التفصيل، واللام الداخلة على حرف الشرط والداخلة على ﴿ **مَغْفِرَةٌ** ﴾ الأولى للقسم، والثانية داخلة على جواب الشرط وهى لتأكيد الخبر، وما دخلت لام القسم على إن الشرطية ؛ إلا ودخلت على جوابها اللام .

قوله تعالى : وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

لما كان المجاهدون فى سبيل الله تتفاوت ومقاماتهم ــ وذلك بحسب مشاهد التوحيد ــ فمنهم من يجاهد ليفوز بالجنة، ومنهم من يجاهد ليفوز بالرضوان الأكبر، ومنهم من يجاهد فانيا عن وجوده وقلبُه معلق بالرفيق الأعلى متحققا بقول : لا حول ولا قوة إلا بالله، لا يشهد لنفسه عملا . قال تعالى :﴿ **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ آللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ آللهَ رَمَى** ﴾(١) وعبد يجاهد، يمزق جلده، ولا يرى لنفسه عملا استغراقا فى شهود معانى قدرة الله وحكمته ؛ ليس كمن يجاهد مثبتا لنفسه العمل والجهاد والقتل .

وهؤلاء الذين يخبرنا الله عنهم بقوله : ﴿ **وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ وهم أهل مشاهد التوحيد العالية . ولذلك افتتح الآية بـ (**مُّتُّمْ**) لأن الموت فى هذا المقام فوق درجة العقل، قال تعالى : ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى آلنَّاسِ** ﴾(٢) ولم يقل فى القبور . فهذا الموت الذى أعنيه بكلامى هو موت الإرادة لا موت عزرائيل، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (مُوتُوا قَبْلَ أَن تَمُوتُوا) ويسميه أهل العلم بالله الفناء أو الجمع . والقتل قد يكون بين الصفين وقد يكون على الفراش، لأن الله إذا أحب العبد جذبه إليه جذبة محبوب لمحبوب، فأفناه عن الدنيا والآخرة، وقد ورد فى الحديث : (مَنْ أَرَادَ أَن يَنْظُرَ إِلَى مَيِّتٍ يَمْشِى مَعَ آلأَحْيَاءِ فَلْيَنْظُرْ إِلى أَبِى بَكْرٍ) وهذا هو الموت الحق الذى من أماته الله به

---

(١) سورة الأنفال آية ١٧.

(٢) سورة الأنعام آية ١٢٢.

كان مستغرقا فى شهود وجه الله تعالى . قال تعالى : ﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ**﴾(١).

﴿ **لإِلَى الله تُحْشَرُونَ** ﴾ هذه الآية الشريفة راح طهور يدار على نفوس أهل التمكين، فإن المرجع قد يكون إلى الرب، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى**﴾(٢) للجزاء والحساب . أما قوله ﴿ **تُحْشَرُونَ** ﴾أى : يقبل الله بكم إليه على الرفارف عنايته، وبجواذب محبته، وشتان بين من يحشره العلى العظيم إلى حضرته العلية ليشهده ما لديه من جمال وجلال، ونور وضياء وبهاء وكمال ؛ وبين من يسوقه ربه إلى المحشر ليقف بين يدى ربه، فيحاسبه حسابا يسيرا، وينقلب إلى أهله فى رياض الجنة مسرورا، أو يحاسبه حساب الحكم العدل ثم يلقى فى جهنم محصورا .

قوله تعالى : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ** ﴾ ﴿ **مَا** ﴾ هنا صلة، والمعنى : فبرحمة جملك الله بها لتقوم الحجة لمن آمن وعلى من كفر، إكراما لأمتك الذين خصهم الله بأن تكون بهم الرءوف الرحيم، ورسولهم الكريم، وليفقد من كفروا بك العذر يوم القيامة، لأنهم إذا نظروا للرسل قبلك الذين كانوا يدعون على أممهم بالهلاك فى

---

(١) سورة البقرة آية ١١٥.

(٢) سورة العلق آية ٨.

الدنيا والآخرة ؛ وتذكروا ما قمت لهم به من عطف ورحمتة وحنان وحرص عليهم؛ تكون حسرقم أشد وأنكى . وبتلك الرحمة فازت أمتك بخير واسع . ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا** ﴾ فى قولك ﴿ **غَلِيظَ الْقَلْبِ** ﴾ أى : قاسى القلب عليهم ﴿ **لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ أى : تفرقوا .

وفى هذه الآية دليل على أن محمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾ بعثه الله رحمة للعالمين، لمن آمنوا ومن كفروا . أما لمن آمنوا : رحمة لما فازوا به فى الدنيا من عقد القلب على عقيدة التوحيد، ومِن إقامة الله إياهم فى محابه ومراضيه من العبادة الحقة، والمعاملة الحسنة، والأخلاق الجميلة، وبما تفضل الله به عليهم من تنفيذ الكلمة، وحسن الأحدوثة، والتمكين فى الأرض بالحق . أما الرحمة يوم القيامة : فبفوزهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . أما كونه ﴿ **ﷺ وآله**﴾ رحمة لأهل الكفر بالله : فى الدنيا فقط، فبدليل قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ** ﴾ (١) يعنى ليخسف بهم الأرض، أو ليسقط عليهم السماء، أو ليغرقهم، أو يحرقهم، وبما نالهم من الخير بسبب تعاليمه ووصاياه ﴿ **ﷺ وآله**﴾ ؛ التى جعلت أمته رحماء أهل عطف وحنان ــ حتى حال ذبح الذبيحة أو فى وقت الجهاد ــ وبتلك الرحمة التى منحها الله لجميع خلقه بسبب بعثة محمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾ ؛ فاز العالم أجمع بالخير العظيم بما فى الحقائق الكونية، فإن الناس قبله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ كانوا يعبدون البقر والأصنام والأنهار، ويقدسون أكثر الحقائق . فلما جاء رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ كشف الحجاب عن الحقائق للعقول، فانتفعت بكل تلك الحقائق الكونية، بعد أن كانت العقول تقدسها .

---

(١) سورة الأنفال آية ٣٣.

انظر إلى ما بلغه المجتمع الإنسانى من الرقى فى الصناعات، ومن إدراك خواص الحقائق الكونية والانتفاع بها ـــ مما يسمونه مدنية ـــ تر هذا الخير لم ينله أهل الكفر بالله تعالى فى أوربا، وأمريكا، واليابان، وغيرها إلى أن انتشرت تعاليم القرآن بينهم أيام كان المسلمون مسلمين يعلمون بروح الدين، فقد فتحوا الجنوب الغربى لأوربا إلى بحر المانش، واستقذروا شمال أوربا عندما سارت سفن المسلمين لغزو القسم الشمالى لأوربا، وقف ربان السفن وقالوا : ((أَنْكَلُشْ)) أى : رائحة سمك وبيء، وتذكروا قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (اتْرُكُوا آلأَنْكَلُش فَإِنَّهُ وَبِيُءٌ) فرجع الصحابة رضوان الله عليهم محافظة على صحتهم، فلما تركنا الدين وراء ظهورنا أصبح سكان البلاد الموبوءة أصحاب السلطة والقوة علينا . وصدق أبو هريرة فى حديثه وهو قوله : ﴿**إِنَّمَا يَسْعَدُ آخِرُ هَذِهِ الأُمَّةِ بِما سَعِدَ بِهِ أَوَّلُهَا** ﴾ وإنما يفوز بقسط من تلك الرحمة المحمدية أهل الإِيمان الكامل، والعاملون بكتاب الله وسنة رسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ . أسأل الله تعالى أن يعيد لنا هذا المجد، وأن يتفضل علينا بالرجوع إلى ما كان عليه سلفنا الصالح .

وهذه الآية أنزلها الله تعالى فى شأن أهل الإِيمان الذين حدثت منهم الأحداث فى وقعة أحد، ففارقوا مواقفهم التى أوقفهم فيها ﴿ ﷺ وآله﴾، وكان ما كان مما تقدم، وطهرهم الله بما ابتلاهم به من قتل كثير منهم، ومن هزيمتهم، وبما منّ به عليهم بأن جعلهم من أمة حبيبه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾ ؛ الذى هو رحمة للعالمين، وأمان للأميين، فكان ما جمله الله به عليه الصلاة والسلام ؛ نعمة الله العظمى لنا، حيث حفظنا الله من التفرقة بعد وقوعنا فى معصية الأمر الذى لا تطيقه الرسل السابقون، ومع هذا فإنه عليه الصلاة والسلام يعفو ويستغفر لنا ويقبلنا قبولا يشعر بأنا أحسنَّا . فجزاه الله عنا خير جزاء جازى به أُولُو العزم من الرسل .

﴿ **فَاعْفُ عَنْهُمْ** ﴾ أى : فتجاوز عن سيئاتهم التى ارتكبوها بما فطرك الله عليه من جميل الأخلاق . قال سبحانه : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾(١) ﴿ **وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾ واطلب من الله لهم المغفرة، أى : الستر لذنوبهم التى ارتكبوها فى غزوة أحد ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ ثم أكرم الله الصحابة وأمر حبيبه ﴿ **ﷺ وآله**﴾ أن ينزلهم منه منزلة الحكماء العلماء الممنوحين فصل الخطاب ونور الإلهام بقوله : ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ .

وكلنا نعلم أن رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ لا ينطق عن الهوى، وأن الله تعالى خلقه من نور جماله، وأقامه مقام نفسه فى آيات كثيرة من القرآن، لم يقم أحداً من الرسل هذا المقام .

قال تعالى : ﴿ **مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّه** ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ** ﴾(٣) . وغير ذلك من الآيات التى سنتكلم عنها فى مواضعها، فأمر الله تعالى حبيبه ﴿ **ﷺ وآله**﴾ بمشاورة الصحابة فى الأمر، تفضلا منه سبحانه، ليرفع شأنهم لديه تعالى، ولينزلهم منازل الرسل الكرام، وليكمل لنا ديننا كمالاً ننال به الفوز بحقيقة التوحيد، فإن مشاورة رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ ليكمل يقيننا أنه أكمل عند لله، وبذلك يحفظنا سبحانه مما وقعت فيه الأمم السابقة الذين جعلوا عُزَيراً : ابن الله، والمسيح : ابن الله سبحانه، أو جعلوه ربًّا . ففى الآية

---

(١) سورة القلم آية ٤.

(٢) سورة النساء آية ٨٠.

(٣) سورة الفتح آية ١٠.

كمال العناية من الله بنا، حيث حصننا من الغلو فى معرفة مقام حبيبه، ففى أمره ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يشاورنا فى الأمر كمال لمقامه المحمدى، وتشريف لنا حيث يعصمنا جل جلاله من التطرف كما وقع للأمم السابقين، كما قدمت لك .

﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ** ﴾ أى : فإذا أجمعتم أمركم بعد المشورة على تنفيذ ما ألهمكم الله تعالى من العمل فى مرضاته سبحانه . ﴿ **فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ** ﴾ أى : ففوض أمورك جميعها لله، ومراعياً حقيقة التوحيد فى إقدامك على العمل أو تركه ؛ فإن رعاية مشاهد التوحيد فى القيام بالأحداث التى تدعو إليها الحاجة فى إعلاء كلمة الله تعالى ونشر دينه، مما يجعل القائمين بها فى عصمة الله تعالى، وفى حصونه المنيعة، لا يحدث منهم حدث إلا وهو فى محاب الله ومراضيه .

وفى قوله تعالى : ﴿ **فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ** ﴾ أى : أقبل واثقاً بعنايته وتوفيقه، وبالظفر بالمقصد . لأن المتوكل على الله تعالى بحسب يقينه قد يكون عند ربه، وقد يكون لديه، وقد يكون مع الله تعالى، وأعلى من ذلك : أن يكون الله تعالى معه، وهذا هو خير ما تسارع إليه المقربين إلى الله تعالى . فإذا قدّر الله تعالى نصرهم وفوزهم بطلبتهم ؛ كان عاجل فضل الله فى الدنيا لهم، وعلى هذا فيكون الشهيد فاز بخير مقاصده . ومقام التوكل قد شرحته فى كتاب : (أصول الوصول) وفى غيره من الكتب⁽¹⁾ فراجعه إن شئت التفصيل .

﴿ **إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ . افتتح هذه الآية الشريفة بأداة التوكيد لتقوية الخبر، وأتى باسم الذات تقدس وتعالى إشارة إلى أن أهل مقام التوكل أفراد ذاتيون، أقامهم الله تعالى له، فتفضل عليهم بالحب الإلهى الذى هو فوق مقام عليين حيث

---

(١) تطلب جميع مؤلفات الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم رضى الله عنه من مكتبة دار المدينة المنورة ١١٤ ش مجلس الشعب ــــ القاهرة .

الأعلون . وقد بينت فيما سبق معنى محبة الله للعبد، وأقمت الحجة عليها بعد أن أنكرها من حُرِمها ممن يدعون العلم، وما أحبَّ الله عبداً إلا وقد أحسن إليه بأن جعله ممن يحبون الله تعالى، قال سبحانه : ﴿ **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه** ﴾(١) وكل من أحب الله تعالى فإن الله تعالى يُحِبه، ومتى أخبر الله عن محبوبيته وجب أن نعتقد أنه يحب الله، وقوله سبحانه : ﴿ **إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ دليل على أن المتوكل تجمل بمعانى صفاته سبحانه ؛ فأحب الله تعالى صفاته فيه، وهو المحبوب جل جلاله والمحب سبحانه .

قوله تعالى : إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

هذه الآية مزيد جذبة لقلوب أهل الإيمان الذين أقامهم الله للجهاد فى سبيله، وهى متصلة بغزوة بدر بعد ما حدث فيها ما حدث مما بينه الله فى الآيات السابقة، وفيها تشجيع للمسلمين على الجهاد لأن الله تعالى وعدنا وعد الحق بقوله : ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُم** ﴾(٢) . وكل فئة من المسلمين أعدوا أنفسهم لإعلاء الكلمة؛ فإنهم بذلك يكونوا من أنصار الله تعالى . وصدق الله فى وعده .

ومعنى هذه الآية حيث بين لنا أنه جل جلاله ينصرنا إذا نصرناه، وأنه إذا نصرنا سبحانه ثَبَتَ لدينا أن مَن على وجه الأرض لو اجتمعوا علينا قهرهم الله، وأخزاهم وأذلهم، وجعل لنا الغلبة عليهم، ومتى كمل يقين المسلم تضاءلت أمامه قوى العالم

---

(١) سورة المائدة آية ٥٤.

(٢)سورة محمد آية ٧.

. وفى هذه الآية كشف لأسرار التوحيد الذى يزيد به الإيمان، والأصل فى ذلك النية . قال تعالى : ﴿ **فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـبَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً** ﴾(١) وقال ﴿ **ﷺ وآله** ﴾ : (إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى).

﴿ **فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ** ﴾ معنى ذلك أن الله تعالى إذا نصر أهل طاعته الذين يحافظون على أوامر نبيه ﴿ **ﷺ وآله** ﴾، محافظة لا يشوبها تأويل يدعو إليه حظ أو هوى أو طمع، فإن نصرة الله لهم تجعلهم يقهرون أعداء الله وأعداءهم ولو حاربهم كل الخلق وكانوا هم فى قِلٍّ، وغزوة بدر حجة قائمة على نصرة الله لرسوله ﴿ **ﷺ وآله** ﴾ ولمن كانوا معه، قال تعالى : ﴿ **وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ** ﴾(٢) ﴿ **وَإِن يَخْذُلْكُمْ** ﴾ أى : وإن يذلكم ويقهركم بالأعداء كما وقع فى غزوة أحد بعد أن فارق الرماة مواقفهم مخالفة لأمر رسول الله ﴿ **ﷺ وآله** ﴾ ـــ طمعاً فى الغنيمة ـــ وتأولوا الأمر الصريح الذى لا يتأوله إلا طامع فى متاع الدنيا ﴿ **فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ** ﴾ أى : من بعد أن يخذلكم القوى القادر، الذى بيده ملكوت كل شىء . وفى هذه الآية حجة على أن المؤمن الكامل الإيمان ينفذ الأمر الصريح مهما تحمل فى سبيله من المشاق، وفقد من الخيرات، طمعاً فيما عند الله وتوكلاً عليه، فلا يتأول الأمر الصريح مؤمن ذاق حلاوة الإيمان، ولكن الله بالناس رءوف رحيم فعفا عنهم وغفر لهم .

وهذه الآية هى ميزان الأحوال، لأن الحال هو الحجة القائمة على صدق الدعوى أو على كذبها .

---

(١)سورة الفتح آية ١٨.

(٢)سورة الحديد آية ٢٥.

﴿ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾هذه الآية الشريفة شراب طهور يحيى أرواح أهل الإِيمان فيسارعون إلى التوكل على الله، خصوصا عند قيامهم بنصرة الله وإعلاء كلمته، وفى كل موطن من المواطن التى تدعونا فيه الشريعة للقيام بالأعمال الواجبة: من جهاد، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو عبادة، أو صلة، أو إصلاح بين الناس، ومرغب فيه : كالإِحسان إلى المسىء، والعفو عن الظالم، وصلة القاطع، والشفقة على جميع خلق الله تعالى . سبق بيان مقام التوكل فى كتبنا السابقة .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ نفى الله حصول الغلول من الأنبياء . والغلول : هو الخيانة، كما أن الغل هو ما يجد الإنسان فى صدره من الحسد والبغضاء . وانتقاء الغلول عن الأنبياء لأن الله تعالى عصمهم، لأنهم هم المبلغون عنه شرائعه للناس، وقد توعد الله تعالى أهل الخيانة بالحساب عليها، والأنبياء شهود على أممهم، فانتفى حصول الغلول منهم . وقد قرأ بعض القراء هذه الآية بفتح الياء وضم الغين، وجعل سبب نزولها ؛ أنه تأخر تقسيم غنائم حُنَيْن لمانع، فجاء قوم وقالوا : يا رسول الله، ألا تقسم غنائمنا ؟ فقال علية الصلاة والسلام : (لَوْ كَانَ لَكُم مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَباً مَا حَبَسْتُ عَنكُم مِنْه دِرْهَماً أَتَحْسَبُونَ أَنّى أغُلُّكُم مَغْنَمَكُمْ) . وورد أيضاً أن الله تعالى لما ذم آلهة المشركين وعوائدهم من وأد البنات وغير ذلك ؛ طلب المشركون من رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أن يترك ذلك، فأنزل الله هذه الآية . أى : ما كان لنبى أن يخون فيما أوحاه الله إليه . وقيل : إنه ضاعت قطيفة حمراء فى غزوة

بدر، فظن بعض الجهلاء أن النبى ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أخذها، فنزلت الآية . وقرأها بعضهم بضم الياء وفتح الغين .

سبب نزولها : أن أشراف الناس طلبوا من رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أن يخصهم بشىء من الغنائم، وأن الرماة فى يوم أحد تركوا مواقفهم طمعاً فى الغنيمة خوفاً من أن رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ يقول : من نال شيئا فهو له وليس له فى الغنيمة، كما حصل فى بدر، فنزلت الآية . وهذه الآية حجة على كمال عصمة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وبراءته من الغلول فى الغنائم وغيرها ــ وإن كان الغلول هنا خاصا بالغنائم ــ وكيف لا ؟! وأهل الإيمان بالله يتخلقون بأخلاقه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ليحفظهم الله من الغلول، بل يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، قال تعالى : ﴿ **وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾ (١) ﴿ **وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ المعنى أن الله تعالى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، فإذا أوقف من غل فى الدنيا بين يديه يوم القيامة حاسبه على غلوله بعد كشف الستر عنه أمام الحشر، فكانت الفضيحة فى هذا الوقت فوق عذاب جهنم . وهذه الآية تهديد من الله تعالى، ووعيده لعصاة المسلمين . وإنما ذكرها الله تعالى هنا ليبين لنا مكانة النبوة من الترفع عن الوقوع فى معاصى الله التى يقع فيها من لم يعصمهم سبحانه .

﴿ **ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ** ﴾ أتى بـ ﴿ **ثُمَّ**﴾فى هذه الآية التى تفيد البعد بالنسبة لما تعلمه النفوس لغفلتها عن مراقبة ذلك اليوم، أما الحقيقة فذلك اليوم ليس ببعيد بحسب علم الله تعالى، فإن القيامة تقوم على كل إنسان يوم موته، قال ﴿ ﷺ **وآله**﴾ : (مَن مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ) وعلى هذا فالإنسان عند

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨٥.

موته يشهد فى برزخه ما قدر له أزلاً من نعيم مقيم أو انتقام، وإن لم يباشر النعيم والعذاب .

﴿**تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ**﴾ أى : يوفى الله كل نفس، أى : يعطيها جزاء أعمالها تامة ﴿**مَّا كَسَبَتْ**﴾ أى : ما وقع منها من أعمال الخير أو أعمال الشر لا ينقص من جزائها شىء، وأما ما سبق لها فى الأزل من أحسان إلى النفوس التى صاغها من نور،و ذلك كسابقية الحسنى بالإسلام، والإيمان ،والإيقان، والنور، والعرفان، وبالفرار من الكونين إلى الله تعالى، وبما فوق ذلك من عطايا الله تعالى ؛ فذلك ليس بكسب وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ﴿ **وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ** ﴾ نفى الله تعالى الظلم منه على عباده لا ستحالة وقوعه عقلا ونقلا .

أما عقلا : فلأن الكون وما فيه مخلوق لله مملوك له سبحانه، والظلم تصرف غير المالك، فلا ظلم، ولأن الله تعالى خلق الكون غير محتاج إليه فكان إيجاده وإمداده رحمة منه وفضلا، ومن سبقت رحمتهُ غضبَه ؛ استحال عليه الظلم .

وأما نقلا : فقد وردت الآيات الشريفة دالة على نفى الظلم عنه سبحانه وهو الحكم العدل .

والواو فى قوله : ﴿ **وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ** ﴾ للحال، والمعنى : والحال أنهم غير مظلومين فلا يزيد فى عقوبتهم عن القدر الذى يستحقونه، ولا ينقص من أجورهم التى يستحقونها بأعمالهم شىء بل قد يتفضل الله عليهم . ونَفْىُ الظلمِ عنه جل جلاله يقتضى عدم جواز الظلم عليه تعالى، لأن الظالم من تصرف فى ملك غيره، ولا ملك لغيره سبحانه . وهذه الآية الشريفة تأكيدٌ لخبر الله تعالى عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أنهم لا يغلون، لأنهم عليهم الصلاة والسلام عصمهم الله تعالى من الوقوع فيما يقتضى الحساب الموجب للعقوبة، بل وعصمهم جل جلاله من أن

يشهدوا لأنفسهم كسباً، لأنهم أكمل الناس توحيداً وعلما بتفريد الله تعالى بالإِيجاد والإِمداد من غير شريك ولا مثيل .

قوله تعالى : أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللّهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾

الهمزة هذه للإِنكار، والفاء لعطف الجملة بعدها على جملة محذوفة ملحوظة، والتقدير : أفمن اتقى الله فاتبع رضوانه بمسارعته إلى عمل ما يحبه ويرضاه من ترك الغلول وغيره ؛ وعمل الطاعات التى أمر الله تعالى ؛ كمن خالف الله تعالى مخالفة بَاءَ بها بغضب من الله تعالى ؟ وهذه الآية سبب نزولها خاص وحكمها عام، لأن سبب قوله : ﴿ **رِضْوَانَ اللّهِ** ﴾ أى : بترك الغلول، و : ﴿ **بِسَخْطٍ مِّنَ اللّهِ** ﴾ أى: بعمل الغلول . ولكنها عامة فى كل ما ينيل العُمَّالَ رضوان الله، وما ينيل المنافقين سَخَطَ الله وغضبه . وكل من سارع فى القيام بمقتضى الوقت بحسب أنواع القربات ؛ فاز برضوان الله تعالى . وكل من خالف الله فعمل بغير ما أمر به سبحانه استحق الغضب والمقت . حفظنا الله من موجبات مقته وغضبه .

﴿ **وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ** ﴾ أى : ومأوى من خالف الله بترك عمل ما أمره به وفعل ما نهاه عنه فباء بغضب من الله ﴿ **جَهَنَّمُ** ﴾ والواو فى ﴿ **وَمَأْوَاهُ** ﴾ دليل على أن غضب الله غير ﴿ **وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ** ﴾ ويكون غضب الله فوق جهنم فى الشدة، والذى فهمتُه أنه الحرمان من الإِيمان ومن فروعه وهى : الاستقامة، والصبر، والرضا، والتوكل، والتوبة، وحسن الثقة بالله، والمراقبة، والفكر فى آلاء الله، وغير ذلك من جنة الرضوان العاجلة، وهذا الحرمان هو غضب الله تعالى . أما الخلود فى النار فإنه يكون يوم القيامة، حيث لا ينتفع المؤمن بتلك الخيرات التى حرمها فى الدنيا ـــ ولو نالها ـــ فإن الكافر يوم القيامة تنكشف له الحقائق فيكون موقنا كامل الإِيقان،

ولكنه لا ينتفع بالإيمان إلا إذا عمل به فى تلك الدار الدنيا قبل كشف الحقائق، لتقوم الحجة له أن الله منحه نفسا طيبة مؤمنة قابلة للتلقى عن الله، ولكن بعد كشف الحقائق فإن نفسا لا ينفعها إيمانها لم تكن آمنت من قبل . وقد قيل لفرعون عند غرقه : ﴿ ءَآلئَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾(١). ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : بئس المرجع والمآب والمأوى .

قوله تعالى : هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللّهِ واللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾

الضمير إما أن يكون راجعا إلى مَن فى قوله : ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللّهِ ﴾ ويكون المعنى : أن الذين اتبعوا رضوان الله درجات عند الله بحسب حقائقهم، وأن نفوس من سبقت لهم الحسنى تتفاوت ؛ فمنها نفوس خلقت من النور الذى خلقت منه الأنبياء، ومنها نفوس خلقت من الصفاء، ومنها نفوس خلقت من جواهر عالية، وغيرها، فيكونون درجات عند الله تعالى . وإن رجع الضمير إلى (**مَن**) فى قوله تعالى : ﴿ **كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ آللّه** ﴾ وتكون نفوسهم متفاوتة، فمنها نفوس خلقت من الظلمة، ومنها نفوس خلقت من النار، ومنها نفوس خلقت من أردأ جواهر النفوس، وتكون درجات أهل الرضا من الجنة إلى مقعد صدق، وتكون دركات أهل الغضب من جهنم إلى لظى ؛ حفظنا الله وإخوتنا المؤمنين . وإن عاد الضمير إلى كل منهما ؛ كان المعنى : ﴿ **هُمْ دَرَجَاتٌ** ﴾ أى : لهم درجات . ولما كانت لفظة درجات لا تكون إلا لأهل الرضوان ؛ كان مرجع الضمير إلى قوله

---

(١) سورة يونس آية ٩١.

تعالى : ﴿ **أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللّهِ** ﴾ أقرب، لأن لأهل الكفر بالله لفظة : **(دركات)** فى مقابل : ﴿ **دَرَجَاتٌ** ﴾ عند المؤمنين .

﴿ **واللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** ﴾ أى : والله ذو علم بأعمالهم الباطنة والظاهرة، فلا يخفى عليه شيء منها، فيتفضل على أهل محبته سبحانه بما هو أهل له من نعيم مقيم، وفضل عظيم . ويجازى أهل الكفر به بما يستحقونه عدلاً منه سبحانه .

قوله تعالى : لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾ المنان هو الذى يتفضل بجميل الإحسان من غير أن يحوج من تفضل عليه إلى دعاء ولا معاوضة . والمنُّ : هو ما يسقط على أوراق النباتات . ويكون للفخر والشهرة، وهو الذى يبطل العمل فى قوله تعالى : ﴿ **لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى** ﴾(١) . وقد يأتى بمعنى القطع كما قال تعالى : ﴿ **لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾(٢) أى : غير مقطوع. وقد يكون بمعنى الإحسان من غير مبادلة . وهنا يؤكد الله تعالى أنه تفضل علينا بجميل الإحسان، وهو بعثة حبيبه ومصطفاه ﴿ **ﷺ وآلـه**﴾ فينا لنجاتنا وإرشادنا، ولسعادتنا فى الدنيا والآخرة بما تفضل الله به علينا من النعم ؛ التى بها كمال أرواحنا وأشباحنا، وطهرة أنفسنا، وتثقيف عقولنا، وعمارة قلوبنا بتوحيد الله، والإيمان واليقين بما جاءنا به ﴿ **ﷺ وآله**﴾ مما بينه الله تعالى بقوله : ﴿ **يَتْلُو**

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٤.

(٢) سورة فصلت آية ٨.

عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ الآية . يعنى أنه تنزه وتعالى بعث فينا رسولاً من أنفسنا، ليكون ذلك أدعى لقبول ما جاءنا به من عند الله، لاتحاده بنا ﴿ ﷺ **وآله**﴾ نسبا، ووطنا، ولغة، فيكون لنا بسبب ذلك الفوز بالسعادتين، والشرف العظيم بتأييدنا له بعد قبولنا نصرة الله تعالى، ونكون سببا فى نيل ذريتنا من بعدنا العز والتمكين فى الأرض بالحق، والخيرات فى الدنيا، والنعيم المقيم يوم القيامة .

﴿ **يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ** ﴾ أى : يسمعهم كلام الله تعالى الذى أنزله عليه إحساناً منه إلينا . ﴿ **وَيُزَكِّيهِمْ** ﴾ أى : يطهرهم من خبث طباعهم ونجاسات أنفسهم، ليفوزوا بعد الطهارة بقبول النور والهدى والعلم . ﴿ **وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ** ﴾ أى : يبين لهم معانى ظاهر القرآن المجيد المتعلقة بالأحكام والآداب والعبرة والسير . ﴿ **وَالْحِكْمَةَ** ﴾ أى : ما يتعلق بأسرار التوحيد، وبغيب الآيات فى الكائنات، وبحكمة الأحكام، وحكمة الإيجاد والإمداد . تلك الحقائق الأربعة التى هى : تلاوة الكتاب، وتزكية نفوسهم، وتعليم الكتاب، وتعليم الحكمة ؛ هى المعانى التى بها كمال الروح والجسم، وجمال المجتمع الإنسانى حتى يكون الإنسان عبداً لله تعالى، عاملاً فى محابه ومراضيه . ويبلغ درجة من الكمال حتى يكون الإنسان أخا للإنسان كما قال ﴿ ﷺ **وآله**﴾: ﴿ **الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ** ﴾ الحديث . وتلك الكاملات تفضل الله بها علينا أمة محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ خاصة، وبها أكمل الله علينا ديننا الذى ارتضاه لنا، وأتم علينا نعمته . ﴿ **وَإِن كَانُواْ** ﴾ أى : وإن كان العرب وغيرهم، وإن كان المراد بخبر الله هم العرب ﴿ **مِن قَبْلُ** ﴾ أى : من قبل بعثة رسوله محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بما جاء به من النور والهدى ﴿ **لَفِى ضَلَلٍ** ﴾ أى : لفى عمى وهلاك وقطيعة عن الله وكفر به ﴿ **مُّبِينٍ** ﴾ أى : ظاهر جلى لا تقبله العقول، ولا تهش له

القلوب وتبش، ولكنها الأهواء ــ والهوى أخو العمى ــ وتقليد الآباء والجهلاء من غير بصيرة .

قوله تعالى : أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

﴿ **أَو لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ** ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكارى، والمعصية ما حصل فى غزوة أحد من قتل المشركين سبعين رجلاً من الصحابة، منهم سيد الشهداء يوم القيامة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه . ﴿ **قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا** ﴾ أى : فى بدر حيث قتلتم سبعين وأسرتم سبعين ﴿ **قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا** ﴾ وبعد وقوع تلك الحادثة المؤلمة فتح المنافقون باب الفتنة، فنشروا ما لا يرضى من القول، فقالوا : نبى يعلم الغيب، وينصر ربه، ويحكم أن القوم كفار ويُنصرون عليه ؟ فأحب الصحابة أن يعلموا الحكمة من الله فى هزيمتهم فقالوا : ﴿ **أَنَّى هَذَا** ﴾ تعجبا مما حصل لجهلهم الحكمة فى ذلك، فبينها الله طمأنينة لقلوبهم بقوله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ** ﴾ ردَّ الله تعالى عليهم مبينا لهم أن مصائب غزوة أُحُد سببها فى أنفسهم .

وهنا يجدر أن نكشف للعقول حقيقة تسكن بها النفوس إلى الله تعالى : معلوم أن كمال مشاهد التوحيد ؛ هو كمال يقين العبد بأن الله تعالى خلق العبد وخلق أفعاله، ولكنه سبحانه وضع الأسباب ليتعرف بها إلى العقول، وهو الذى خلق الأسباب وخلق الخلق وخلق أفعالهم، فقوله تعالى : ﴿ **هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ** ﴾ ليس دليلا على أن العبد يخلق أفعاله، بما ورد من الآيات الدالات على تفريد الله تعالى بالإيجاد والإمداد، وما قررته العقول من حدوث الكون، وأن الذى أحدثه

قدّر ما به كماله فى وجوده، قال تعالى : ﴿ **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾(١) والذي هو عند أنفسهم هو الحظ والهوى ؛ الذى بسببه أخذوا الفدية من أسرى بدر بعد أن طلب منهم رسول الله قتلهم فقالوا : قومنا وعشائرنا نفديهم وننتفع بفديتهم . فقال لهم ﴿ **ﷺ وآله**﴾ : (إِنْ قَبِلْتُم مِنْهُمُ الفِدْيَةَ يُقْتَلُ بعددِهِمْ) فقالوا: نقبل الفدية ونرضى أن يستشهد منا سبعون . وبالطمع يوم أُحُد حين خالف الرماة أمره عليه الصلاة والسلام وأسرعوا إلى الغنيمة، وحين خالفوا رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ عند خروجه إلى أُحُد بعد أمره لهم أن يقيموا بالمدينة ويلقوا العدو فيها فأبوا إلا الخروج، ومن فشلهم بالفرار من الميدان . كل تلك السيئات كانت سببا لظهور تقدير الله تعالى مصائب يوم أُحُد لتطهير الصحابة، ولتشرق عليهم ساطعة أنوار من التوحيد، فيؤمنوا بالله إيمانا لا تشوبه علة ولا غرض، ولا يُمازجه اعتقاد أن الله سبحانه ينتفع بعقيدتهم أو بجهادهم، أو أنه سبحانه يغير ما قدره أزلاً بسبب صلاة أو صيام أو جهاد أو صدقة . وهذا من كمال رحمة الله بنا جماعة المسلمين . فثبت أن قوله تعالى : ﴿ **مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ** ﴾ ليس المراد بها أنكم تخلقون أعمالكم، وأنكم أنتم الذين خلقتم أعمال المخالفة، لا . ولكن الله جعل ذلك سببا ليظهر ما قدره أزلاً، فيكمل إيمان أهل الإيمان، ويرتاب أهل النفاق، والله سبحانه لا تنفعه طاعتنا، ولا تضره معاصينا لأنه هو النافع الضار .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ افتتح الآية بأداة التوكيد يقظة للقلوب لتلقى ما بعدها بحرص ونشاط، فقوله : ﴿ **عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ أى : أنه لا يعجزه شيء، فهو القادر على أن ينصر أولياءه على أعدائه، ويخذل أعداءه، والقادر سبحانه على أن يغفر ويعفو عن المذنبين من أهل دينه، والقادر سبحانه على أن

---

(١) سورة النمل آية ٨٨.

يظهر أحبابه بابتلائهم فى الجهاد بنيل عدوهم منهم، ليرجعهم إلى الله، ويطهرهم من الغرور، وليرفع درجاهم لديه سبحانه، فلا يعجزه شيء .

قوله تعالى : وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ

﴿١٦٦﴾

﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ** ﴾ أثبت سبحانه أن الذى أصاب المؤمنين فى غزوة أحد له سبب ظاهر وسبب باطن، فإما السبب الظاهر فهو قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ** ﴾ وأما السبب الثانى فقوله تعالى : ﴿ **فَبِإِذْنِ اللّهِ** ﴾ لحكمة تميز المؤمنين عن الكافرين تمييزاً يجعل كل نوع عالما بالآخرة، وهذه الآية وما قبلها مرتبطان تمام الارتباط . ولما كانت (**مَا**) التى هى هنا بمعنى ﴿**الذي** ﴾ فيها معنى الجزاء، اتصلت الفاء بجوابها، و ﴿ **يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ** ﴾ أى : يوم لقى جيش رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ جيش قريش فوق أُحُد ﴿ **فَبِإِذْنِ اللّهِ** ﴾ أى : بتقدير الله وحسن تدبيره للصحابة، فإنه سبحانه وتعالى كشف لهم الستار عن حقيقة المنافقين، حتى قامت الحجة على كفرهم ونفاقهم قبل التقاء الجمعين، ثم محّص أهل الإيمان يوم التقى الجمعان، فطهر من ارتكبوا خطايا مخالفة الأمر ومخالفة الشورى وغيرها . ﴿ **وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أى : ليعلم الله المؤمنين، والمعنى : ليظهرهم بما يجملهم به من اليقين الحق، والصبر عند الشدائد، والرضا بقدر الله تعالى . وقد تقدم بيان معنى هذه الآية خصوصا فى بيان معنى : ﴿ **وَلِيَعلَمَ آللَّهُ** ﴾ . وتفصيل قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ** ﴾ الخ . أن الذى أصابهم هو قتل سبعين سيداً من سادات الصحابة، وحصول الهزيمة، ومفارقة الرماة

.

قوله تعالى : وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

﴿ **وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ** ﴾ أى : وليعلم الله الذين نافقوا بما أظهروه من قلوبهم بعد أن أخفوه عن المؤمنين، فصاروا معروفين لا يجهلهم مؤمن . ﴿ **وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ** ﴾ وهؤلاء هم عبد الله بن عمر بن خزام لأخو بنى سلمة، وعبدالله أبو جابر بن عبد الله الأنصارى، قيل لهم : لهم تعالوا قاتلوا معنا أعداء الله وأعداء رسوله ﴿ **أَوِ ادْفَعُواْ** ﴾ أى : اتصلوا بنا لتحصل الكثرة المفزعة لقريش فتدفعوا عنا شرهم، فخدعوا المسلمين بقولهم : ﴿ **لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ** ﴾ ومعنى ذلك أنهم يريدون أن يرتدوا عن رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فيظهرون ما ليس فى قلوبهم بقولهم : ﴿ **لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ** ﴾ أى : أنه لا يقع قتال بينكم، وهم معتقدون وقوع القتال حتما . ورجع عبدالله بن أبى بن سلول وهو يقول : أطاعهم وخالفنى، يشير إليه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أنه كان يريد أن يكون القتال فى المدينة، وهو يعلم أن الأنصار فى الجاهلية كانوا يكرهون الغزو فيها، فكيف يحبونه فى الإسلام ؟ وكان يرى هذا الرأى ليخالفه الصحابة فيتعلل بمخالفتهم كما فعل . ﴿ **وَأَنَّ اللّـهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ**﴾(١) .

﴿ **هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ** ﴾ معنى هذه الآية أن عبدالله بن أبى ابن سلول ومن معه عندما أظهروا الإيمان بقولهم : ﴿ **لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ** ﴾ أى : لو نعلم وقوع قتال بينكم وبينهم لاتبعناكم، وهذا الكلام ظاهره يدل على حسن

---

(١) سورة يوسف آية ٥٢.

النية، ولكنه كشف لنا حقيقة كفرهم، وأنهم فى الحقيقة أعداء الله ورسوله والمؤمنين . وفى قول المنافقين : ﴿ **لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ** ﴾ لو كان على ظاهره لكان حجة على كفرهم، لأن العدو قرب من المدينة جدا، فكيف يظن ظان أن جيشا عدده خمسة آلاف فارس بأحباشه ولوازمه يحضر من مكة للمدينة لا يريد قتالاً ؟ هذا مستحيل، وبقولهم هذا تحقق الصحابةُ كفرَهم، وإن كانوا لا يجهلون ذلك من قبل . وإن كان المنافقون يقولون هذا القول بمعنى أنهم لا يعلمون أن هذا القتال قتال نافع، يكون ذلك كفراً أيضا، لأنهم كذّبوا الله ورسوله . وجائز أن يكون معنى قوله تعالى : ﴿ **هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ** ﴾ أى : أنهم أقرب على نصرة أهل الكفر من نصرتهم لأهل الإيمان . وجائز أن يكون المعنى أنهم قربوا من الكفر فوقعوا فيه وبعدوا عن الإيمان .

وهنا إشارة لطيفة : وهى أن الله تعالى لم يحكم بالكفر على من يقول : لا إله إلا الله بلسانه ــ وإن عقد قلبه على الكفر ــ تعظيما لكلمة التوحيد، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ** ﴾ ولم يقل : هم الكفار يؤمئذ .

﴿ **يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾ هذه الآية خبر من الله تعالى عن المنافقين، ليعلمنا ما لم نكن نعلم . فإنه تعالى يعلم السر وأخفى، ونحن لا نعلم إلا الجهر . وفى هذه الآية حكم من الله تعالى عليهم بالكفر، وتعليم من الله تعالى لنا فى أن نحتاط لأنفسنا، ونتبين أحوال بحكمة، حتى تنكشف لنا الحقيقة فنسلم من شرورهم وسوء نواياهم . وذلك لأن أهل الإيمان يحكمون على الناس بما يشهدونه فى أنفسهم من حب الله سبحانه وتعالى ورسوله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، ومن الصدق وكمال الإخلاص فى معاملة الله تعالى، فيخدعهم أهل النفاق، وهم بسلامة قلوبهم ينخدعون، قال ﴿ **ﷺ وآله**﴾ : (ٱلْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ يُخْدَعُ، وَٱلْمُنَافِقُ خِبٌّ لَئِيمٌ لاَ

يُخْدع) وما على المؤمن إذا سمع قولا إلا أن يتبينه بعقله، أو بالبحث عنه من الناس. ﴿ **وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ** ﴾ والمعنى أن الله تعالى يعلم ما تخفونه عنا من النفاق والكفر، وما يكتمونه من سوء النية، علما فوق علمهم هم بما يكتمونه، لأن الله يعلم المكتوم ويعلم سببه نتائجه، لأنه هو الذى قدّر ذلك، وأقامهم فيه، وهم لا يعلمون شيئا منه إلا قصد أذية المسلمين من غير أن يضر المنافقين شيء .

قوله تعالى : الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

﴿ **الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا** ﴾ هذه الآية بيان من الله لنا أنه سبحانه إذا منح العبدَ الهداية، وفقه للقيام كل أنواع القربات . وإذا أضل سبحانه العبدَ وقع فى كل أنواع الكبائر والخطايا والرذائل، ودليل ذلك قوله تعالى فى هذه الآية خبراً عن عبدالله بن أبى بن سلول وأصحابه الذين ارتدوا إلى المدينة أنهم اعتذروا أولاً بقولهم: ﴿ **لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ** ﴾ ثم بعد أن وقع القتل فى الصحابة يوم أحد قاموا ليدخلوا الشك والريبة فى قلوب الصحابة من الأنصار، وليست الثانية بأقل من الأولى، فإن قولهم لإِخوانهم من الأنصار : ﴿ **لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا** ﴾ فتنة كبرى توقع فى الضلال . ولولا عناية الله بأهل الإيمان من الأنصار لوقعوا فى الشك والريب المؤدين إلى الشرك، ولكن الله بعباده رءوف رحيم . وكم لأهل النفاق من خبث وكيد، أعاذنا الله منهم .

﴿ **قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ** ﴾ قهر الله بتلك الآية أهل النفاق قهراً قصم ظهورهم لقيام الحجة البالغة، قال سبحانه وتعالى لحبيبه محمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾ قل لهؤلاء المنافقين الذين يفتحون أبواب الفتن على أهل الإيمان بى : ﴿ **فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ** ﴾ أى : ادفعوه عنكم . إذا نزل بكم لا تمنعه حصون ولا قلاع،

ولكنها الأعمار اذا انتهت نزل الموت لا يدفعه دافع، ولو اجتمعت الإنس والجن والملائكة . و ﴿ **الَّذِينَ** ﴾ هنا بدل من قوله ﴿ **لِيَعْلَم** ﴾ فهي فى محل نصب، وجائز أن تكون فى محل رفع بدل من الواو فى ﴿ **تَكْتُمُونَ** ﴾ . ﴿ **إِن كُنتُمَ صَادِقِينَ** ﴾ يعنى بذلك جل جلاله أن يقول للمنافقين إن كنتم صادقين فى قولكم ؛ إن إخوانكم لو كانوا أقاموا معكم فى المدينة لم يقتلوا بسيوف أبى سفيان ومن معه من قريش، فادفعوا عن أنفسكم الموت إذا حل بكم لتثبتوا صدقكم فى خبركم هذا، وهذا مستحيل عقلاً . إذن فالقوم كاذبون ضالون .

قوله تعالى : وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

تقدم لك ما شنع الله به على المنافقين، وأدَّب به من خالفوا مواقفهم، وظهر لك ما بينه الله من قول المنافقين : ﴿ **لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا** ﴾ ونشرهم بين المؤمنين الشبهات المضلة بسبب قتلى أحد، حتى تمنى كثير من الصحابة أن يخبرهم الله عن قتلاهم يوم أحد، فأنزل الله تعالى هذه الآية طمأنينة لقلوب المؤمنين، ولتقوى رغبتهم فى الجهاد فرحاً بما يناله الشهيد، وليقصم الله ظهور المنافقين، قال سبحانه : ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ** ﴾ أى : لا تظن ﴿ **الَّذِينَ قُتِلُواْ** ﴾ يوم بدر وأحد ﴿ **فِي سَبِيلِ اللّهِ**﴾ أى : فى إعلاء كلمته ونصرة دينه ﴿ **أَمْوَاتًا** ﴾ كالذين يموتون فى غير الجهاد، ويستمر موهم إلى يوم القيامة حتى ينفخ فى الصور ﴿ **بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ بل هم أحياء عند رهم . ولما كانت أنواع الحياة تتفاوت كما قررنا فيما سبق، فإن حياة الجماد خالف حياة النبات، وحياة النبات تخالف حياة الحيوان، وحياة الحيوان تخالف حياة الإنسان، وحياة الإنسان فى الكون تغاير حياة من استشهد فى سبيل الله، فإنه بقتله فى سبيل الله فقد الحياة الحيوانية، فأعطاه الله تعالى

حياة روحانية عنده سبحانه، يتنعم بلوازم تلك الحياة الروحانية عند ربه، مما يرزقه سبحانه به ؛ من الأنواع التى بها سعادة وبهجة وملاذ وأنس الأحياء عند ربهم، فيرزقهم الله تعالى من فضله ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر .

والواجب علينا السمع والطاعة لله ورسوله، تصديقا لخبره وإيمانا به سبحانه وتعالى، فهم أحياء عند ربهم حياة فوق أن نتصورها، لا حياة من هم عند أنفسهم أو عند الكون، وما تقول فى قوم فروا إلى الله رغبة فى الوصول إليه، وألقوا بأنفسهم على ظبى السيوف وتحت سنابك الخيل، حتى بذلوا آخر نفس من أنفاسهم شوقا إلى نيل رضاه، فصدقوا فيما عاهدوا الله عليه، ووفروا فى بيعهم فقبل سبحانه منهم، وأعطاهم خيراً مما تقربوا به إليه ؟ وهم أحياء يرزقون كما قال تعالى . وليس للعقل بعد خبر الله تعالى أن يبحث عن هذا الفضل العظيم، بل الواجب عليه أن يسارع إلى ميدان الجهاد، فيلقى بنفسه كما ألقوا بأنفسهم، ولديها ينكشف الحجاب عما تفضل به العلىّ الوهاب، فإن العقل يحكم أن أرقى الحيوانات لا تدرك ملاذ الحياة الإنسانية ــ وهى المشهودة المسموعة الملموسة لها ــ فكيف تدرك حياة مَنْ عِنْدَ ربنا ؟ حياة من استشهد فى سبيل الله فأحياه الله ورزقه وفرحه ؟ قال تعالى : ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا** ﴾(١) .

قوله تعالى : فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾

---

(١) سورة النساء آية ٦٥.

﴿ **فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ الفرح : هو السرور الذى تدعو إليه سوابغ النعم والفوز بالأمل . والمعنى أنهم مسرورون بما آتاهم الله من فضله بقتلهم فى سبيله سبحانه، فإن الله أحياهم الحياة العالية، وتفضل عليهم بخير رزقه الجامع لملاذ الروح والنفس والعقل والحس، بحسب حياتهم التى أكرمهم الله بها، فكان ما آتاهم الله من تلك الحياة وهذا الرزق موجبا للفرح والمسرة، وكأن الله تعالى يقول : يا عبادى الذين بذلوا أرواحهم وحياتهم فى سبيل إعلاء كلمتى ؛ ونصرة لدينى ؛ لأمنحنكم حياة روحانية عندى فى دار قدسى، ولأرزقنكم مما به بقاء تلك الحياة أبديا، ونيل مسراتها وملاذها وسعادتها .

﴿ **وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ** ﴾ هذه الآية خبر من الله لنا عن شهداء بدر وأحد، والسبب خاص والحكم عام، فهو خبر عن جميع الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم، والمعنى أن الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون، يطلبون الفرح والمسرة من الله تعالى ﴿ **بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم** ﴾ من إخوانهم الذين تركوهم على ما كانوا عليه من التسليم الأكمل لرسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، ومن المسارعة إلى الجهاد إعلاء لكلمة الله، وتلك المسرة والفرح باستبشارهم بهم، لتحققهم أن إخوانهم لا يزالون محافظين على ما كانوا عليه وهم فى الدار الدنيا، وبتلك الحالة يفوزون بما فاز به الشهداء من الحياة الروحانية، ورزق الله تعالى الذى منه الفوز بفضل الله تعالى وبرضوانه الأكبر، وكمال النعمة بدوام تلك الخيرات أبدية إلى ما لا نهاية . معنى ﴿ **لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم** ﴾ أى : لم يقتلوا فى سبيل الله فيفوزوا بما فاز مَنْ قُتلوا قبلهم، والفوز متحقق ولكن لا ينال إلا بالشهادة .

﴿ **أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ أن وما دخلت عليه مؤولة بمصدر مجرور بالياء المحذوفة بدل من الذين فى قوله : ﴿ **بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم** ﴾ بأن لا خوف

عليهم ولا هم يحزنون، ونفى عنهم سبحانه وتعالى الخوف من لقاء الله تعالى الذى يجعل قلوب أهل الإيمان فى فزع من الحساب ؛ لتحققهم بالتقصير عن القيام له سبحانه تعظيما واجلالاً له تعالى . وهذا الخوف لا يفارق قلوب العارفين بالله — خصوصاً عند الموت — إلا إذا طمأن الله قلوبهم بالبشائر، قال الله تعالى : ﴿ **لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾(١) ونفى عنهم الحزن على من يفارقوهم وما يفارقون من أهل وولد وآثار، وهذا الحزن أيضا لا يفارق إلا بما يتفضل الله به على المؤمن عند موته بالبشائر، ومنحنا الله هذا الفضل العظيم بإحسانه .

قوله تعالى : يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾

﴿ **يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ** ﴾ يطلبون المسرة والفرح بالنعمة من الله تعالى، كما طلبوا منه المسرة بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم . والمسرة والفرح بنعمة تتوالى عليهم من الله تعالى ﴿ **وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ آلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ لك فى الهمزة من (**أَنَّ**) الفتح بتقدير عطفها على قوله : ﴿ **بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله** ﴾ والتقدير : وبأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . ولك كسر الهمزة وتكون الجملة مستأنفة والمعنى: إن الله تعالى يحفظ أجر المؤمنين فيوفيهم به يوم القيامة وفاءً وافراً . وهذه الآية لا تدل على أن العبد يخلق أفعال نفسه بدليل قوله تعالى : (**أَجْرَ**) فإن لفظة : أجر ؛ تقتضى إثبات عمل للعبد، والحقيقة أن الفاعل المختار هو الله تعالى ليبين وفاءه بوعده جل جلاله، فالموفق للعمل هو الله، والهادى إلى الحق هو الله . ﴿**الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أى : الذين صدقوا الله ورسوله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ . ولما كامن مقام الإيمان أقل من الإحسان والإيقان ؛ أخبر الله تعالى بأنه لا يضيع أجر المؤمنين، لأن المؤمنين لم

---

(١) سورة يونس آية ٦٤.

يشهدوا مشاهد التوحيد الكاملة كما شهدها أهل مقام الإحسان والإيقان ؛ الذين كاشفهم الله بغوامض التوحيد حتى تحققوا بعلم ﴿ **لاَ إِلهَ إِلاَّ آللهُ** ﴾ علما شهدوا به أنه لا خالق إلا الله، كما أنه لا إله إلا الله، فإن كلمة الإخلاص كنز، لو فك لأشرقت منه تسع وتسعون جوهرة ؛ نور جوهرة منها يستر الكون عن أعين العارفين .

قوله تعالى : الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾

﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ** ﴾ بعد أن انتهت غزوة أحد إلى انصراف أبي سفيان إلى الروحاء ؛ تناجى أبو سفيان ومن معه، فقال: إنا قتلنا أكثرهم فما لنا لا نستأصلهم ؟ ارجعوا بنا، وهموا بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، فأراد أن يُرهب الكفار ويريهم من نفسه ومن أصحابه قوة، فندب أصحابه إلى الخروج فى الطلب أبى سفيان، وقال : (لا أريدُ أن يخرجَ معى الآن إلا مَن كان معى فى القِتَالِ) فخرج عليه الصلاة والسلام مع قوم من أصحابه، قيل : كانوا سبعين رجلاً، حتى بلغوا (حمراء الأسد) وهو من المدينة على ثمانية أميال، فألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فانهزموا . وروى أن الذين استجابوا لرسول الله كانوا مُثخنين بالجراح، يحمل بعضهم بعضا تلبية لرسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾.

وقيل : إن الذين استجابوا هم الذين لبوا رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ عندما قال : ﴿**إِلَيَّ عِبادَ آللهِ** ﴾ بعد فرارهم . ولما رجع أبو سفيان لقى بعض المسافرين إلى المدينة فقال : إذا لقيت محمداً فبلغه أنا راجعون إليهم، وأنا جمعنا العرب لقتالهم، وذلك علىَّ أن أوقر جمالك زبيباً عند الموسم بسوق عكاظ . فلما أن وصلوا إلى

رسول الله نشروا هذا الكلام، واسمعوا رسول الله، فقال ومعه أصحابه صلوات الله وسلامه عليه وعليهم : ﴿ **حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ آلْوَكِيلُ** ﴾ كما سيأتى .

وقد أمر رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ بالهجوم على جيش قريش، وأمر ألا يصحبه إلا من كان معه يوم أحد، أى الذين حضروا الملحمة، وفى ذلك سر غريب وحكمة عجيبة ؛ أما السر فى ذلك : فليوقع فى قلوب الكفار الرعب والفزع منهم ؛ لا عتقادهم أنهم لا يزالون أقوياء لم يصبهم ضعف ولا وهن مما ألم بهم من القتل والجراح، وليعلموا أن أصحابه فى المدينة لم يخرج منهم أحد، ولو خرجوا لملأوا السهل والوعر . والحكمة : أن رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ أحب أن يخص من كانوا معه فى أحد بالفوز بمحبة الله تعالى لهم، حتى يرفعهم الله تعالى إلى مقام الأعلين . أقام ﴿ **ﷺ وآله**﴾ (بحمراء الأسد) ثلاثة أيام : الإثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم قفل ﴿ **ﷺ وآله**﴾ إلى المدينة .

﴿ **لِلَّذِينَ أَحَسَنُواْ مِنهُمَ** ﴾ هذا ثناء من الله تعالى عليهم رضوان الله عنهم وعنَّا بهم، والإحسان بينته لك فيما تقدم، وهنا أزيدك وضوحاً : تعلم أن مقام الإحسان هو مشهد التوحيد الأكمل، الذى يجعل من جمله الله به لا يرى لنفسه وجوداً إلا بالله، ولا عملاً إلا بالله، حتى يبلغ به هذا المقام أن يكون بحيث كأنه يرى الله تعالى، وهو أعلى مقام الإحسان، أو يتحقق حق اليقين بأن الله يراه وهو وسط مقام الإحسان.

﴿ **لِلَّذِينَ أَحَسَنُواْ مِنهُمَ** ﴾ بيان أن هذا المقام فوق كل مقام ن بل لا تدركه همم الرجال العالية بعدهم، لأنهم ينصرون الله تعالى لبذل الأنفس والأموال تحت راية رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، وولاتهم يسمعون ويطيعون رسول الله مباشرة، حتى كأنهم يسمعون من الله تعالى .. وأكمل مجاهد بعدهم لا يفوز بتلك الخصوصية

مطلقا، ولو أن مجاهداً جاهد ألف سنة لا ينزل من على ظهر جواده فى سبيل الله ؛ لا يبلغ معشار ما بلغوه رضوان الله عنهم ــ خصوصاً فى تلك الغزوة ــ وهم أفضل خلق الله إجماعاً بعد الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

﴿ **وَاتَّقَواْ** ﴾ بينت لك فيما سبق أنواع التقوى، وهنا أعيدها للمناسبة : وهو أن المسلم يتقى النار . والمؤمن يتقى اليوم . والمحسن يتقى الرب . والموقن يتقى الله . والتقوى هنا هى تقوى الرب، وهى خوف مقامه جل جلاله ؛ خوفا يجعله كأنه بلغ المثول أمام ربه، فلا يسير به وطر إلا إليه، ولا يقع به بصر إلا عليه، ولا يشهد فاعلا مختاراً فى الوجود إلا هو سبحانه وتعالى . وهنا نمسك القلم عن أن نكشف غيبا من غيوب تقوى الرب أو تقوى تعالى، وسنلمع إلى رذاذ منه فى (**المضنون**)(١) إن شاء الله تعالى . ﴿ **أَجَرٌ عَظِيمٌ** ﴾ الأجر من الله تعالى فضل فوق مقادير العقول، فإذا أخبرنا الله تعالى أن لهم : ﴿ **أَجَرٌ عَظِيمٌ** ﴾ ؛ وقفت العبارة والإشارة عن بيانه، اللهم إلا أن نقول : إنه عطاء من الله، موصوف بما ورد عنه أنه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر .

قوله تعالى : الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً** ﴾ بينتُ لك ــ بعد بيان الله لك ــ الثناء على من أمرهم رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ بالذهاب معه لإرهاب أبى سفيان ومَن معه من كفار قريش، وتعيينه ﴿ **ﷺ وآله**﴾ من يذهبون معه، كما بينت لك قبل . وفى هذه الآية الشريفة يكشف الله لنا

---

(١) كتاب للإمام أبى العزائم رضى الله عنه (تحت الطبع)

الحجاب عن كمال يقين أصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ من أهم ــ مع ما هم فيه من الجروح المثخنة والأحزان على من قتل منهم ــ لم تشغلهم تلك الكوارث ــ التى لا تقوى عليها شوامخ الجبال ــ عن تلبية الله ورسوله، والإلقاء بأنفسهم فى فادح المصائب . ومع هذا فإن أبا سفيان أرسل من يثبطون رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه بما أعده لهم من الخيل والرجال، فكان ما ثبط هممم فحول الرجال مثيراً لهممهم، ومؤيداً لكمال توحيدهم، واعتقادهم أن الفاعل المختار هو الله، وأن القتل فى سبيله هو الفوز بالسعادتين ؛ سعادة البرزخ وسعادة الآخرة .

وكل من واجه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ أو سمع كلامه الشريف ؛ انكشفت له حقائق الدنيا، وأشرقت عليه أنوار ما عنج الله مما أعده لأحبابه وأوليائه، فتضاءلت الدنيا فى أعينهم، واضمحلت حياهم الكونية فى نظرهم، وفروا إلى الله سراعاً تلبية لله ولرسوله، وأقاموا الحجة بالعمل والقول، أما العمل : فإقدامهم على السفر مع رسول الله، ﴿ **وَقَالُواْ** ﴾ وأما القول فقولهم : ﴿ **حَسْبُنَا آللهُ وَنِعمَ آلوَكِيلُ** ﴾ وهى الكلمة التى قالوها وجدًلا تواجُداً، وكشف عيان لا علم يقين فقط، فإن العلم ــ صورة المعلوم على جوهر النفس ــ قد يستتر عند المصائب الفادحة حتى يفوز المؤمن بحق اليقين الذى هو عيان بعد بيان، وفى قولهم : ﴿ **حَسْبُنَا آللهُ وَنِعمَ آلوَكِيلُ** ﴾ إشارة إلى قوله ﴿ ﷺ وآله﴾ فى الحديث القدسى فيما ورد بسند أهل البيت : (مَن طَلَبَنِى وَجَدَنى، وَمَن وَجَدَنى عَرَفَنى، وَمَنْ عَرَفَنى عَشِقَنِى، وَمَنْ عَشِقَنى قَتَلْتُهُ، وَمَنْ قَتَلْتُهُ كُنتُ دِيَتَهُ، وَمَن كُنتُ دِيَتَهُ لاَفَرْقَ بَيْنِى وَبَيْنَهُ) .

وكل مؤمن كامل الإيمان ؛ يسارع أن يُقتل فى محبة الله وفى سبيله، فإذا ظفر بواحد منها؛ كانت أحب إليه مما يتمناه أهل العقل الكامل . ومعنى ﴿ **حَسْبُنَا** ﴾ أى : كافينا، أو يكفينا . ومعنى ذلك أهم يريدون أن يفوزوا بقتلهم فى سبيل الله بطلبتهم

العظمى، وهى عند قوم : الرضوان الأكبر . وعند قوم : أعلى من ذلك مما لا يعبر عنه ولا يشار إليه . ﴿ **وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ** ﴾ والوكيل هو الذى يقوم للإنسان بما لا يقوى عليه من الضروريات والكماليات .

والإنسان لا بد له من معين يُعينه، إذ لا سيتقبل بحوائجه الضرورية، فله وكلاء يقومون بحاجاته من مأكل ومشرب وملبس ومفرش ومبنى وغير ذلك . والله تعالى هو نعم الوكيل الذى يُعين بفضله فى كل ذلك، فهو الذى أوجدنا من العدم، وأمدنا بما به طابت لنا الحياة، من أرض، وأجواء، وأرجاء، وماء، وهواء، ونباتات، وحيوانات، ومعادن، وكواكب ثابتات وسيارات، وغير ذلك من إحسانه سبحانه. ولما كان هذا العمل والحال والقول منهم وجداً لا تواجداً ؛ كان الله تعالى أقرب إليهم من أنفسهم، ولذلك قال سبحانه وتعالى :﴿ **فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ** ... ﴾

قوله تعالى : فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

هذه الآية الشريفة حجة على سرعة إجابة الله لأحبابه وإغاثته لأوليائه . وقد أخبرنا الله تعالى أنه يستجيب للذين آمنوا، وأن استجابتنا له هى بتوفيقه ومعونته، واستجابته لنا جلا جلاله هى بإحسانه وفضله، قال سبحانه : ﴿ **وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ** ﴾(١) . والمعنى : ويستجيب الله للذين آمنوا، فـ (**الَّذِينَ**) فى محل نصب على نزع الخافض بدليل قوله تعالى : ﴿ **وَيَزِيدُهُم** ﴾ فالفاعل فى الحالتين هو الله . فهو سبحانه يستجيب لنا، ونحن

---

(١) سورة الشورى آية ٢٦.

نستجيب له بتوفيقه وعنايته، واستجابة الله لهم هى انصرافهم عن (حمراء الأسد) ورجوعهم إلى المدينة وهو انقلابهم إليها .

﴿ **فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ** ﴾ النعمة إذا أسندت إلى اسم الذات الأعظم : كانت خاصة بالنعم الروحانية، وإذا أسندت إلى اسم الرب كانت نعم الدنيا والآخرة .. فمعنى ﴿ **بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ** ﴾ أى : بكمال اليقين الحق والفوز بمحبة الله، فالنعمة هنا : هى نيلهم كمال اليقين ومحبة الله تعالى لهم بدليل قوله سبحانه : ﴿**فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ** ﴾(١) وهؤلاء رضى الله عنهم قد اتبعوه فى أخطر الأوقات وأضيقها ،وكيف لا ؟! والقوم كانوا مثخنين بالجراح، ودعاهم رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ إلى لقاء العدو فلبوا، وهذا هو الاتباع حقا عند أهل المعرفة بالله، واتباع رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ فى هذا الموطن يتفضل الله به على أهل محبته، وهو أكمل مقام يتفضل به على رسله والصديقين من خلقه، وقد قامت الحجة بالآية، وقد بينت لك فيما سبق أن نعمة الله علينا ؛ هو محمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾، بدليل قوله تعالى: ﴿ **وَآذْكُرُوا نِعْمَتَ آللهِ عَلَيْكُمْ** ﴾ يعنى محمداً ﴿ **ﷺ وآله**﴾، بدليل قوله تعالى : ﴿**إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ** ﴾(٢). فإذا أسندت النعمة إلى اسم الذات كانت خاصة بالعطايا الروحانية كما بينت لك .

﴿ **وَفَضْلٍ** ﴾ الفضل هنا : هو إحسان الله على العبد بعافية فى بدنه، ومزيد فى ماله، وحفظ له من عدوه . والصحابة فى تلك الغزوة الأخيرة انصرفوا من (حمراء الأسد) بنيل اليقين الحق، ومحبة الله تعالى، وهما نعمة الله فى هذا الموطن . وبمال وفير اكتسبوه بالتجارة فى (حمراء الأسد) وبما فيه رحمة فى أبدانهم من جراحهم لجودة

---

(١) سورة آل عمران آية ٣١.

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣.

الهواء بها، وهزيمة أبي سفيان ومن معه، وهو فضل الله لنا . جدّد الله لنا تلك المواهب، فإنا الآن أحوج ما نكون إليها، خصوصاً وقد تفرقت كلمة المسلمين، وخرج بعضهم على بعض، وتسليط عليهم العدو الظالم الغشوم . أهلك الله أعداء المسلمين .

﴿ **لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ** ﴾ السوء هو : ما يلم ببدن أو أهل أو أرحام أو مال من المضار الفادحة، أو ما يشوب إيمان المؤمنين أو عقائدهم، من سوء الظن، أو الشك، أو الريب الذى كان يُنتظر فى مثل تلك المواقف، وهذه منن الله تعالى علينا حيث حفظنا من أن يكر علينا أبو سفيان ومن معه، ومن أن يحصل لنا ضرر فى جوارحنا، أو فساد بسبب هواء (حمراء الأسد) أو أَلَمَّ بقلوبنا مَا يزعجها، بل حفظنا الله من جميع ذلك، ومَنَّ علينا بسلامة أبداننا، ووفرة أموالنا، وحفظ إيماننا كما أخبرنا سبحانه بقوله : ﴿ **فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ** ﴾ .

وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ ﴾ أى : واتبعوا ما أنالهم رضوان الله، وهو السمع والطاعة لرسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ . فإن الرضوان هو نتيجة السمع والطاعة، وكيف ! واتباع رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ به الفوز بمحبة الله للمتبعين، وليس فوق محبة الله تعالى مقام تشرف إليه أرواح العارفين . قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾(١) .

﴿ **وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾ خبر من الله تعالى أنه منفرد بملك كل شيء ،وأنه غني عن كل شيء، فهو يتفضل بما شاء على من شاء بغير حساب . وفضل الله تعالى كله عظيم، لأن فضل الله كما بينت لك متعلق بجمال الأرواح وفوزها بطلبتها

---

(١) سورة آل عمران آية ٣١.

العظمى . وكل ما تراه فى العالم من أعلى عليين إلى أسفل سافلين مما يختص بالأرواح فى جمالها الروحانى ــ كالعلم، والشوق، والعشق، والهيام، والوله، والشهود، والفناء، والجمع، والفرق، وغيره ــ فضل الله تعالى . وأما ما يتعلق بالأشباح ــ من الجنة فما دونها ــ فهو فضل الرب جل جلاله، فلا تقف بهم الهمة دون الوصول إلى حضرته العلية .

قوله تعالى : إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ ﴾ معنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يبين لأصحاب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، أن الذين أشاعوا بينهم خبر اجتماع قريش وعزمهم على الرجوع لحرب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بعد هزيمتهم فى أُحد، إنما تلك الإِشاعة من الشيطان ليخوفكم أولياءه، وليس للشيطان قوة بعد تأييد الله ونصره لرسوله ﴿ ﷺ وآله﴾ ولأصحابه . وفى هذه الآية الشريفة طمأنينة لقلوب الصحابة رضى الله عنهم ومزيد فى يقينهم . وفى قوله : ﴿ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ ﴾ أى : يخوفكم أولياءَه وهو تعبير فصيح، فإن الشيطان لا يخوف أولياءه، ولكنه يخوف بأوليائه .

﴿ فَلاَ تَخَافُوهُمْ ﴾ ينهانا الله تعالى أن نخاف من أهل الكفر بالله ــ حتى ولو اجتمعوا ــ فكيف نخافهم وهم قد ملأ الله قلوبهم جزعاً وفزعاً والتجأُوا إلى الكيد والخداع ؟! وهل بعد تأييد الله ونصرته سبحانه أحبابه يخاف المؤمن غير الله تعالى؟. ﴿ وَخَافُونِ ﴾ يأمرنا ربنا فى هذه الآية بالمحافظة على أوامره، والمسارعة إلى القيام بمحابه ومراضيه، ومستمدين منه سبحانه عنايته وتأييده وتوفيقه لنا، حتى لا نقع فيما يغضبه فنستحق العقوبة بسبب معصيته . ﴿ وَخَافُونِ ﴾ أى : اتقون أن تقعوا

فيما يخالف أمرى، فإنكم إن سمعتم وأطعمتم كنتم فى حصن الأمن . قال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾(١) ومعنى الخوف منه : المسارعة إلى القيام بما يحبه ويرضاه . ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى : إن تحققتم بالإيمان بى وبنبيّى عليه الصلاة والسلام، وعلمتم أنّى أنا النافع الضار، وأنى وعدت أهل الإيمان النصرة والتمكين فى الأرض فى الدنيا، والنعيم المقيم يوم القيامة . ومن ثبت لديه حق اليقين لا يخاف غيرى، ولا يخشى الخلق ولو اجتمعوا عليه .

قوله تعالى : وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾

﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ هذه الآية الشريفة متصلة بالآيات السابقة قبلها من قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللهِ ﴾ إلى آخر الآية، وكل هذه الآيات من الله تعالى للمؤمنين، وتطمئن به قلوبهم، وتقوى به عزائمهم على الجهاد فى سبيل الله تعالى، توكلا على الله بما أعده الله للمجاهدين فى سبيله من النصرة والتأييد، الفوز بالتمكين فى الأرض فى الدنيا، والنعيم المقيم يوم القيامة . ومعنى هذه الآية الشريفة ؛ أن الله تعالى ينهى نبيه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ عن أن يحزن مسارعة المنافقين إلى الكفر، وردة المسلمين المستضعفين فى مكة، وبمسارعة كفار قريش إلى محاربة رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، فإن عملهم هذا مسارعة إلى الكفر . وهذا دليل على أن المرتدين عن الإيمان بالنفاق، أو بإعلان الكفر وبمحاربة النبى ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ؛ محكوم عليهم بالذل والخزى فى الدنيا، وبشديد العذاب يوم القيامة، ولو اجتمع على حربه ﴿ ﷺ **وآله**﴾ من بأقطارها .

---

(١) سورة الأنعام آية ٨٢.

وفى ذلك حياة لأهل الإيمان، وإقبال بالكلية على الله تعالى، ومسارعة إلى الفوز بالشهادة، ودليل ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً ﴾ يعنى أن الذين يسارعون فى الكفر من الأنواع التى بينتها لك ؛ لا يقدرون على أذية رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه، لأن الله تعالى معهم، والحجة فى ذلك أن الله تعالى أقام نفسه مقامهم بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً ﴾ وأهل الكفر بالله يعتقدون أن الله لن يضره شىء، فما بقى إلا أنهم كانوا يسارعون إلى ضرر رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ وأصحابه . وفى قوله تعالى : ﴿لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً ﴾ كمال التأييد للمجاهدين، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّه ﴾(٢).

﴿ يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ ﴾ أى : سبقت إرادة الله لهم فى الأزل بحرمانهم من الفوز بنعيم الآخرة، فلا يوفقهم للإيمان ولا للسمع والطاعة لرسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى : وقدر الله تعالى عليهم وقوعهم فى العذاب العظيم . ومعنى ﴿ عَظِيمٌ ﴾ أى : أنه لا ينقطع أبداً وأنه كلما يتجدد وقت يزيد ويقوى .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئًا وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

---

(١) سورة الفتح آية ١٠.

(٢) سورة النساء آية ٨٠.

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ** ﴾ هذه الآية مرتبطة بالآيات قبلها، ومعناها أن الله تعالى يخبرنا عن اليهود الذين بين لهم فى كتابهم ـــ التوراة ـــ نبوة محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وصفته، بعد ذلك كفروا به . وعن المنافقين الذين اعتنقوا الإسلام بألسنتهم فلم تؤمن قلوبهم، أنهم باشترائهم الكفر بالإيمان ـــ بعد أن ثبت لدى اليهود حقيقة نبوته ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وبعد أن أظهر المنافقون الإيمان به ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ـــ ﴿ **لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئًا** ﴾ لن يضروا الله بعملهم هذا شيئاً، لأن الله تعالى هو الضار النافع، وأن الخلق أجمعين لو اجتمعوا على قلب أكفر كافر ما ضر ذلك الله شيئاً، ولو اجتمعوا على قلب نبى ما نفع الله ذلك شيئا، وإنما الضرر واقع على من كفر بالله، والنفع واصل إلى من آمن بالله وأخلص له سبحانه . والمعنى : أنهم بعد ثبوت دلائل الإيمان، وقيام الحجة على صدق رسول الله محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾ لديهم ؛ رجعوا إلى الكفر فباعوا الإيمان واشتروا الكفر عناداً من أنفسهم، لأن أنفسهم نزاعة للشر، مطبوعة على الخبث والجحود . ﴿ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ يعنى مؤلم ألما فوق الطاقة البشرية ليذوقوا وبال أمرهم وهذا بيان من الله تعالى لأهل الإيمان، لتسكن نفوسهم إلى مُنَفّسِهَا جلا جلاله، وليسارعوا إلى قهر أهل الباطل، ولإعلاء الحق وأهله، ولا يكون ذلك إلا بقهر تلك النفوس العنادية بالقتل والرّق، إعلاء لكلمة الله تعالى . ومتى عز أهل الحق ذل أهل الباطل، وبإذلالهم ينال الخلائق مسرات الحياة فى رغد العيش، وهناءة الحال، وسعادة المستقبل . ومتى ظهر أهل الكفر بالله ـــ أعاذنا الله تعالى ـــ انتشر الهرج والمرج والفساد والضرَّر . أذل الله أعداءنا، ومنحنا العزة التى بشر بها أهل الإيمان المخلصين .

قوله تعالى : وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

﴿ **وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ** ﴾ قرأ بعض القراء هذه الآية ﴿ **تَحْسَبَنَّ** ﴾ بالياء التحتية، وعليها يكون ﴿ **الَّذِينَ** ﴾ فى محل رفع فاعل، و ﴿ **أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ** ﴾ حلت محل المفعولين . وقرأ بعضهم (**يَحْسَبَنَّ**) بالتاء الفوقية، وتكون (**الَّذِينَ**) فى محل نصب مفعول أول، والجملة بعدها مفعولا ثانيا ﴿ **أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ** ﴾ أى : إنما نؤخر عنهم العقوبة، ونطيل لهم زمان الوسعة والرخاء والصبر عليهم، لأن الإملاء حلم الله عليهم، وصبره عن مباغتتهم بفادح العقوبة، مع حرمانهم من القابل عن الله تعالى ؛ حتى يحسبوا أنهم على الحق، وأن كفرهم بالله ورسوله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ هو الذى نالوا به عاجل الحياة الدنيا . فنفى الله تعالى هذا الحسبان عنهم، وبين ما قدّره عليهم ؛ من أن ذلك الإرجاء للعقوبة ونيل ما يفرحهم إنما هو شر لا خير، كما قال تعالى : ﴿ **حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** ﴾(١) وهو الاستدراج الذى أخبرنا الله عنه بقوله : ﴿ **سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾(٢) وهو الحقيقة فى نفس الأمر، لأنه مبلغ علمهم أن هذا خير فى نظرهم، ولكن هذا العلم هو الجهل، لأنهم علموا غير الحقيقة فى نفسها . و(**ما**) فى قوله تعالى (**إِنَّمَا**) مصدرية، والجملة بعدها مؤولة بمصدر كما بينت لك . وجائز أن تكون موصولة ويكون العائد محذوفا تقديره : نمليه لهم . وهذا الآية برهان على أن الله تعالى هو الضّار النافع، وهو الهادى المضل، لا يُسأل عما يفعل .

﴿ **إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا** ﴾ (**إِنَّمَا**) هنا للحصر، و﴿ **نُمْلِي لَهُمْ** ﴾ أى : نؤجل عقوبتهم، واللام فى قوله : ﴿ **لِيَزْدَادُواْ** ﴾ لام العاقبة، أى : لتكثر أوزارهم

---

(١) سورة الأنعام آية ٤٤.

(٢) سورة القلم آية ٤٤.

وخطاياهم بالوقوع فى أنواع من الكفر بعد الكفر بالله ورسوله، كمحاربة الله ورسوله، والصد عن دين الله تعالى، وتثبيط المؤمنين عن الجهاد، والدعوة إلى الكفر. وكل تلك الكبائر متصله بالكفر بالله والاستدراج أعاذنا الله منه، قال ﴿ ﷺ وآله﴾: (إِنَّ آللهَ لَيُمْلِي لِلظالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَه لَمْ يُفْلِتْهُ) .

﴿ **وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ هذه ألآية برهان على أن الأمر مُقَدَّرٌ أزلاً . ﴿ **وَلَهُمْ** ﴾ أى : فى سابق القدر، و ﴿ **عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ أى : عذاب يجمع الله به عليهم شديد الآلام الجسمانية، والآلام النفسية والقلبية : من الذل، والخزى، والمهانة، والندم، والهم، والحزن، والأنواع التى تضارع آلام الحطمة للقُوى التى لا تتألم بسعير النار، قال تعالى : ﴿ **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ** ﴾(١) ورؤية تلك الأعمال فوق الآلام النارية، وهو ما يستحقونه عدلاً بسبب كفرهم، ووقوعهم فى الكبائر التى كل واحدة منها يقع فيها مرتكبوها، وقد تقدم ذكر تلك الأعمال التى أملى الله لهم حتى وقعوا فيها، وهى : محاربة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، وتثبيط المؤمنين عن الجهاد، بعد الكفر بالله تعالى، ونشر دعوة الكفر .

قوله تعالى : مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

هذه الآية الشريفة متعلقة بالآيات السابقة فى غزوة أُحد، ولما كانت غزوة أُحد حدثت فيها أحداث فادحة ؛ من القتل والجراح والهزيمة ؛ ودعوة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ الصحابة إلى الهجوم على قريش بعد أن أصابهم ما أصابهم، ثم دعوة

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٦.

الصحابة إلى غزوة بدر الصغرى لميعاد أبى سفيان ؛ أنزل الله تلك الآية ليسر المؤمنين بحكمة وقوع تلك المصائب فقال سبحانه :﴿ **مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ**﴾أى : ليتركهم ويدعهم من غير أن تنكشف لهم ضمائر المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويخفون الكفر، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر، والمؤمنون يثقون بهم، ويعتبرونهم إخوانا، حتى قدّر الله تعالى كشف الستر عن أعدائه المنافقين فى غزوة أُحد وبيّن ذلك بقوله تعالى : ﴿ **حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** ﴾ أى : حتى يظهر للصحابة ما عليه ضمائر المنافقين، وهو بيان جلىّ مؤيد العملية التى تجعل الصحابة لا يخدعهم نفاق أهل الكفر بالله، الذين يظهرون الإيمان ويخفون الكفر، بعد أن كشف الله الستر عنهم .

﴿ **وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ** ﴾ أى : أن الله سبحانه وتعالى ستار عيوب الخلق، حتى يكشفها سبحانه وتعالى لأوليائه بعمل النافقين .

والغيب غيبان :

١- غيب الأقدار : وهذا الغيب لم يطلع الله عليه أحدا على وجهه الأكمل، إلا ما يظهره الله تعالى على ألسنة المتوسمين، أو ما تطمئن إليه قلوب أهل الإخلاص فيشيرون إليه، أو يُعلِمُ الله به رسله الكرام عليهم
السلام وورثتهم، مما تدعو إليه ضرورة حفظ الدين، أو حفظ المسلمين من كيد أعداء الله، ويكون ذلك بالنسبة إلى الرسل معجزة، وإلى أولياء الله كرامة .

ومعلوم أن الرسل متعبدون بإظهار المعجزة، الأولياء متعبدون بإخفاء الكرامة ؛ إلا فى مثل تلك الضرورات الفادحة ؛ كما فعل عمر رضى الله عنه حين قال : يا سارية الجبل . وكما فعل علىٌّ عليه السلام عندما سأله السائل وهو على المنبر من أبى ؟ فصَّرح له . وكما فعل رسولُ رسولِ الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ حين قابله السبع

فقال له : ﴿ **إِنِّى رَسُولُ رسولِ آللهِ** ﴾ فبصبص وانصرف . وتلك الكرامات فضل من الله على أفراد أمة محمد، لا ينكرها إلا من حُرمها .

٢ ــ والغيب الثانى هو غيب الجمال، والجلال، والبهاء، والنور، والضياء، والكمال، وهى الغيوب التى أطلع الله عليها من اجتباهم من أهل الإيمان، فهيمهم عند مطالعة تلك الغيوب، وحيَّرهم فيما أشهدهم من كماله العلىّ جل جلاله .

ظهر لك أن غيب الأقدار، لم يطلع الله عليه العامة الذين لم يشهدوا أنوار التوحيد، ولم يتذوقوا علوم اليقين، قال تعالى : ﴿ **فَلاَ يَظْهِرُ عَلَى أَحَداً إِلاَّ مَن آرْتَضَى مِن رَّسُولٍ** ﴾(١) وقال تعالى مخبراً حبيبه عليه الصلاة والسلام : ﴿ **وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ آلْغَيْبَ لاَ سْتَكْثَرُتُ مِنَ آلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِى آلسُّوءُ** ﴾(٢). ﴿ **وَمَا كَانَ آللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى آلْغَيْبِ** ﴾ أى : غيب الأقدار، لأنه سبحانه وتعالى أطلع أصحاب نبيه على غيب أسمائه وصفاته وآياته حتى بلغوا مقام اليقين الحق .

﴿ **وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء** ﴾ معنى الآية أن الله يختص بعض رسله، فيقيمهم لتبليغ الناس عنه ما به نيل محابه ومراضيه سبحانه، ويقيم بعضهم للتبليغ وقهر أعدائه بالجهاد لمحو الجبابرة الطغاة المنازعين للربوبية، حتى يمحو الظلم والتظالم، والكفر والجحود، فينتشر الإسلام ويعم النور . وبسبب الجهاد يمحص الله أهل الإيمان به، ويظهر أهل النفاق والكفر لأوليائه المؤمنين . وهذه الآية متصلة أيضا بالآيات السابقة فى غزوة أُحد، إظهاراً لحكمة الله فيما أصاب به الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين يوم أحد، فإن أحداث أُحد اتخذها أهل النفاق وأهل

---

(١) سورة الجن آية ٢٦ ــ ٢٧ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٨٨ .

الكفر بالله وسيلة لفتح أبواب الفتن المضلة بين المؤمنين، ولله تفضل فثبت قلوبهم وقوى إيمانهم بما أنزله من تلك الآيات السابقة .

﴿ **فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ** ﴾ هذا أمر من الله تعالى، وجائز أن يكون لأهل الإيمان، ويكون المراد منه محو ما اعتورهم من فتن المنافقين والكافرين التى فتحوها بسبب أحداث أُحد، ويكون المراد من الإيمان طمأنينة القلوب، لأن الإيمان شىء، وطمأنينة القلب شىء آخر، كما قال الخليل عليه السلام : ﴿ **بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى** ﴾(١) أى : أنا مؤمن، ولكنى أرجو البيان ــ كل البيان ــ ليطمئن قلبى، والله يقول : ﴿ **فَأَمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ** ﴾ بعد أن اطمأنت قلوبهم بتلك الآيات التى كشف الله لهم فيها الحكمة فى إحداث تلك البلايا . ﴿ **وَرُسُلِهِ** ﴾ بيان لنا أن نؤمن بكل رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم إيمانا موقنين أن الله أرسلهم من عنده لتبليغ الخلق عنه ما يحبه منهم، وهذا الإيمان لا يكمل إيمان مسلم إلا به، ولا يقتضى أن نتبعهم فيما أُنزل عليهم بعد أن بين الله لنا ما بينه فى القرآن، وبين لنا رسول الله فى السنة، اللهم إلا ما يتعلق بمكارم الأخلاق، وفضائل الأعمال، التى ليست واجبه ولا مرغبا فيها . وقد بينت لك فى كتاب :(**وسائل إظهار الحق**)(٢) أن الله تعالى أرسل الرسل فى كل زمان ليجدد للناس ما أهّلهم لتلقيهم عنه سبحانه، حتى أرسل خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، فأكمل لنا والحمد لله أمر ديننا، وأتم علينا نعمته، فنسخ بالقرآن المجيد ما نسخ مما أنزله على الأمم السابقة، فكان القرآن

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٠ .

(٢) يطلب وجميع مؤلفات الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم من مكتبة دار المدينة المنورة ١١٤ ش مجلس الشعب .

هو كتاب الله الجامع لكل ما يجب لله على الناس، وبيان ما وعد به من آمن به سبحانه وبرسله، ووعيد من جحد وخالف .

وجائز أن يكون قوله تعالى : ﴿ **فَئَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ** ﴾ لغير أهل الإيمان، لأن قول الله تعالى : ﴿ **وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجتَبِى مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَآءُ** ﴾ أى : يطلع من يشاء على غيب القدر، فيعلمون ضمائر المنافقين وسوء نواياهم، ويبينون ذلك لأهل خاصتهم، وفى ذلك معجزة تجعل أهل العقول يؤمنون بالله ورسله . وما بيناه فى الآية أن الله تعالى يكشف ستره عن أهل النفاق، فتنكشف حقيقتهم للمؤمنين، بسبب ما يبتلى الله به عباده الصالحين من ظهور الكفار عليهم، كما حصل فى وقعة أُحد فيفتضح المنافقون، ويظهرون مكنون ضمائرهم، ثم يُسلط الله نبيه وأصحابه على الكافرين، والله ولى المؤمنين .

﴿ **وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ أى : أنكم أيها المؤمنون إن تتوبوا وترجعوا عما اعتراكم من الحزن بسبب أحداث أُحد، بعد أن بين الله لكم الحكمة فى وقوع تلك المصائب ؛ فلكم أجر يتفضل الله به عليكم ﴿ **عَظِيمٌ** ﴾ وهو النعيم الدائم يوم القيامة للروح، والعقل، والنفس، والجسم، والحس، لكلّ قسط يناسبه من المسرات . وجائز أن يكون مراد الله تعالى : ﴿ **وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ** ﴾ أى : تصدقوا وتتقوا الله أيها المنافقون بعد أن قامت الحجة من حكمة وقوع تلك الحوادث، ومن بيان رسول الله ﴿ **ﷺ وآله** ﴾ خفيات ضمائركم وكشف أسراركم مما لم يكن يعلمه إلا الله، وكفى بذلك معجزة تملأ القلوب يقينا ﴿ **فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ أى : جزاء كبير من الله تعالى .

قوله تعالى : وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

﴿ **وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ** ﴾ قرىء : ﴿ **يَحسبَنَّ** ﴾بالياء التحتية، والتاء الفوقية . وعلى رواية التاء الفوقية ﴿ **تَحسَبَنَّ** ﴾ يكون المخاطب رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، ويكون المعنى : ولا تحسبن بُخل الذين بخلوا بما آتاهم الله هو خيراً لهم . فـ : بُخل، المحذوف الملحوظ هو المفعول الأول لـ ﴿ **تحسبن**﴾ و ﴿ **خَيِّراً** ﴾ الأخيرة مفعول ثان، وهو فصل أو عماد على الكوفيين أو البصريين . وفى قوله تعالى ﴿**بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ أى : من العلم والمال والجاه والعافية . وإن كان سياق الآية هنا يخص المال فقط، لأنه أتى بعد الحث على الجهاد وبيان فضائله، فناسب أن البخل بما آتاهم الله هو إمساك المال عن أن ينفق فى سبيل الله تعالى، ليعين المجاهدين فى سبيل الله . والبخل : هو عدم القيام بالواجب كزكاة المال، وتقديمه لمساعدة المجاهدين فى سبيل الله كما قال تعالى : ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** ﴾ (١) وأهل اليسار يجب عليهم أن يجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، والفقراء سقط عنهم الجهاد بالمال ووجب عليهم الجهاد بالنفس، قال تعالى : ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾(٢) .

وعلى المال حقوق كثيرة، ومن ظن أن المال ليس عليه حقوق إلا الزكاة فقد جهل الواجب عليه من نفقة فى الجهاد، وفى البر، والصلة، ومساعدة الغرباء، وفى

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٣ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

العقل(٣) للدية، وإكرام الضيف والجار، وإغاثة المستجير وغيرها . مما يقتضيه واجب الوقت . وإلا فالمال مال الله، يضعه فى أيدى الرحماء من عباده، والفقراء عاليه، منع المال من أيديهم ووضعه فى أيدى الأغنياء، وكم رأينا بيوتا مشيدة عامرة هوى بها الظلم فأصبحت خاوية على عروشها، قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ** ﴾(١) ومن أحب المزيد من الخير فى الدنيا ؛ شكر الله بأن يرحم الفقراء بفضل ماله . ومن أراد السعادة الباقية فى الآخرة ؛ سارع إلى القيام بمحاب الله ومراضيه، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

وعلى تأويل من قرأ ﴿ **يَحْسَبَنَّ** ﴾ بالياء يكون الفاعل ضميراً يعود على رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ محذوفا، أو ضمير : أحد، ويكون المعنى : ولا يحسبن رسول الله بخل الذين يبخلون، وحذف : بخل، لدلالة ﴿ **يَبْخَلُونَ** ﴾ عليه . أو : ولا يحسبن أحد بخل الذين يبخلون . وجائز أن يكون التأويل : ﴿ **الَّذِينَ يَبْخَلُونَ** ﴾ فاعل يحسب، والمفعول الأول محذوف تقديره : بخلهم، وحذف لدلالة : ﴿**يَبْخَلُونَ**﴾ وَ ﴿ **خَيراً**﴾ مفعول ثان والضمير فصل أو عماد . يعنى أن البخل فى نظرهم يرونه خيراً، لأنه يحفظ لهم أموالهم التى هى عندهم فوق أنفسهم، لأنهم جهلاء بأنفسهم، كفار بالله ورسوله . ولا تجد إنسانا يجهل نفسه، ويجهل نشأته الأولى والثانية ؛ إلا ويرى المال معبوداً من دون الله، يبذل حياته العزيزة حرصاً عليه، وما تقول فيمن يجهل يوم القيامة ؟ كما قال تعالى : ﴿ **بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴾(٢) وقوله تعالى : ﴿ **كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا** ﴾(٣) ولذلك شنع الله عليهم، وتوعدهم بقوله :

---

(١) سورة الشورى آية ٣٠ .

(٢) سورة ص آية ٢٦ .

(٣) سورة الجاثية آية ٣٤ .

﴿ **بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ ومعنى هذه الآية : سيعاقبهم على بخلهم هذا يوم القيامة بما يستحقونه من ألم العقوبة على بخلهم، وهو امتناعهم عن أن ينفقوا مال الله الذى تفضل به عليهم، بدليل قوله تعالى : ﴿ **بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ فإن الله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وأهل اليسار فى الدنيا وأهل العافية والجاه والمنزلة، تفضل عليهم بكل ذلك، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، ولكن الإنسان ظلوم جهول، يدعوه الشرك بالله إلى اعتقاد أنه هو الذى نال المال والمنزلة والجاه بحوله وقوته، فيبخل أن ينفقه فى وجوه الخير، وينسى أنه كان نطفة مذرة، وأنه سيعود جيفة قذرة . ولك أن تقول : ﴿**سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا** ﴾ أى : به يوم القيامة، فيجعل الله لهم فى أعناقهم أطواقا مما بخلوا به، فتكون أفاعى وحيات كما ورد ذلك فى الحديث . وقد تكون تلك الأطواق فى كل أجسامهم من الأعناق إلى الأقدام، أعاذنا الله من ذلك . وإذا كان ما بخلوا به مما تفضل الله به عليهم من المال، والعلم، والجاه، والعافية، فيكون تطويقهم به إلقاؤهم فى العذاب الشديد الذى يطوقهم، يقول العربى : فلان طوق فلاناً، أى : قهره . وقوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ ٱلْقِيَمَةِ** ﴾ أى : أن الله يمهلهم فى الدنيا استدراجاً لهم، وفى يوم القيامة يؤاخذهم بتركهم القيام بالواجب عليهم فى مالهم الذى هو العدة فى الجهاد، فينتقم الله منهم بعدله يوم القيامة .

﴿**وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ معلوم أن ملك السموات والأرض لله، ولله ما فيهما، وله سبحانه من فيها . ولما كانت تلك الآيات الشريف أنزلها الله للتشنيع على من بخلوا بالمال أو يبذلوه فى سبيل الله تعالى، قال سبحانه : ﴿ **وَللهِ مِيراثُ آلسَّمَوَاتِ وَآلأَرْضِ** ﴾ أى : له سبحانه ما يتوارثه الناس من بعضهم بحسب زعمهم أنهم يملكون ما يرثون، وأنهم بعد ذلك يموتون جميعا فلا يخلفهم أحد يرثهم، فيكون لله تعالى، ويكونون ظلموا أنفسهم ببخلهم، وتركهم الإنفاق

فى سبيل الله تعالى، وبذلك يستحقون أليم العذاب، فيكون ما يحل بهم من العذاب بسبب ما كانوا يحسبونه خيراً لأنفسهم من البخل الذى أوقعهم فى هذا العذاب الشديد . ولو كانت نفوسهم من الجواهر النورانية، لقبلت عن الله تعالى ما أرسل به رسله عليهم الصلاة والسلام . والهوى أخو العمى . ﴿ **وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ قرىء الفعل بالياء التحتية، وبالتاء الفوقية، والمعنى ظاهر إن كان للخطاب او للغيبة . وقد تقدم تفسير ذلك فى السورة التى تذكر فيها فى البقرة(١) .

قوله تعالى : لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿[١٨١]﴾

بعد أن بين سبحانه فضل الجهاد فى سبيله ببذل المال والنفس، وشنع على من بخلوا بالمال وثبطوا المجاهدين، بين لنا سبحانه الشبه التى تذرع به أهل النفاق وغيرهم من أهل الكفر بالله فى فتح أبواب الفتن بين المسلمين، فيدخلون فى قلوبهم الريبة فى صحة نبوة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، بسبب ترغيب الله المسلمين فى بذل المال فى سبيله تعالى، فقالوا : إن كان محمد نبيا، فكيف يطلب المال، وطالب المال محتاج إليه، والله غنى لا يحتاج إلى المال، فنتج عدم صحة نبوته !! .

وقال اليهود : إن كان محمد نبيا وطلب المال، فإنما يطلبه لتنزل نار من السماء تحرقه كما هى عادة الأنبياء السابقين !! وتلك الفتن أباطيل يحفظ الله من شرها قُلوب أهل الإيمان به . وما يدعونه من نزول النار، فإنما كان فيما يقر به الأمم السابقون من أنفسهم لتطمئن قلوبهم بقبولها، كما فعل قابيل وهابيل وغيرهما . أما ما يكلفنا الله تعالى به لتقوم لنا الحجة عنده سبحانه بأننا سمعنا وأطعنا ؛ أو تقوم على أعدائه الحجة بأنهم خالفوا وأنكروا ؛ فذلك مما يبتلى الله عباده به من الخير

والشر . قال تعالى ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَة** ﴾(١) والله جل جلاله يكلف من شاء بما شاء، ويسلبه التوفيق والهداية، حتى ينتقم الله منه يوم القيامة بما قدّره عليه عدلاً منه جل جلاله .

والله تعالى يسمع ويرى دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الملساء، ولكن قوله تعالى : ﴿ **لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ** ﴾ هنا، أى : أحاط علما بقوله من الأزل، وأبرزه سبحانه وتعالى على ألسنتهم عندما أنزل تلك الآية الشريفة، والله تعالى يسمع سماع إجابة، كما قال سبحانه : ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا** ﴾(٢) ويسمع سماع مؤاخذة كما فى هذه الآية الشريفة . وهنا أخبرنا الله تعالى عن مقولهم ــ أى اليهود ــ بدليل قوله تعالى مخبراً عن اليهود : ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ** ﴾(٣) وهى دليل على أنهم هم ﴿ **الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء** ﴾ قاتلهم الله، وهم يدعون أنهم أتباع موسى عليه السلام، وكيف يدرسون التوراة ويحكمون بالفقر على الله تعالى ؟!!.
والذى يظهر لى أنهم ــ قاتلهم الله ــ إنما أرادوا بذلك فتنة أهل الإيمان، وإيهام كذب رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ . لأنهم يعلمون حق العلم أن الله غنى عن العالمين، وأنه جل جلاله يمتحن قلوب عباده بما يكلفهم من الأمر والنهى، فمن سمع وأطاع جمله بجماله، وأشهده غيبه المكنون، وصرّفه فى ملكه وملكوته . وإنما هو الفضل والعدل، فمن أقبل على الله بقلبه عاملاً فى محابه ومراضيه ؛ ستر قبائحه بجماله العلى، فلا يراه راءٍ إلا وانجذاب إليه قلبه بالمحبة . ومن أدبر عن الله وأنكر ؛ كشف عنه ستره وأظهر عيوبه للخلق، فلا يراه أحد إلا وانزعج منه وأنكر عليه . وقد

---

(١) سورة الأنبياء آية ٣٥ .

(٢) سورة المجادلة آية ١ .

(٣) سورة المائدة آية ٦٤ .

ورد فى الآثار : يقول تعالى : ﴿ **يَا دُنْيَا آخْدُمِى مَنْ خَدَمَنِى وَآسْتَخْدِمِى مَنْ خَدَمَكِ** ﴾ وإنما هو الجهاد، والصبر على شدائده، ثم التمحيص، ثم الاجتباء، ثم الاصطفاء، حتى يبلغ العبد من الله مبلغا يقول الله له : أنا أقول للشىء كن فيكون، وقد وهبتك كلمتى فقل للشىء كن فيكون .

﴿ **وَنَحْنُ أَغْنِيَاء** ﴾ هذه الكلمة قد يقولها الجاهل بلسانه أو بحاله، أما بلسانه فلأن اليسار والعافية والأمن تطغى العبد الجاهل فتنسيه نشأته الأولى والثانية، ويجهل نفسه وربه، فيقولها بلسانه عناداً وكبراً . وقد يقولها بحاله وإن لم يقلها بلسانه، وذلك إذا جهل استناد وجوده إلى واجب الوجود الذى أوجده وأمده سبحانه، فيظن البقاء فى يسار وعافية وأمن، ويظن استغناءه عن الله تعالى، وكلا الأمرين شرك . فإذا سبق فى قدر الله تعالى للعبد سعادة، ابتلاه الله ليلتجىء إليه سبحانه ويقبل، فيخرجه من ظلمات الطغيان والغرور ؛ إلى النور التوبة والإنابة، ومن لم يسبق له القدر بالسعادة استدرجه حتى يهلك . أعاذنا الله وإخواننا المسلمين من الغرور بالدنيا .

﴿ **سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء** ﴾ أى : نسجل عليهم قولهم الذى أثبت عليهم الكفر، وأوجب عليهم العذاب الدائم، ونكتب عليهم أيضا قتلهم الأنبياء بغير حق، فإنهم ــ قاتلهم الله تعالى ــ بلغ بهم العناد لرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم مبلغا جعلهم يقتلونهم ويجحدون بالله تعالى مع دراستهم التوراة .

ولا تعجب، فإن النفوس الإنسانية كثرت أنواعها حتى فاقت أنواع الخلائق أجمعين، فما شئت أن ترى إنسانا قد فاق الملائكة إلا رأيته، وما شئت أن ترى إنسانا شرا من إبليس إلا رأيته، وما شئت أن ترى إنسانا أضر من الوحوش الكاسرة إلا رأيته، وما تقول فى إنسان بلغت به الجهالة بنفسه إلاّ أن يبنى مرتفعا من الطين ليصل إلى ربه فيقتله بحربته ؟ .

الإنسان مَلَك وأفضل، وشيطان وأشر من الشيطان، ووحش وأضر، وجماد وأسفل. فالإنسان ــ مع صغر حجمه بالنسبة للعالم، وكثرة ضرورياته إلى ما أحاط به ــ قد جمع الحقائق كلها . ومادام الإنسان فى الإنسانية فهو جاهل بنفسه، جاهل بربه، حتى يخرج من سياجها الظلمانى، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ آلإِنسَنَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ** ﴾(١) ومن خرج من إنسانيته وتشبه بالعالم الروحانى ؛ كان إنسانا كاملا فوق العالم أجمع، فيمنحه الله معيته، أو عنديته سبحانه، أو لدنيته، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا** ﴾(٢) وقال سبحانه : ﴿ **إِنَّ آلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ** ﴾(٣) وقال جل جلاله : ﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ** ﴾(٤) .

﴿ **بِغَيْرِ حَقٍّ** ﴾ القتل بحق محصور فى ثلاثة أمور :الأول : أن يرتد المسلم عن دينه فيُقتل بحق . الثانى : أن يَقتل إنسانا فيُقتل حدا بحق . والثالث : أن يزنى وهو محصَنٌ فيُرجم حدا بحق .

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم الدعاة إلى الله حقا، والرحماء على الخلق، والمضحون بكل غال ورخيص فى سبيل نجاة الخلق من عذاب الله، فالواجب لهم أن نسمع منهم، ونطيعهم، ونجاهد هوانا فى هواهم، ونسلب من أنفسنا العواطف إذا دعتنا إلى مخالفتهم، ونهجر ملذاتنا وشهواتنا مسارعة إلى تنفيذ أوامرهم، فكيف يبلغ بالإنسان الهوى والحظ أن يقتل أمثال هؤلاء وقتلهم كفر وضلال وباطل ؟ !!. لذلك يقول سبحانه ﴿ **بِغَيْرِ حَقٍّ** ﴾.

---

(١) سورة العاديات آية ٦ .

(٢) سورة النحل آية ١٢٨.

(٣) سورة الأعراف آية ٢٠٦.

(٤) سورة النمل آية ٦.

﴿ **وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾ هذه الآية خبر من الله تعالى عما يكون يوم القيامة لأهل الكفر عند حشرهم إلى جهنم، فيحيط بهم العذاب من كل جهة، وتكون آلامهم أشد عندما يسمعون هذا الكلام من الله تعالى، ففى هذا الحال يشتد بهم البلاء ويتمنى كل واحد منهم أنه كان ترابا و لم يكن إنسانا، ولات حين مندم. وجائز أن يكون هذا الكلام عند الموت وذلك عندما ينكشف حجاب الكون عن الإنسان، بالموت، وأن يكون عند البعث . و ﴿ **الْحَرِيقِ** ﴾ فعيل بمعنى فاعل، يعنى : آلْمُحْرِق .

قوله تعالى : ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾

﴿ **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ** ﴾ الإشارة عائدة إلى الوعيد بأليم العذاب، و ﴿ **بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ** ﴾ أى : بذنوبكم التى كبلتم أنفسكم بها، وتلك الذنوب من ذنوب القلوب والجوارح، ولما كانت الأيدى هى آلات العمل أسند الفعل إليها . ﴿ **وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ نفى الله عنه بهذه الآية الظلم، لأن الظلم : التصرف فى ملك الغير، وهو سبحانه تفضل، وأحسن، ورحم، وأعطى المزيد من إحسانه ورحمته ببعثة الرسل لبيان السبل، وللأمر بما يحب، والنهى عما يكره، لنيل السعادة فى الدنيا والآخرة، فأبى القبول من الرسل من لا خلاق لهم، بعد قيام الحجة ووضوح المحجة، وبعد الإمهال، والحلم، والصبر من الله جل جلاله، بل وبعد أن قصمت المعجزة ظهور أهل الإنكار . فمؤاخذة مَن هذا شأنهم عدل، وليس للعبد بعد هذا البيان كله إلا أن يحكم على هؤلاء أن هذا الوعيد بالعقوبة، بل ووقوع العقوبة بالفعل عدل من حَكَم عدل، رءوف رحيم، حليم صبور .

قوله تعالى : الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿[١٨٣]﴾

هذه الآية الشريفة ما حقة للفتن المضلة، التى فتح بابها شر أهل اليهودية بعد الفتنة الأولى فى الآية السابقة، وهى مسألة المال كما قررت لك . وتقرير تلك الفتنة : أن كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، ومالك بن الصيف، ووهب بن يهوذا، وزيد ابن التابوت، وفنحاص بن عازوراء وغيرهم، أتوا رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فقالوا : يا محمد، تزعم أنك رسول الله، وأنه تعالى أنزل عليك كتابا، وقد عهد الله إلينا فى التوراة أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، ويكون لها دوى خفيف تنزل من السماء، فإن جئتنا بهذا صدقناك، فنزلت هذه الآية كما ورد ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما .

و ﴿ **الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ**﴾ هم من ذكرتُ لك قبل، فقصهم الله ظهورهم، ورد عليهم بالحجة القاصمه وهى قوله تعالى : (**قُلْ**) يا محمد هؤلاء الضالين المضلين : ﴿ **قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ يعنى سبحانه وتعالى أن الله تعالى أرسل لسلفهم رسلاً أيدهم بالمعجزات، وبكتب سماوية، وبإنزال النار من السماء تأكل ما قربوه، ومع ذلك فإن سلفهم لم يقبلوا منهم الهدى أو يتركوهم سالمين، بل إنهم قتلوهم، فوقعوا فى الكفر بالله وبرسله، وفى محاربة الله تعالى بقتل أنبيائه، وهذا دليل على أن نفوسهم عنادية خلقت من طينة الخبال . حتى لو أشرقت لهم الشمس ضحوة فى رابعة النهار، ودعوا أن يؤمنوا أنها

شمس لأنكروا وعاندوا، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا** ﴾(١) . وهل بعد الحق إلا الضلال ؟ وما أرسل الله الرسل إلا ليبينوا سبله، ويعلّموا الناس أحكامه سبحانه . ﴿ **بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ** ﴾ بينت هذه الآية الشريفة أن الرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام ؛ لم تكن معجزاهم جميعا إنزال النار من السماء، بل كانوا يأتون بالبينات التى هى المعجزات غير إنزال النار فى قول بعض العلماء : إن فى التوراة نزول النار شرط إلا فى رسالة عيسى ومحمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾ .

قوله تعالى : فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

﴿ **فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ** ﴾ هذه الآية أنزلها الله تعالى طمأنينة لقلب حبيبه محمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾، لما كان يحصل له من الحزن بسبب تكذيب أهل الكفر له، لحرصه على نجاهم من عذاب الله تعالى، وقد أزال الله عنه ما كان يلم به من حزن بهذه الآية الشريفة، فإن الله تعالى يقول له ﴿ **ﷺ وآله**﴾ : إن الذين سجل عليهم القضاء ــ يعنى يكونون كفاراً من الأزل ــ لا يقبلون الهداية من أى نبى ظهر فى أزمنتهم . وهذا من لدن الإنسان الأول : فقد قتل قابيلُ هابيلَ، وكُذِّب شيث عليه السلام، ونوح وإبراهيم ولوط وهود عليهم السلام من بعدهم، ولا يزال الإنسان ولن يزالوا يشرك أكثرهم . قال تعالى : ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ **فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ** ﴾(١) وقال

---

(١) سورة الكهف آية ١٧.

(٢) سورة سبأ آية ١٣.

تعالى : ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾(٢) و لم يقل لرسول الله سواه عليه الصلاة والسلام هذه الآيات، وإنما قيلت له صلوات الله وسلامه عليه ؛ لأنه مجمل باسمين من أسمائه وهما : الرءوف الرحيم، لأنه ﴿ **ﷺ وآله**﴾ حريص على إيمان العالم أجمع . أما الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ؛ فكان كل رسول كذّبه قومهُ دعا عليهم فأهلكهم الله تعالى، إلا يونس ابن متى عليه السلام، فإن الله أنجى قومه بعد دعائه عليهم . وكان رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ لحرصه إذا آذاه قومه قال : ﴿ **آللَّهُمَّ آهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ فهذه الآية وما يماثلها فى القرآن المجيد كمال تلطف من الله تعالى لحبيبه ﴿ **ﷺ وآله**﴾، لما يعلمه سبحانه وتعالى فيه من الرحمة والحرص، ولما قدره على أكثر الخلق . ﴿**جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ** ﴾ فالبينات هي، المعجزات الباهرات التى منها إنزال النار . ﴿ **وَالزُّبُرِ** ﴾ يعنى الكتب السماوية، أو هى الصحف ﴿ **وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ** ﴾ التوراة والإنجيل . وفى قوله تعالى : ﴿ **بِالْبَيِّنَاتِ** ﴾ هنا، وذكر الزبر والكتاب بعدها، برهان على أن الأنبياء السابقين عليهم السلام كانت دعوتهم غير حجتهم، و لم ينزل الله تعالى على نبى كتابا جامعاً للدعوى والحجة إلا على سيدنا محمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾، فإن القرآن المجيد دعوى حجة، حتى أن أقصر سورة منه معجزة لفحول اللغة العربية . وفى هذه الآية الشريفة دحض لدعوى منكرى نبوته ﴿ **ﷺ وآله**﴾، وبرهان على أنه خاتم الرسل وسيدهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، وفى هذه الآية دليل على أن الله تعالى أرسل الرسل لتقوم الحجة لله على أهل الشرك وليميز الله الطيب من الخبيث .

---

(١) سورة فاطر آية ٨.

(٢) سورة الكهف آية ٦.

قوله تعالى : كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ** ﴾ هذه الآية الشريفة تسلية لرسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ عما أصابه من الحزن بسبب تكذيب أعداء الله له ﴿ **ﷺ وآله**﴾، لأنه عليه الصلاة والسلام بتحققه موت كل نفس تحصل له المسرة، لما يناله أهل الإيمان بالله من السعادة الباقية، وما يصيب أعداء الله من العذاب الأليم .

وفى قوله تعالى : ﴿ **ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ** ﴾ بيان لفقد النفس لوازم الحياة البشرية التى تزول بموت الجسم فعلا، فإن النفوس بحسب جواهرها، فالنفوس التى جواهرها من النور تكون فى عليين، والنفوس التى جواهرها من النار أو من غيرها تكون فى سافلين أو فى أسفل سافلين حتى ينفخ فى الصور . والموت فى كل نوع من الأنواع: فقد لوازم الحياة من الغذاء والنمو فى النباتات، ومن الحس والحركة فى الحيوانات، ومن الحس والحركة والإرادة فى الإنسان . ﴿ **وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ يبين الله لنا أن الدار الدنيا مهما توفر خيرها، وتيسر نعيمها، وتمكن الإنسان فيها من نفوذ الكلمة وكمال العافية، فإن عاقبتها الموت، وأن ذكره قبل نزوله ينغص كل ملاذ الحياة، فكيف بنزوله ؟ بل وكيف إذا سمع المسلم قوله : ﴿ **وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ فهذه الآية تسلية كبرى للمؤمنين وإنذار للكافرين .

﴿ **فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ** ﴾ أى : جُذب بتوفيق الله وهدايته تعالى للبعد من موجبات النار، التى من أهمها الشرك بالله، ومخالفة أمره، والوقوع فيما نهى عنه . فإن المشركين ومرتكبى الكبائر فى نار جهنم فى الدنيا، نار العبد عن شهود أنوار الله تعالى وآياته، فإن ماتوا على ما هم عليه كبوا على وجوههم فى النار، إلا من هداهم الله تعالى صراطه المستقيم بحسن عنايته وتوفيقه، فكتب فى قلوبهم الإيمان وزينه فى قلوبهم، وأيدهم بروح منه، فأولئك هم الذين زحزحوا عن النار وأدخلوا الجنة . ﴿ **فَقَدْ فَازَ** ﴾ يعنى ظفر بالحسنين .

﴿ **وما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾ يعنى بذلك سبحانه أن متعة الحياة الدنيا من مأكلها، ومشربها، ومسكنها، وملاذها الشهوانية ؛ من تنفيذ الكلمة، وعلو المكانة، والجاه، والتسليط على النظراء، وما يلحق ذلك مما تهواه نفوس أهل الجهالة؛ إن هو إلا مشتهيات، يدعو إليها الغرور الكاذب بسرعة زوالها، وعظيم عقوبتها يوم القيامة . والمتاع : هو الأشياء التى يتمتع بها الإنسان ثم تطرح وتلقى مع القاذورات كالملابس، والأثاثات، والأوانى البالية التى لا ينتفع بها بعد . وهذه الآية تقوية لإيماننا بيوم القيامة، لأن قوله تعالى : ﴿ **الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** ﴾ بيان لأن هناك حياة أخرى . وفى لفظ ﴿ **الدُّنْيَا** ﴾ إشارة إلى دُنُوِّها منا، أو دناءتها . ويقابلها : الأخرى، البعيدة أو العالية .

قوله تعالى : لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

هذه الآية الشريفة تسلية لرسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ وأصحابه فى حادثة أحد، وختامها معجزة عظمى لرسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ وهو قوله : ﴿ **وَلَتَسْمَعُنَّ** ﴾ .

واللام فى قوله : ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ** ﴾ للقسم، والنون للتوكيد لتقوية الخبر . والابتلاء هنا : الاختبار، من حيث ظاهر العبارة . ومعناها فى الحقيقة : ليقدرن الله عليكم نقصا فى الأموال وفى الأنفس المحبوبة لكم . وحكمة هذا التقدير، أن يدوم لكم الالتجاء إلى الله تعالى، والانكسار على أعتاب العبودية، لتفوزوا بفضله العظيم الذى يتفضل به على أهل المجاهدة، وجبه العلى الذى يمن به على الشهداء من خاصة عباده . ولينفذ قدره فى أعدائه الذين قدَّر أن يكونوا مخلدين فى سعير الحطمة لكفرهم به سبحانه، ومحاربتهم رسله وأولياءه ودعاة الحق من الناس . إذاً المعنى اللغوى لقوله تعالى : ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ** ﴾ لا يناسب عقلا أن يسند إلى الله بمعناه اللغوى، لأن الله تنزه عن أن يجهل حقيقة أمر مخلوق خلقه فيبتليه لتنكشف له حقيقته بعد أن جهلها . ﴿**فِي أَمْوَالِكُمْ** ﴾ والبلاء فى الأموال هو بذلها فى الجهاد، واشتغال الرجال فى المجاهدة فلا يشتغلون فى المال لينمو، فينقص من غير أن يزيد . ﴿ **وَأَنفُسِكُمْ** ﴾ والبلاء فى الأنفس قتلها فى الميدان . وفى نقص الأموال والأنفس بلاء كبير من الله تعالى، تنكشف به حقائق المسلمين، فيظهر المؤمن الكامل والمنافق ؛ لرسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ولأصحابه، فإذا أعاد الله للمسلمين الكرة على الكافرين، وأظهرنا عليهم، فرحنا بنصر الله وذل أعداء الله، فلم يمكنهم كيدنا، بعد أن ظهرت حقائقهم لنا بالبلاد الذى قدره الله تعالى .

﴿ **وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا**﴾ ونزلت هذه الآية فى فنحاص سيد بنى قينقاع وكعب بن الأشرف، فالأول أرسل له ﴿ ﷺ **وآله**﴾ أبا بكر برسلة يطلب بها منه أن يمده بمال، فتقلد أبو بكر سيفه وتوجه إليه فى قينقاع ؛ فلما بلغه الرسالة قال : إن ربكم افتقر حتى يطلب منا المال !! فهمّ أبو بكر أن يضربه بالسيف لولا أن رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ قال له : (لاَ تَفْتَئِتْ عَلَيَّ) أى : لا تحدث حدثا يؤلمنى . وأما كعب بن

الأشرف فإنه كان يناوىء النبى عليه الصلاة والسلام ويذمه بالشعر، ويعين على أذيته حتى أفرط، فتوجه إليه محمد بن مَسْلَمة فى خمسة رجال من الأنصار فيهم محمد بن عبس، وكان كعب يسمر فى الليل هو وأصحابه ويهجو النبى عليه الصلاة والسلام، فأتوه وهو فى مجلس قومه بالعوالى، فلما رآهم ذعر منهم فقالوا : جئناك لحاجة، قال : فليدن إلى بعضكم فيحدثنى بحاجته، فجاءه رجل منهم وقال : جئناك لنبيعك أدرعاً عندنا لنستنفق بها، فقال : والله لئن فعلتم لقد جهدتم ــ أى افتقرتم ــ منذ نزل بكم هذا الرجل ــ يعنى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾ ــ فواعدوه أن يأتوه عِشاء حين تهدأ عنه الناس .

فأتوه فنادوه، فقالت امرأته : ما طرقك هؤلاء ساعتهم هذه لشىء مما تحب، قال : إنهم حدثونى بحديثهم وشأنهم . قال معمر : فأخبرنى أيوب عن عكرمة أنه أشرف عليهم فكلمهم : أترهنون أبناءكم ؟ وأرادوا أن يبيعهم تمراً، فقالوا : إنا نستحى أن تعير أبناؤنا فيقال : هذا رهينة وسق، وهذا رهينة وسقين، فقال : أترهنون نساءكم ؟ قالوا : أنت أجمل الناس ولا نأمن، وأى امرأة تمتنع منك لجمالك ؟ ولكنا نرهنك سلاحنا، فقد علمت حاجتنا إلى السلاح اليوم، فقال : ائتونى بسلاحكم واحتملوه ما شئتم، قالوا : انزل إلينا نأخذ عليك وتأخذ علينا . فأراد النزول، فتعلقت به امرأته وقالت : أرسل إلى أمثالهم من قومك ليكونوا معك، قال : لو وجدونى هؤلاء نائما ما أيقظونى، قالت : فكلِّمْهم من فوق البيت، فأبى عليها ونزل إليهم يفوح ريحه، قالوا : ما هذه الريح يا فلان ؟ قال : هذا عطر أم فلان (امرأته) فدنا إليه بعضهم يشم رائحته، ثم اعتنقه وصاح : اقتلوا عدو الله، فسبق إليه رجل منهم بالسيف، فانضم على محمد بن مسلمة، فقطع السيف رجل محمد بن مسلمة، فأسرع إليه أبو عبس فطعنه فى حاصرته، واحتمل الأنصار صاحبهم وأتوا به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فنفث على الركبة ولصق بها الرجل فعادت كما كانت، وهى

من معجزاته ﴿ﷺ **وآله**﴾ . وكما حصل ذلك مع كعب اليهودى الذى قتله عبدالله بن جحش فى حصنه، وعند نزوله من المسلم قفز فكسرت فخذه، فأعادها رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ وشفيت بإذن الله . ولما قتلوه ورجعوا أصبح اليهود مذعورين، وجاءوا إلى رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ فقالوا : قتل سيدنا غيلة . فذكرهم النبى ﴿ﷺ **وآله**﴾ صنيعه، وما كان يحض عليه فى قتالهم، ويؤذيهم، ثم دعاهم إلى أن يعقد بينه وبينهم صلحا، فكان ذلك الكتاب مع علىّ كرم الله وجهه.

وأهل الكتاب هنا هم اليهود الذين قالوا : ﴿ **يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ** ﴾(١) وقالوا : ﴿ **إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء** ﴾(٢) وقالوا : ﴿ **إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ** ﴾(٣) وقالوا ما بينت لك عن فنحاص وكعب ابن الأشرف. وأما الذين أشركوا، فهم النصارى الذين قالوا : إن المسيح ابن الله .

وقد بينت لك أن هذه الآية معجزة، فإن اليهود والنصارى ــ أذلهم الله ــ منذ انبلاح فجر الرسالة إلى الآن يؤذوننا فى ديننا، وفى نبينا، وفى أموالنا وأنفسنا . ولا تزال تلك الأذية والبلايا والمضار تكال منهم كيلا، انظر إلى دعاة النصرانية المنتشرين كالجراد المفسد، والسيل المدمر، والسموم والأوبئة الفتاكة لا تخلو منهم أمة ولا قرية . أصبحوا كما قال تعالى : ﴿ **فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ** ﴾(٤) وقال

---

(١) سورة المائدة آية ٦٤.

(٢) ، (٣) سورة آل عمران آية ١٨١ ، ١٨٣.

(٤) سورة الأسراء آية ٥.

سبحانه :﴿ **وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ** ﴾(١) وبذلك تعين علينا أن نقاتل أئمة الكفر كافة، بكل أنواع الجهاد المشروعة بقدر استطاعتنا، فإنهم يقاتلوننا كافة بكل أنواع الجهاد التى لم تشرع ،ولم يرضها العقل، وعداوة للدين وكفرا بالله ﴿ **أَذًى كَثِيرًا** ﴾ وأهل الكتاب والذين أشركوا، لا يتركون هذا الأذى الكثير إلا إذا أذلهم الله فأظهر الدين بأهله، وجعلهم أرقاء يباعون فى أسواقنا كما كانوا، ويؤمئذ تكون رحمة المسلمين بهم ؛ إما الإسلام أو استئصالهم . فإن الحكم الشرعى فى أهل الكتاب والمشركين كان : الإسلام، أو الجزية، أو القتل . ولكن بعد تلك التجربة، وبعد أن نشر الإسلام ألويته ودق أوتاه، وبعد أن علم الخاص والعام، وأصبح الواجب : الإسلام، أو القتل . وسيكون لهذا الكلام حقيقته، خصوصاً إذا نزل عيسى بن مريم فى آخر الزمان، وكسر الصليب، وقتل من لم يسلم من أهل الصليب . والأذى الكثير بخبر القرآن المجيد قليل على ما وصل إليه أهل الكتاب والمشركين من الأذية إلينا . ومَن علم بأحداث فلسطين وبمكائد الصليبيين بالنسبة للمسلمين، يفهم معنى قوله تعالى : ﴿ **أَذًى كَثِيرًا** ﴾ .

﴿ **وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾ يبشر الله المسلمين بما يتفضل به عليهم إن هم صبروا، بما أمرهم به من بذل المال والنفس فى سبيل الله، ومن المسارعة إلى تأدية الفرائض والمندوبات، عبادة وأخلاقا ومعاملة فى القيام بما أمرهم به بقلوبهم، وأبدانهم، وجوارحهم . والصبر هنا يكون على ما يصيب المسلم من نكبات الدنيا، ومن المصائب التى تعتوره فى سبيل إعلاء كلمة الله ﴿ **فَإِنَّ ذَلِكَ** ﴾ أى : فإن الصبر والتقوى من عزم الأمور، أى : من الأمور التى عزمها الله، بل من القوة التى يتفضل بها على أهل الإيمان . وأمور عزمها الله تعالى ؛ ومنح القوة لأهل الإيمان على تأديتها ؛ لهى الأمور التى يرفع الله بها من وفقهم للمسارعة إليها إلى

---

(١) سورة التوبة آية ١٢.

أعلى عليين، وهى من خير البشائر التى أخبرنا الله عنها، قال تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾(١) وقال سبحانه : ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ ﴾(٢).

قوله تعالى : وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾

﴿ وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ ﴾ أى : اذكر يا محمد إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب، وهم بنو إسرائيل ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ ﴾ أى : لتبينن نبوة محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، وصفته أنه خاتم الرسل ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ الذين يظهر فى زمانهم، كما بينه موسى وعيسى وغيرهما ببيان الله لهم، كما كنتم تستظهرون ببعثته على كفار قريش، وتهددونهم بأنه إذا ظهر تنصرونه عليهم، ﴿ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ ﴾ فلما أظهره الله تعالى ودعا دعوة الإسلام ؛ أبت نفوسهم الخبيثة إلا أن تقع فيما وقعت به مع الرسل السابقين عليهم السلام، فجحدت، وأنكرت ما أنزله الله تعالى على رسله السابقين من نعت نبيه محمد ﴿ ﷺ وآله﴾، وهو قوله تعالى : ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ ﴾ أى : أخفوه عن الناس كالمنبوذ وراء الظهور .

﴿ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ من فنحاص وكعب بن الأشرف وغيرهما، وهم أحبار اليهود الذين سمعوا كلام رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ فاعترفوا بنبوته، وخرجوا إلى كعب بن الأشرف، فلما رغبهم فى المال أنكروا ما اعترفوا به أمام الصحابة، وتلك عادة طبعهم الخبيث، ونفسهم الأمارة، وهذا كله بعد أن أمرهم سبحانه باتباع النبى

---

(١) سورة يونس آية ٦٤.

(٢) سورة آل عمران آية ١٧١.

الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة . قال سبحانه : ﴿ **وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُم** ﴾(١) وبعد أن أظهر لهم ﴿ ﷺ **وآله**﴾ غيوبا فى التوراة والإنجيل لم يعلمها إلا كبار أحبارهم ؛ بيانا تحققوا صحته، وانقلبوا على وجوههم، وعادوا لما كان عليه شرار سلفهم ؛ الذين قتلوا الأنبياء وكذبوا الرسل، وهنا شنع الله عليهم، وذمهم ذما أحاط بهم قوله تعالى : ﴿ **فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ** ﴾ أى : أنهم استبدلوا الهدى بالضلال، والحق بالباطل، والنور بالظلمة .

قوله تعالى : لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

﴿ **لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ** ﴾ وهذه الآية الشريفة نزلت فى أنواع من معاصرى رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، منهم المنافقون الذين كانوا يظهرون الخروج مع رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فى المغازى ثم يتخلفون، فإذا رجع رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ منصورا اعتذروا إليه فقبل اعتذارهم، ففرحوا بعملهم هذا، وجهلوا أن الله لا تخفى عليه خافية .ومنهم أشخاص معينون من اليهود، كفنحاص سيد بنى قينقاع، ونظرائه الذين كانوا يفتنون الصحابة بما كانوا يكذبون به على الله وعلى رسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾، ويفرحون إذا أظهروا للناس أنهم عباد، أنهم علماء بالباطل . ومنهم بعض اليهود الذين كانوا يكتمون ما أنزله الله فى التوراة من صفات محمد ﴿ ﷺ **وآله**﴾، وإذا سئلوا عن ذلك أجابوا بالكذب والضلال، يفرحون بما أوتوا من ذلك . وقد بلغ ببعض أهل الإيمان من الورع أنه فهم

---

(١)سورة البقرة آية ٤٠.

أن تلك الآية نزلت فينا، فقال بعضهم : ما لكم ولها ؟ إنها نزلت فى اليهود الذين أنكروا ما أنزله الله فى التوراة من صفات محمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾ .

ومعنى الآية الشريفة : ﴿ **فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ** ﴾ أن الله ينهى حبيبه محمدا ﴿ **ﷺ وآله**﴾ عن حسبان أن اليهود الذين أنكروا نُبوته المؤيدة بالتوراة عندهم، وأن كفار قريش من المنافقين الذين يظهرون غير ما يبطنون، ويفرحون بما أتوا، ويجملون ظواهرهم للخلق مع سوء مقاصدهم ونواياهم، وبذلك يحبون أن يمدحهم الناس فيقولون عنهم إنهم عباد علماء، مع ما هم عليه من الخبث والخدع لأهل الإيمان، ومن افتراء الكذب على الله وعلى رسوله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، بمفازة من العذاب الأليم أو بمنجاة من الوقوع فيه فى هذه الدار الدنيا، من الخسف، والزلزال، والغرق، والشرق، والأمراض، والحروب، وكل ذلك عاجل فى الحياة الدنيا . ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ أى : ومع ما يعجله الله لهم من عذاب الدنيا فلهم عذاب أشد وأنكى يوم القيامة . .

وهذه الآية الشريفة وإن كانت خاصة بمن ذكرنا وبغيرهم ممن نزلت الآية بسببهم، فإن كل فَرِحٍ بما أتى مما يغضب الله، متجمل للخلق حبا فى مدحهم له بما لم يفعل، فإن الذى يجمل ظاهرة للخلق ـــ مع خبث سريرته وسوء ضميره وفساد نواياه ـــ كان ممن يطلب الدنيا بعمل الدين، وهو الذى حكم عليه رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، باللغة قال عليه الصلاة والسلام : (مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ، قَالُوا : مَن يَا رَسُولَ آللهِ ؟ قَالَ : مَن طَلَبَ آلدُّنْيَا بِعَمَلِ آلأَخِرَةِ) وبهذه الأعمال الخبيثة يكون له قسط وافر من هذه الآية الشريفة . وأما من فرح بما أتى من أعمال الصلاح والبر، وأحب مدح إخوته المسلمين ـــ مع حسن سريرته وطويته ـــ فهو مؤمن، قال عليه الصلاة والسلام : (آلْمؤمِنُ مَن سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَأَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ) .

قوله تعالى : وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

تقدم تفسير هذه الآية ضمنا فى قوله تعالى : ﴿ **لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاوات وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾(١) . ونزيدك هنا أن ارتباط هذه الآية بما قبلها ؛ أنها قصم لظهور أعدائه اليهود الذين أشاعوا السوء كنفحاص وغيره، عندما طلب منهم رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ المساعدة على دفع الأعداء عن المدينة فقالوا : ﴿ **إِنَّ آللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ**﴾ فكذبهم الله وأخزاهم بقوله : ﴿ **وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ أى : هو الذى أوجدها بافتتاح إيجادها بقدرته، وأمدّها بما زيّنها به من أفلاك سائرات وثابتات، وأنهار، وحيوانات، ونباتات، ونسيم عليل بليل،وغير ذلك من أنواع النعم التى لابد منها لوجود من عليها، وما بين كل سماء، وما بين الأرض والسماء . ومن كانت هذه صفته تنزه وتعالى عن الفقر، فتقوم الحجة على قوله تعالى : ﴿ **وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ ﴿١٩٠﴾

﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** ﴾ بيّن الله سبحانه فى الآيات السابقة الأحكام والقصص وأنواع الناس بالنسبة للإسلام، ثم أخذ يبين دلائل التوحيد وحججه الجلية ومآخذه، كما بين بعض ذلك فيما سبق فى قوله : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ** ﴾(٢) الآية، من سورة البقرة، وهى سنة القرآن المجيد .

---

(١) سورة البقرة ٢٨٤.

(٢) سورة البقرة آية ١٦٤.

لأن الله تعالى أعطى كل قوة من القوى التى جعل منها الإنسان وهى الجسم، والحس، والعقل، والنفس، فبيّن عبادات كل قوة منفردة ومزدوجة مع غيرها، وبيّن ما يحبه من الأخلاق، والمعاملات، وبيّن العقائد مفصلة بحججها الناصعة، ووعد سبحانه من وفقهم لقبول ما ارسل به الرسل عليهم الصلاة والسلام بالنعيم فى الدنيا وفى الآخرة، وتوعد من خالف الرسل بالخزى والذل فى الدنيا ؛ والعذاب الأليم يوم القيامة . وهذه الآية الشريفة كشفت الستار عن غيب الآيات فى خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، الدالة على وحدانية الله وقدرته سبحانه، بل وتفريده بإيجاد كل شىء، إمداده بما لا بد له منه، وقد سبق تفسير هذا فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ الآية، فى سورة البقرة . فذكر سبحانه فى الآية الأولى الحقائق المحسوسة الملموسة التى خلقها لحاجات الإنسان فضلا منه، وكرماً، وفى تلك الحقائق من بدائع صنع البديع سبحانه، مما يجعل القلوب تطمئن بكمال قدرة الله وحكمته، والنفوس تسكن إليه تنزه وتعالى . تلك الآية السابقة أظهرت أنوار تجليات الحق للعقول، وقد كتبتُ رسالة فى التوحيد عن تفسير تلك الآية سميتها : (عقيدة النجاة) وفى هذه الآية التى نشرحها بيان لصفات العبد الكامل، فقد جمع الله لنا فى الآيتين صفات الربوبية، وصفات العبودية.

﴿ **لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ لما كان ظاهر العقل يسمى عقلاً، وباطنه يسمى لُبًّا ؛ وكانت الآية السابقة حججا محسوسة يعقلها من عنده ملكه عقل ؛ قال الله فيها : ﴿ **لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾(١). ولما ذكر هذه الآية قال سبحانه : ﴿ **لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ بيان أن خلق السموات والأرض ؛ واختلاف الليل والنهار ؛ كان من

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٤.

حيث التكوين والتركيب والتدبير الإِلهى لحفظ وبقاء تلك الحقائق التى تدركها العقول وتصل إليها إذا ذكرت بها .

وأما هنا : فلحكمة الله تعالى فى الإِيجاد والإِمداد، ولِسِرِّ تعلق الأسماء والصفات بآثارها، ولظهور معانى أسماء الجمال والجلال فى كل كائن من الكائنات ـــ وتلك الأسرار لا يدركها إلا من تفضل الله عليه بالقابل، وأحسن إليه بالفيض المقدس، والفيض هو ما جاء به رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، والقابل هو النور الذى يجعله الله سبحانه لمن اجتباهم من خلقه ـــ لتلك الحكمة قال تعالى : ﴿ **أُوْلِي الألْبَابِ** ﴾ .

ولما كان أهل الاختصاص من الله منحهم الله تعالى الهمة فى علم ما يحبه سبحانه من أحبابه، اشتاقوا أن يَعْلَمُوا الصفات التى يجمل بها من اجتباهم من خاصة خلقه، ليسارعوا إلى التجمل بها بتوفيقه وعنايته سبحانه، قال تعالى مبينا محابه ومراضيه من عباده المخلصين ؛ وافتتح صفاقم بعمل اللسان والأركان فقال سبحانه : ﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ . . .** ﴾ .

قوله تعالى : الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾

﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ** ﴾ فوصفهم بالذكر فى كل أحوالهم، وهذا لا يكون على الوجه الأكمل إلا فى الصلاة، لأنها تجمع الذكر بقراءة القرآن، والتهليل والتسبيح والتحميد، والتبتل فى كل حركة وسكنة .

ولما كان من لا يطيق الصلاة قائما ولا قاعداً يصلى مضطجعا ؛ ذكرت لك أن أكمل الذكر يكون فى الصلاة، وهذا ليس حصراً حقيقياً، فإن الإِنسان مطالب أن

يجعل كلامه كله ذكراً برعاية ما يحبه الله تعالى من الإنسان فى قوله وعمله، بل فى كل شئونه التى لا يخرج عنها كالأكل والشرب وقضاء الحاجة، والأعمال كالتجارات والزراعات، بل وفى كل أحواله الشخصية فى نوم، ويقظة، وفرح، وحزن، ورضا، وما لابد له منه، وبذلك يكون مع الله تعالى، لا يغفل إذا غفل الغافلون ؛ ولا ينسى إذا نسى الناسون، وقليل ما هم . قال تعالى : ﴿ **وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾(١) وذلك لا يكون إلا بدوام مراقبة الله فى كل الحركات والسكنات .

وهذا حال السالكين طريق الله تعالى، الذين يجاهدون أنفسهم قهراً لها على العمل بالكتاب والسنة، فإذا فطر على الأجمل والأشراف من السنن المحمدية، واستراح بقهر نفسه النزوعية والشهوانية والإبليسية للفراغ بكلية للسياحة الفكرية فى ملكوت السموات والأرض، ومحصنا بحصون الشريعة المطهرة، وفى هذه الحال الشريفة العلية يبلغ درجة علم اليقين، الذى يجعله مطمئن القلب من لمة الشيطان، ومن مقتضيات البشرية، فيشتغل بالفكر آمنا على نفسه من وسوسة الشيطان، قال سبحانه وتعالى : ﴿ **أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾(٢) ويفتح الله له باب التفكير فى آلائه لتجلى له أسرار تلك الكائنات، وقد فصلت لك هذا الموضوع فى كتاب : (النور المبين) تفصيلا يليح لك الغيب المصون جليا، والحس الحاجب خفيا، فلا تقهرك شهوة بطنك، ولا تشغلك شهوة فرجك، ولا تقطعك أهواؤك وحظوظك، بل يكون هواك متحداً مع رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، وحظك كشف حكمة الله فى الكائنات، وظهور أسراره الدالة على أسمائه وصفاته .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٢.

(٢) سورة الأنعام آية ٨٢.

قال تعالى بعد أن أخبرنا عن أحبابه أنهم يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم : ﴿ **وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ ولما كان الذكر والفكر عَمَلَيْن أَهَّلَ الله الإنسان لهما بما أودعه فيه من العقل الذى يعقل عنه، وما أمده به من الهداية والتوفيق، وما كتبه فى قلبه من الإيمان، وما زين به الإيمان فى قلوبهم، وما أيدهم به من روحه، كان لابد من الذكر والفكر ليتفضل الله على الإنسان بما لا يناله بجهاد ولا برياضة، من الشهود، والحب، والقرب، قال ﴿ **ﷺ وآله**﴾ : (تَفَكَّرُوا فِى آلاَءِ آللهِ وَلاَ تَفَكَّرُوا فِى ذَاتِهِ) . وقد أثنى الله على من وفقهم للفكر والذكر والتدبير فى آيات كثير ة من القرآن، وكل مسلم شغلته ضرورياته وكمالياته الجسمانية عن كمالاته الروحانية كان من الغافلين . ومن جهل سر الله فيما أحاط بنا مما هو تحت حسّنا، أو غيبه فيما أخبرنا به من مغيباته، جهل بقدر تلك الحقيقة من مقام ربه . فإن الله تنزه وتعالى حكم أنه لا تدركه الأبصار، وأنه سبحانه يدرك الأبصار، والأبصار التى ذكرها الله هنا هى الأرواح والعقول والحواس جميعها . ولعل قائل يقول : إن الله أخبرنا أننا نراه، فأقول للسائل : الإدراك شيء والرؤية شيء آخر، وأنت أيها السائل ترى الشمس، فهل أدركتها حقيقة وكما وكيفاً ؟ وكذلك ترى النور والظلمة، فهل أدركتهما ؟ (لا) بل ترى الكهرباء وآثارها المدهشة، فهل أدركت حقيقتها ؟ إذن فإنا نرى ربنا كما ثبت ذلك فى القرآن الشريف والسنة، ولكنه تنزه وتعالى عن أن يدركه غيره .

وبعد الفكر فى خلق السموات والأرض الذى جملهم الله به بعد الذكر، يكشف عنهم الحجاب جل جلاله، فيرون الكون آثار قدرته وحكمته، ويرون من أنوار معانى الصفات فى الكائنات وجه الله تعالى أقرب إليهم من أنفسهم التى بين جنوبهم، فيخاطبون ربهم جل جلاله القريب، وخطاب القريب من القريب، خطاب من شهد أنواره فى آثاره، وصفاته فى أنواره، وأسماءه فى صفاته، فينادونه

نداء تبتل بعد علم بسر الحكمة قائلين : ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً** ﴾ بل خلقته لحكم، انبلج لنا من أنوارها بقدر ما وهبت لنا من القابل، حتى شهدنا من الدلائل والحجج ما به جذبتنا تلك الغيوب إلى الفرار إلى حضرتك العلية، لتزيدنا علماً بمعانى صفاتك . حتى تسكن نفوسنا إليك يا منفسها، وتطمئن قلوبنا بذكرك ﴿**سُبْحَانَكَ** ﴾ علوا لك على أن تدرك العقول غوامض أسرارك فيما انبلج لنا من آيات ما أبدعته يا بديع، فكيف تحوم الأرواح حوالى فناء عظمتك وكبريائك ﴿**فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ أى : احفظنا من الغفلة والنسيان، ومن المعصية والمخالفة التى توعدت فاعليها بعذاب النار يوم القيامة، وهذا مقام السالكين . وأما مقام الواصلين : ﴿ **فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ نار الحجاب عن شهود آياتك وفقه بيناتك . وأما المتمكنين فيطلبون وجداً لا تواجداً : ﴿ **فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ نار الشغل بالحب عن المحبوب، وبالعلم عن المعلوم، وبالنعمة عن المنعم، حتى يقع بنا العلم على اليقين فى مقام التمكين بعد التلوين .

قوله تعالى : رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾

﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ** ﴾ بسابقة السوءى دخولاً مخلداً فيها ﴿ **فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ** ﴾ أى : أهلكته، والله تعالى لا يخزى أهل الإيمان ولو أنهم فعلوا الذنوب، ولو قدر عليهم دخول النار لتطهيرهم من نجاسات ذنوبهم، قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَه** ﴾(١).

---

(١) سورة التحريم آية ٨.

وبهذا اندفع قول من قال : إن مرتكب الكبيرة إذا دخل النار فقد أخزاه الله، وعلى ذلك يحكم على مرتكبى الكبيرة بالكفر، وهذا ليس مذهب أهل التحقيق، قال تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾(١).

﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ أى : ليس لمن ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من أنصار ينصروهم، وإنى أعتقد أن النصرة يوم القيامة عند الله تكون بالتوبة قبل الموت، وبالعفو من الله ولو لم يتب المؤمن من ذنوبه، وبشفاعة الأقارب الذين أحسن المسلم إليهم، وبشفاعة الإخوان الذين انتفعوا بالمسلم فى دار الدنيا، وبشفاعة الملائكة كما ورد، وهؤلاء كلهم أنصار أذن الله لهم بالشفاعة لديه لمن شاء .

قوله تعالى : رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ ﴿١٩٣﴾

هذا المنادى للأرواح فى يوم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾(٢). حيث أخذ الميثاق، وفى دار الدنيا هم رسل الله وأنبياؤه، والدعاة إلى الخير والقرآن المجيد، فإن المنادى بالإيمان معلوم، هذا هو المؤمن به . ﴿ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ ﴾ أى : صدقوا بربكم (**فَآمَنَّا**) أى : قبلنا لما تفضلت به علينا من القابل، وما أعنتنا به من الهداية، وأكرمتنا به من بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، ذلك فضلك العظيم لك الحمد ولك الشكر ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ هم كمل أولى العلم، فظهر لهم من كمال العلم عجزهم

---

(١) سورة النساء آية ٣١.

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٢.

عن القيام بالشكر للمنعم بأهم جلا جلاله، وعن القيام بحقوق العبادة الواجبة عليهم بالقلب والروح، والعقل والجسم، وحققهم العلم بأهم بقصورهم وتقصيرهم يستحقون عذاب النار عدلاً . وجملهم العلم بالطمع فى فضل الله ورحمته، لأنه لا تضره معاصيهم ولا تنفعه طاعاهم ،فسألوه سبحانه وتعالى أن يغفر لهم ذنوبهم فضلا منه . وهذا الدعاء يشرح الصدر ويطمئن القلب، ويجعلنا نطمع فيما نحبه من الله، فيمنحنا ما هو أكمل مما نحب، كما ورد أن الله يمنح رضوانه الأكبر لأهل الجنة بعد أن يعرفوا بأهم نالوا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيتفضل بالمزيد عليهم بما لا يتصورنه من الخير والنعيم . والغفر : هو الستر، والمعنى : استُرْ عَنَّا ذنوبنا وعن جوارحنا ومعالمنا من الأرض ؛ حتى نلقاك وليس علينا شاهد بذنب .

﴿ **وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا** ﴾ أى : استرها عنا أيضا . ويظهر أن الفرق بين الذنوب والسيئات : أن الذنوب هى أعمال الخطايا من الكبائر، وأن السيئات هى الخطايا أيضا من الذنوب إلا أنها أقل، قال الله تعالى : ﴿ **إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا** ﴾(١).

﴿ **وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ** ﴾ هذه الآية الشريفة تدل على كمال أدبهم وسعة علمهم، لأنهم لم يقولوا : وتوفنا أبراراً، لأن البارَّ من بر ربه، وإن لم يكن هؤلاء الذين وصفهم الله بأكمل صفات العبودية يكونون أبراراً ؛ فمن يا ترى يكونوا ؟؟! ولكن العلم ملأ قلوبهم خشية من الله، فتأدبوا لحضرته أدب العلماء بالله، الذين لا يأمنون مكر الله كما قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا** ﴾(٢)

---

(١) سورة النساء آية ٣١.

(٢) سورة الفرقان آية ٦٤.

وليست الواو للعطف بل هى للمدح ﴿ **وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا** ﴾ هم الذين يقولون : ﴿ **رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ** ﴾(١)، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (أَدَّبَنِى رَبِّى فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِى) وهؤلاء علية جملهم الله بقسط عظيم من آداب رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ .

قوله تعالى : رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

﴿ **رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ** ﴾ معنى هذه الآية أنهم رضي الله عنهم يسألون الله تعالى أن يعطيهم النصر على الأعداء، وأن يعلى كلمته، وأن ينشر دينه من حيث لا يحتسبون . لأنهم كانوا فى قل وذل، وكان الكفار فى كثرة وقوة، وذلك بعد يقينهم الحق أنه جل جلاله لا يخلف الميعاد، وتحققهم أنه عز وجل قادر، لا يعجزه شيء، وقد سمعوه جلا جلاله يقول : ﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** ﴾(٢) وهذا الدعاء لعلمهم إمهال الله، وصبره وحلمه على أعدائه، وهم يسألونه سبحانه سرعة إهلاك الأعداء ليستريحوا منهم، وليتفرغوا لعبادته وإعلاء كلمته . وهذا التأويل إذا فهمنا أن الآية دعائية . وإن فهمنا أنها سيقت مساق الخبر، كان معناها: آتنا الهداية والتوفيق و العناية، أقمنا بها مقام من وعدتهم على ألسنة رسلك بالفوز بالنعيم المقيم فى دار رضوانك الأكبر . فإن ظاهرها أنهم قاموا لله بما يتحققون به أنهم ممن وعدهم الله بفضله العظيم، ويسألونه الوفاء لهم بوعده، وفى فهم هذا الظاهر ما لا يليق بأدب العبيد المخلصين لرب العالمين . وجائز أن تكون الجملة

---

(١) سورة الفرقان آية ٦٥.

(٢) سورة آل عمران آية ٩.

دعائية ويكون المعنى : ﴿ **رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿**وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ** ﴾ ويكون قوله : ﴿ **رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ** ﴾ مؤولة بمعنى لنفوز بما وعدت به أحبابك على ألسنة رسلك، وهذا التأويل لم يسمع من فصيح كلام العرب . والذي يناسب الآية أنها دعائية، وأن الذى وعدهم الله به على لسان رسله هو النصر والظفر بإهلاك الأعداء، والتمكين فى الأرض بالحق للحق .

﴿ **وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ** ﴾ الخزى : هو الهلاك، أى لا تهلكنا بذنوبنا وسيئاتنا يوم يقوم الناس لرب العالمين . وقد وعد الله المؤمنين بأنه لا يخزيهم بقوله : ﴿ **يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ** ﴾(١) وهذه الآية الشريفة هى نور الذى يهتدي به السالكون طريق الله تعالى، وهى الميزان الذى يزنون به أحوالهم وأعمالهم، فترى أقرب مقرب من أهل الإيمان ؛ منكسر القلب أمام الرب جل جلاله ــ أدبا لحضرته العلية ــ طويل الحزن، كثير التبتل والتملق بين يديه عملا بعلمه .

قوله تعالى : فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

الاستجابة هنا هى الإجابة لمن سأل ربه مخلصا قلبه، صادقا لسانه . والألف والسين والتاء إشارة إلى أن الإجابة حصلت للسائلين بأعيانهم بدليل قوله تعالى :

---

(١) سورة التحريم آية ٨.

﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم**﴾ أى : أنى لا أضيع ثواب عامل منكم .وهنا (**لاَ**) نافية، و ﴿ **أُضِيعُ** ﴾ نفى، ونفى النفي إثبات، فإنه سبحانه نفى إضاعته ثواب الأعمال فثبت الثواب . ﴿ **مِنكُمْ** ﴾ من هنا بيانية، والمراد عمل عامل يعمل الخير . وقوله تعالى : ﴿ **مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى** ﴾ تقدم فى الهجرة ما يناسبها أنه سبحانه يذكر الرجال و لم يذكر النساء، فقالت السيدة أم سلمة : يا رسول الله إن الله ذكر الرجال و لم يذكر النساء . فأنزل الله تعالى هذه الآية الشريفة لبيان تفصيل الحقيقة . ﴿ **بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ** ﴾ ليس المراد منه الأنوثة أو الذكورة، بل المراد النوايا والعقود والأعمال .

﴿ **فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ** ﴾ الآية، بعد أن بين دلائل التوحيد فى الآية السابقة وفى الآية التى سبقت قبلها فى السورة التى تذكر فيها فى البقرة . علمنا الدعاء سبحانه، وبين لنا أن من آداب الدعاء المقبول، أن نفتتحه بالتسبيح والتحميد بعد الذكر الذى يستغرق أنفاس وهيئات الذكر، قياماً وقعوداً واضطجاعاً . بعد ذلك بشرنا جل جلاله باستجابته لنا وبين لنا أن الفضل بيده إذ لا فضل لأبيض على أسود، ولا لذكر على أنثى، ولا لعربى على أعجمى، بل ولا لحقيقة من نور أو نار عل حقيقة من طين، بل الفضل بيده لمن يشاء . وفى ذلك الصفاء للقلوب من شوب الشرك، بزهو حقيقة على حقيقة،و اعتماد حقيقة على حقيقة أخرى، بل الكل سواء عند الله تعالى كما سنبين فى الآيات الآتية .

وميز سبحانه وتعالى من خصهم بفضله، وأقامهم فى محابه ومراضيه، حتى يصح التشبه والتقليد لمن ثبتت لهم العناية وسبقت لهم الحسنى، فقال سبحانه : ﴿ **فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ** ﴾ أى : فارقوا أرض الكفر والفتن والإحن والمحن، فراراً بدينهم إلى حيث

تستريح أبدانهم من الشغل بغير القيام بالشكر لله، وتطمئن قلوبهم من خوف الوقوع فى الفتن المضلة . ﴿ **وَأُخْرِجُواْ** ﴾ الهجرة هي الخروج إلا أنه يكون بإرادة الإنسان وحرصه على حفظ أنفاسه مع ربه . وأما الإخراج فيكون بإكراه الأعداء وبخدعهم وكيدهم للمسلمين .

﴿ **مِن دِيَارِهِمْ** ﴾ وهم المهاجرون الأولون الذين هاجروا إلى الحبشة، ومنهم سيدنا جعفر الطيار، وعثمان بن مظعون ومن معهما هاجروا إلى الحبشة . ولما وصلوا إليها استأذنوا على النجاشي فقالوا لحاشيته : إن أولياء الله بالباب يستأذنون عليك، فلما سمع ذلك أنس قلبه، وقال مرحبا بأولياء الله فرحا . فهداه الله إلى الإسلام على أيديهم . وهاجر من المهاجرين الأولين أبو بكر رضى الله عنه . فلما بعد عن مكة قابله سيد القادة(١) فقال : فيم خرجت ؟ قال : أخرجنى قومى فقال : مِثْلُكَ لا يخرج، أورجعه إلى مكة وقال : هو فى ذمامى، فقال له أهل مكة : إنه رجل يتغنى بقول هذا الصابىء، فتجمع عليه النساء والصبيان والعجائز، فنخشى أن يصبأوا معه، فأخذ عليه العهد أن يتغنى بذلك، فلم يطب لأبى بكر الإقامة بدون أن يرتل القرآن فى الشوارع والطرقات، فبنى له حجرة وجعل لها أربعة منافذ، وصار يجلس فيها يقرأ القرآن فتجتمع عليه النساء والصبيان والعجائز، فأرسلت قريش إلى سيد القادة، فلما حضر قالت : إن أبا بكر خفز ذمامك فتبرأ منه، فقال أبو بكر : أنا فى حماية الله ووقايته، وبعد ذلك أُذن لرسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ فى الهجرة، فسأله أبو بكر الصحبة فقال : لك يا أبا بكر، وهاجر معه ﴿ **ﷺ وآله**﴾ أبو بكر .

﴿ **وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي** ﴾ أى : حصلت لهم الأذية فى محافظتهم على دينهم، وفى دعوة الأعداء إليه، كما حصل لبلال، ولياسر، وعمار ابنه، وسمية أم عمار رضى

---

(١) ابن الدُعُنَّة .

الله عنهم، وبغيرهم من المستضعفين من الرجال والنساء، فإنهم رضى الله عنهم وعناً بهم تحملوا من الأذية الفادحة قبل الهجرة، وفى الهجرة، وبعدها، ما جعلهم من القرب إلى الله تعالى بمكانة لو جاهدنا ألف سنة لا ننال نصفهم، وقد كتبت تراجم عشرة منهم فى رسالة خاصة(١) جعلت أكمل مجاهد إذا قرأ ترجمة رجل منهم، وتتضاءل فى نظره نفسه، وكفاهم شرفا أنهم بذلوا دينهم، ومالهم، ووطنهم، وأعراضهم التى هى محل المدح والذم، واحتقروا ما بذلوا شكراً لله على نعمته عليهم بحبيبه محمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾، فبذلوا النفوس على ظبى السيوف شكراً لله .

قال بعض العلماء : الهجرة انتهت بعد فتح مكة، ولم يبق إلا الهجرة من محارم الله إلى محابه ومراضيه . وقال بعضهم : لا يزال باب الهجرة مفتوحاً، وخصوصاً عند المقتضيات .

وعندى أن باب الهجرة فتح فى هذا العصر . دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا** ﴾(٢) والقابض على دينه فى هذا العصر كالقابض على الجمر، لأن أعداء الله بنى الأصفر جاسوا خلال ديارنا، وطعنوا فى ديننا، وسارع فيهم أهل النفاق رضا بالحياة الدنيا واطمئنانا إليها، ونسيانا ليوم القيامة، والواجب على المسلمين فى هذا العصر ـــ ممن يعجزون عن الهجرة إلى أرض إسلامية ـــ أن يتحصنوا، بحصن الأمن، وهو التحيز إلى فئة قوية مسلمة، أو يتحفزوا للقتال . ومن أشرب قلبه الرضا عن أعداء الله وظن أنه يعتذر

---

(١) راجع كتاب : (الفرقة الناجية) للإمام أبى العزائم رضى الله عنه .

(٢) سورة النساء آية ٩٧.

يوم القيامة أو نسى الآخرة ؛ كان ممن يقال لهم يوم القيامة : ﴿ **ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ** ﴾(١) أعاذنا الله وإخواننا المؤمنين من شرها .

﴿ **وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ** ﴾ قد قرئت : ﴿ **وَقَاتَلُواْ وَقُتِّلُواْ** ﴾، وقرئت بالتشديد، والمعنى على الرواية الأولى، وهى ﴿ **وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ** ﴾ بالتخفيف ظاهر . وعلى الرواية الثانية أن بعضهم قتل وبعضهم قاتل . ﴿ **لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ** ﴾ هذه الآية الشريفة أثبتت الشفاعة لأن الله تعالى شفع المؤمنين فى أنفسهم، فكيف لا يشفع الأنبياء والمرسلين ؟!! وذلك لأن الله لم يسبق خبر منه سبحانه وتعالى يدل على أنهم تابوا من ذنوبهم قبل موقم . إذن فالشفاعة تكون لأهل الخطايا يوم القيامة، وتكفير السيئات أى : سترها . ﴿ **وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ** ﴾ اللام فى ﴿ **لأُكَفِّرَنَّ** ﴾ ﴿**وَلأُدْخِلَنَّهُمْ** ﴾ للقَسم، والجملتان جوابان للقسم . والجنات هى البساتين التى لا يرى الخارج عنها داخلها، ولا داخلها الخارج عنها ﴿ **تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ أى : من تحت أشجارها، حتى يكون من يدخله الله فيها دائم الفرح والمسرة، غنيا بالله الاحتياج إلى شيء يتعب ﴿ **ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ** ﴾ أى : جزاء تفضل الله به علينا من عنده بلا حول منا، ولا قوة، ولا عمل، إلا بفضله وإحسانه ﴿ **وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ** ﴾ أى : حسن الجزاء الذى يتفضل به على من سبقت لهم منه الحسنى سبحانه .

قوله تعالى : لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ ﴿١٩٦﴾

﴿ **لاَ يَغُرَّنَّكَ** ﴾ الخطاب لرسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، والمراد أصحابه عليه السلام والأمة . وأسلوب القرآن إنما يخاطب الأمة، والمراد بالخطاب رسول الله ﴿ **ﷺ**

---

(١) سورة الزمر آية ٧٢.

وآله﴾، ويخاطب رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، والمراد الأمة، لأن الله عصمه من أن يغره شأن من شئون الكفار، لما أجلاه الله له من حقارة الدنيا ودناءها، وأنها لا تساوى جناح بعوضة عند الله تعالى . وسبب نزول الآية أن بعض الصحابة قال : إن أعداء الله فيما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع والجهد، فنزلت الآية . ومعناها : لا يغرنك ﴿ **تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ** ﴾ تصرف الذين كفروا فى خيرات البلاد ونعيمها، ومن وفرة الأموال، وكثرة الأولاد، ونفوذ الكلمة، ومن استدراج الله لهم، وإمهالهم ليرتكبوا ما يخلدهم فى النار يوم القيامة، إذا أخذهم سبحانه أخذ عزيز مقتدر فلا يفلتهم . نهانا الله جلا جلاله عن أن نغتر بما فيه الكفار من غبطتهم، وحظوظهم فى الدنيا وزبرجها وبين لنا سبحانه حقيقة ما هم فيه .

قوله تعالى : مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾

﴿ **مَتَاعٌ قَلِيلٌ** ﴾ المتاع ما يتمتع به الإنسان فيغنيه، بأكل أو شرب أو استعمال فى لباس وفراش وأثاث، حتى يفقد الإنسان النفع به فيطرحه فى أماكن القاذورات، و(**مَتَاعٌ**) هنا خبر لمبتدأ محذوف تقديره : ذلك متاع، أو هذا متاع، و(**قَلِيلٌ**) صفة له، ولفظ (**قَلِيلٌ**) من الله تعالى جعلته أحقر حقير . ﴿ **ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ** ﴾ أى : بعد هذا المتاع القليل، الذى لو نال الإنسان أجمله وأطيبه لما كان شيئا يذكر بالنسبة لنعيم الآخرة أو عذابها . وبعيشك، لو تذكر الإنسان أن معصية الله فى الدنيا باستعمال ما حرمه الله سبحانه تؤول بالإنسان إلى الخلود فى النار ؛ لتمنى أن يكون ترابا وهو فى الدنيا قبل الآخرة، و لم يقع فى معصية الله . وإنما كانت قلة متاع الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة . ﴿ **مَأْوَاهُمْ** ﴾ أى : مآلهم أن يؤولوا إلى جهنم، ومن كان مأواه جهنم ﴿ **وَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾ يكون مهاده، ومن كان فراشه ناراً،

وغطاؤه ناراً، وأرضه وسقفه ناراً، لأنه لم يصبر فى أيام الدنيا القليلة على العمل للآخرة، قليل عليه تمنيه أن يكون ترابا، أعاذنا الله من المعاصي .

قوله تعالى : لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

بعد أن ذكر وعيد الكفار وبيّن ما هم فيه من وفرة الأموال، وكثرة الأولاد، وحكم عليه بأنه متاع قليل زائل، وبأهم مآلهم إلى النار خالدين فيها ؛ بشّر أهل الإيمان والتقوى بوعده الحق : ﴿ **لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ** ﴾ أى : الذين راقبوا رهم مراقبة العالم الذي يخشى الله تعالى، فسارعوا إلى القيام بأوامره، وترك نواهيه سبحانه، وقد فصلت لك أنواع التقوى، بشَّرهم بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَار**﴾ ﴿ **لَهُمْ جَنَّاتٌ** ﴾ أى : يتصرفون فيها تصرفا مطلقا بدليل قوله تعالى : ﴿ **لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا** ﴾(١) فهى فى حكم المملوكة لهم بفضل الله تعالى ﴿ **تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ أى : من تحت أشجارها . وقد شرحت لك معنى جَنَّة، و : جِنَّة، و : جُنَّة، بفتح الجيم وكسرها وضمها، لأن المراد منها الستر . ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ وفى هذه الآية أنواع من البشائر، والبشرى الأولى : ﴿ **لَهُمْ جَنَّت** ﴾ كما بينت لك، والثانية : ﴿ **تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ فهم فى راحة من عناء سقيا الأشجار ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ بشرى عظيمة، لأن قلوهم أطمأنت ها للخلود من غير موت .

ولو قال قائل : إن خلود المؤمنين فى الجنة فضل عظيم، ولكن خلود الكافرين فى النار، قد يخيل للإنسان أنه ظلم !!! والجواب : أننا لو تركنا المؤمنين أبدا الآبدين

---

(١) سورة ق آية ٣٥.

فى الدنيا، لما ازدادوا إلا إقبال على الله، وخشية منه، ومسارعة إلى الأعمال الصالحات . ولو دام الكافر فى الدنيا أبد الآبدين لما ازداد إلا محاربة لله ولرسله عليهم الصلاة والسلام، وجحوداً به سبحانه وتعالى، ووقوعا فلا أكبر الكبائر، وهذا جزاء ذلك، وما الله بظلام للعبيد .

(**نُزُلاً**) نصبت على الحال، وجائز أن تكون مصدراً مؤكداً . والنُزُل : هو ما يعده الرجل الكريم لضيفه، ثم يتحفه بعد ذلك بخير التحف، فتكون الجنة محل نزول المؤمنين، وتكون رؤية وجه الله تعالى . ﴿ **مِّنْ عِنْدِ اللّهِ** ﴾ حجة على أن العبادة فى الدنيا ؛ والهداية والتوفيق فيها ؛ والفوز بالجنة العالية يوم القيامة ؛ كله فضل من الله تعالى، سبق به القدر أزلا قبل الطاعات والقربات . وكذلك العذاب الأليم يوم القيامة ؛ والكفر والجحود فى الدنيا من أهل الكفر ؛ سبق به القدر أزلا قبل وجود الكون والأناسى . قال بعض العارفين : ((أنا لا أعبدُ ربًّا تغضبه سيئاتي وترضيه طاعاتي)) وإن ربنا المعبود جل جلاله أقام من شاء فيما شاء مما سبق به أزله، قال سبحانه : ﴿ **لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾(١) وهذا القدم كان فى القِدم . وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ** ﴾(٢) .

﴿ **وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ** ﴾ أى : وما عند الله من النعيم المقيم والمسرات الدائمة خير للأَبرار . وهم الذين أبروا الله تعالى فلم يخالفوا أمره، ولم يعملوا ما نهى عنه . وفوقه مقام آخر يتذوقه من القرآن أهلُ التمكين من أحباب الله تعالى، وإن لم يصرح به، وهو ما لدى الله تعالى، وهو خير للأخيار، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ**

---

(١) سورة يونس ٢.

(٢) سورة الأنبياء آية ١٠١.

الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾(١) والأخيار هم المقربون .

قوله تعالى : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴿١٩٩﴾

﴿ **وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ شنع الله تعالى على أهل الكتاب فى الآيات السابقة، وأخبرنا أنهم يقتلون الأنبياء بغير حق، وينكرون ما أنزله الله فى كتاب التوراة من صفات محمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾ وغير ذلك . وفى هذه الآية أخبرنا سبحانه وتعالى بأن من أهل الكتاب من يصدق بالله، ويؤمن بما أنزل إلينا وما أنزل إليهم من القرآن والتوراة والإنجيل، ﴿ **خَاشِعِينَ لِلّهِ**﴾ الخشوع : هو انكسار القلب والجوارح خشية من الله تعالى، وخشوع الأرض : هبوطها ،وخشوع البصر : غَضُّه . ومعنى الآية الشريفة أن الله تعالى ألان قلوبهم وجوارحهم لما يحبه ويرضاه .

﴿ **لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً**﴾ أى : لا يعملون عمل فنحاص وأمثاله لأجل أخذ عرض زائل من كعب بن الأشرف، الذين جحدوا نعت محمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾ فى التوراة . ﴿ **أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ اسم الإشارة عائد إلى قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ آلْكِتَبِ** ﴾ الذين آمنوا بموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، وهذا وعد من الله تعالى وبشرى لهم . ومعنى الآية أن الله تعالى يقول: أولئك الذين آمنوا بمحمد ﴿ **ﷺ وآله**﴾ وبما جاءنا به من

---

(١) سورة الإنسان آية ٥ ـــ ٦.

عند الله بعد إيمانهم بموسى وعيسى ؛ لهم أجرهم، وذلك الأجر عند ربهم جل جلاله، حيث يتفضل الله تعالى بنعيم الجنة الدائم، ويزيدهم من فضله بشهود جمال وجهه العلىّ، لأن الله جعل لهم هذا الأجر عند ربهم، وبذلك يتنعم جسمهم بنعيم الجنة، وحسهم بما فيها من جمال السمع والبصر والذوق والشم واللمس، وعقلهم بما فيها من جمال الآيات الإلهية وتتنعم أرواحهم بالمحبة الإلهية ؛ وبالحكمة التى هى سر الإيجاد والإمداد لكل شىء .

﴿ **إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ فى هذه الآية سر تدركه الأرواح الطاهرة، وهى أن ﴿ **سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ يجب أن يكون محيطا علمه بكل الحقائق ظاهرها وباطنها، كليها وجزئيها، وأن يكون قادرا على حساب كل نفس، وأن يكون حكيما مدبراً كل شأن من الشؤون، وأن يكون حكما عدلا . فهذه الآية الشريفة أثبتت لله جل جلاله الجمال والجلال والكمال والبهاء والنور، ومن تدبرها خشع قلبه، بل وخشعت جوارحه خشية من الله تعالى، وهذه مقامات أهل الرعاية بعد الدراية والرواية .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

بيّن لنا الله تعالى فى هذه السورة أكثر أحكام الشريعة من العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات ؛ التى يجب أن يجاهد المسلم نفسه حتى تنطبع على القيام بالعمل بها ابتغاء وجه الله تعالى . ولما كان جهاد النفس شاقا عليها ؛ تفضل الله تعالى علينا فختم السورة بهذه الآية الكريمة . تقدم لنا الكلام على قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ** ﴾ وبيّنا سِرَّ النداء المفيد قرب المؤمن من الله تعالى حتى أنزله منزلة السامع لخطابه سبحانه، القريب منه على بساط مؤانسته .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ** ﴾ أى : صدقوا الله ورسوله، وقبلوا من رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ما جاءهم به من عند الله، مما هو خير لهم فى الدنيا والآخرة، وإن كان غير ملائم للنفس، لأن النفوس نزاعة إلى ما يلائمها . ﴿ **اصْبِرُواْ** ﴾ أمر سبحانه بالصبر، وهو حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش . وقال ذو النون المصرى : التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البليات، وإظهار الغنى مع طول الفقر بساحات المعيشة . وعَرّفه أهل الهمم العالية بأنه : إلزام النفس الهجوم على المكاره فى طاعة الله . وقال عمر بن عثمان : هو الثبات مع الله وتلقى بلاءه بالرحب والسعة . وقيل : الصبر أن ترضى بتلف نفسك فى إرضاء من تحبه . ولما كان الإنسان بين تحصيل ما به تكمل نفسه وتدوم صحته ؛ وبين معاملة لغيره ؛ أمرنا سبحانه بالصبر فى الحالين فقال جل جلاله : ﴿ **اصْبِرُواْ** ﴾ فيما يتعلق بخصوص النفس، وهو حبس النفس على الأجمل والأكمل من كل شيء، ولا أكمل من رعاية أحكام الله تعالى.

فالواجب علينا الصبر على عبادة الله، وعلى تحصيل ما لابد لنا منه فى العلوم النافعة، قبلت النفس أم أبت، وأهم ما تحب المسارعة إليه تحصيل العلم النافع، وإن لزم ذلك هجر الأوطان، ومفارقة الخلان، وتحمل مضض الجوع والعرى والعطش والغربة، وأحس أنواع الصبر فى هذا الموطن، وكفى بالمرء حماقة أن يسمع قول الله تعالى : ﴿ **أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ (١) ويرضى بالجهل . ثم الصبر على أن يقهر المؤمن نفسه وحظه وهواه لتثبت مع الله تعالى عاملة بمحابه ومراضيه، وتنقاد لرسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ عاملة بسنته، ولو بلغ من الشهود مبلغا تحقق به أنه محبوب الله، وأنه من أهل رضوانه . والمستظهر على رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾

---

(١) سورة البقرة آية ٦٧.

شقي وإن عمل خوارق العادات، قال تعالى : ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**﴾ (١) وقال تعالى : ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ (٢) لأن الله جملهم بصفة من صفاته، فهو سبحانه وتعالى الصبور، فيمنحهم العطايا بقدره هو لا بقدرهم، وكفى الصابر شرفاً أن الله معه، قال سبحانه : ﴿**إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾(٣) ومتى جاهد المسلم نفسه حتى تجمل بالصبر الذى بينتُه ؛ سهلت عليه المصابرة، ومتى تعاصت عليه نفسه أن تصبر على نيل الخير الحقيقي لها ؛ كيف تلين له أن تصابر غيره ؟!! ولما كان الصبر هو خير خاص بالصابر، كان الخطأ يمكن تداركه، والمصابرة مع الغير يصعب تدارك الخطأ فيها، فقد يترك المسلم المصابرة مع الغير فيهلك، ويهلك غيره بحسب مكانته فى المجتمع .

أمرنا الله تعالى بالصبر فى أحوالنا الشخصية، حتى نملك أنفسنا ملكا يجعلنا نسلم لرسول الله ﴿ﷺ وآله﴾ تسليما، فنكون مع النبيين والصديقين والشهداء، قال الله تعالى مخبراً عن كليمه عليه الصلاة والسلام : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي**﴾(٤) ولا صبر لمن مَلَكَتْهُ نفسُهُ، إنما تزول النعم بحرمان الصبر على تنفيذ ما أمر الله به وترك ما نهى عنه . والصابر حقا من كان الله ورسوله ومرادهما أحب إليه مما سواهما، ولو كان فى ذلك ما كان من فادح البلايا، وعظيم الشدائد . وإنما تقوم الحجة على أن العبد صابر إذا ثبت مع الله فى أوسع الرخاء وأشد الشدائد .

---

(١) سورة الأنبياء آية ٣٥.

(٢) سورة الزمر آية ١٠

(٣) سورة الأنفال آية ٤٦.

(٤) سورة المائدة آية ٢٥.

أمرنا الله تعالى بالصبر ـــ وهو الفاعل المختار، لا يبدل القول لديه، ولا الحكم الصادر منه ـــ ليبين لنا سبحانه ما تفضل به علينا من الوجود والحرية المطلقة، وينسب لنا القيام بما به أحسن إلينا، فهو فضل من الله على فضل منه، ونعمة متوالية على نعمة سابقة . فعلى المؤمن إذا سمع الله تعالى يقول : ﴿ **اصْبِرُواْ** ﴾ فإنه يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله . إن الله تعالى إنما أمر بما أمر به لتقوم الحجة على أعدائه، ولتتم النعمة على أحبابه، قال سبحانه : ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ (١) منحنا الله ذوق أوامره ونواهيه، والعلم بحكمه أحكامه سبحانه .

ولا يتحقق الصبر إلا بالعلم، حتى يستبين للمسلم شر الخيرين وخير الشرين، وشر الشرين وخير الخيرين ولو لم يلائم نفسه . ومن قال إني صابر من غير انكشاف الحقيقة له فهو متملق أو منافق . فقد يصبر الجاهل على ما يغضب الله ويغضب رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ ؛ فى المواطن التى يجب عليه أن يكون صبره الحقيقي بذل النفس والنفائس، والهجوم على العظائم . وقد يدعى المدعى أنه مدار، وإنما المداراة تقتضى حسن النية، والطمع فى نيل من تداريه خيرا دينيا، وليست المدارة مستحسنة لعدو من أعداء الله مظاهر بالعداوة، عامل على إطفاء نور الله، ومحو سنن رسول الله، أو مبتدع مخدوع مُمدٌّ للفتنة كما قال تعالى : ﴿ **كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا** ﴾ (٢) فيتبعه على غير بصيرة مخالفا لصريح حكم الله، كل ذلك ليس صبراً عند الله تعالى وعند رسوله وعند العلماء، وإنما هو بلاء، وبُعد عن الله تعالى، وتخلق بأخلاق أهل النفاق، كما يصبر اللصوص وأهل الفجور على متاعب السجون، وآلام الضرب وتعرض النفس

---

(١) سورة الصافات آية ٩٦.

(٢) سورة الإسراء آية ٢٠.

للقتل. هذا صبر ؛ ولكن عن الله تعالى، وعن رسوله ﴿ﷺ **وآله**﴾ . ومصابرة ؛ ولكن عن الله تعالى، أعاذني الله وإخوانى من هوى يعمى وحظ يضل .

قصرت الصبر على تحصيل كمالات النفس، وحسبها على ما يحبه الله تعالى من القيام بتنفيذ أحكام الله، وإن كان فى الصبر على مُرِّ القدر خير كثير للمؤمنين، خصوصاً عند الشدائد، فإن نوعا آخر وهو الرضا عن الله تعالى فيما قدر، وهو حال أهل اليقين، وصفات أهل العزائم الذين يحبون الله تعالى ويحبون ما يحبه، فإن الله تعالى نهى عبيده عن الشر، ولا ينهى سبحانه عن قبيح ويفعله، وإنما يقدر للعبد الخير الذى هو خير فى الحقيقة ونفس الأمر، وإن كان ظاهره بلاء وشدة فإن عاقبته سعادة ومسرات دائمة، والأمور بعواقبها . فهو سبحانه وتعالى جعل البلايا تمحيصا للنفس، ومعراجاً للرقى إلى حضرته بالالتجاء إليه عند تنزله جل جلاله، وبلاء يلجىء المسلم إلى الله تعالى ويقبل به عليه هو عين الخير . وفى الخبر قال ﴿ﷺ **وآله**﴾ : (عَجِبَ رَبُّكَ مِن قَوْمٍ يُسَاقُونَ إِلى ٱلْجَنَّةِ بِٱلسَّلاَسِلِ) وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** ﴾(١) وفى الآية أيضا : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾(٢) .

إذا تقرر ذلك، وتحقق المؤمن أن الله تعالى ناداه مثبتا له تصديقه بالله، وبما جاءه من عنده سبحانه، فكيف يصدق الإنسان بأن الصبر يعقبه الأجر ؛ وأنه خلق من

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٠ ـــ ١٤١.

(٢) سورة آل عمران ١٤٢.

أخلاق الله تعالى ؛ وصفة من صفاته التى يظلل بها من أحبه من عباده ؛ ثم يجزع ويهلع ويفارق الصبر مع اعتقاده بأنه معراج نيل الخيرات كلها ؟! تكلف يا أخي هذا الحال حتى تنطبع عليه لتكون مع الله ويكون سبحانه معك، وليس ثم مقام أكمل وأجمل من أن يكون العبد مع الله تعالى، وأسأله أن يقيمنا فيما يحبه ويرضاه.

﴿ **وَصَابِرُواْ** ﴾ وهو النوع الثانى من الصبر الذى اقتضته الحقيقة الإنسانية التى خلقها الله تعالى مضطرة إلى المبادلة، والمقتضية للمعاملة ؛ والمفاوضة، والمنازعة . فصابروا غيركم، والغير أنواع : إما من معه فى المنزل من والدين وأقارب وأهل وأولاد، أو معه من إخوته المؤمنين فى القربة أو المدينة، أو من معه من أهل ذمة الله ورسوله فى محلته، أو المجتمع الإسلامى ، وهؤلاء مصابرة خاصة بينها الله تعالى فى كتابه العزيز بيانا شافيا للعامة والخاصة فى قوله تعالى : ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ (١) الآيات .

وأما مصابرة الأعداء فتختلف باختلاف نوع العدو الذى عاديته لنفسك من إخوتك، فيجب أن تتأدب بآداب الله تعالى فى قوله : ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** ﴾ (٢). فإن كنت عاديته فى الله تعالى لبدعة، أو للظهور بشرٍّ وفسوق، فتأدب بآداب رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ فى قوله : (آلدِّينُ آلنَّصِيحَةُ) والحديث مشهور . وإن كان بغضك للقوم لما تناله منهم من العناء والتعب فى إصلاحهم، فتدبر فى قوله تعالى : ﴿ **يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا**

---

(١) سورة الإسراء آية ٢٣.

(٢) سورة الكهف آية ٢٨.

يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (١) .

أما المصابرة مع أعداء الله وأعداء رسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فقد بينها الله تعالى ورسوله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بيانا لا يحتاج إلى تأويل وتفسير، قال تعالى : ﴿ **وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ** ﴾ (٢) وقال سبحانه : ﴿ **لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ** ﴾ (٤) وقال سبحانه : ﴿ **فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ**﴾ (٥) ومصابرة هؤلاء يجب أن تراعى فيها الحكمة التى لا تخرج المسلم عن الإسلام، ولا توقعه فى الحرج المضر بالأمة، والواجب على المسلم فى مثل هذا العصر أن يرجع إلى أحكام الله تعالى . إلا إذا اقتضى الحكم الشرعي أن تبذل النفوس والنفائس، فلا نتقى لديها منهم تقاة بدليل قوله تعالى : ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ** ﴾ (٦) .

---

(١) سورة الحشر آية ٩.

(٢) سورة هود آية ١١٣.

(٣) سورة آل عمران آية ٢٨.

(٤) سورة الممتحنة آية ١.

(٥) سورة المائدة آية ٥٢.

(٦) سورة آل عمران آية ٣٠.

والواجب على المسلمين فى وقت المصابرة أن يكونوا يداً واحدة على من صابروه، من أميرهم لحقيرهم، خوفا من أن تفتح التفرقة بابا يدخل منه العدو على جماعتهم. ولكني لا أقول إن إبداء الرأى من أهله، والاختلاف فى الوسائل الموصلة إلى الغرض من التفرقة، ولكني أحب أن تكون الآراء لبيان الوسيلة التى بها نيل المقصد، وأن تكون على بساط الأنس والصفاء، وأن يقبل الرئيس من أحقر المرءوسين، فإنما هو نعمة من الله تعالى تنال بإلهام منه سبحانه، فقد ينطق عن الهوى من لا خبرة لهم لما هم خير، فقد أمر الله ورسوله المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى بالمشورة، وقد أمر ﴿ ﷺ وآله﴾ فى غزوة بدر بالنزول فى مكان وقام إلى غيره برأى رجل من الأنصار، وأحب أن يقاتل قريشا فى موقعة أحد بالمدينة، وخرج منها بمشورة أحد الأنصار، وهو من تعلم جلالة وقدرا ﴿ ﷺ وآله﴾، وقَبِل مشورة أبى بكر فى أسرى بدر . فالواجب على المسلمين عند مصابرة العدو أن ينسى الرئيس رياسته، والحقير ذلته، ويتمثلون أهم جسد واحد ؛ كل واحد منهم عضو مسارع لخير الجسد وحفظه ،ونصرة الله ورسوله . وعلى كل مسلم ألا يذعن إلا بعد أن تقوم الحجة وتتضح المحجة، ويقوم مجاهداً لا مقلدا، عاملاً من عمال الله لا ذليلا، ويكون الرئيس فى هذا الوقت هو كتاب الله وسنة رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كما قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (**ٱلْمُسْلِمُونَ مُتَكَافِئُونَ**) ومتى صابر المسلمون أعداء الله تعالى منحهم الله جميعا الخير، إما بالشهادة والسعادة فى الآخرة، وإما بالتمكين فى الأرض بالحق، والعلو فيها به سبحانه، والأجر العظيم يوم القيامة .

ومَنْ تحقق نيل تلك الخيرات تضاءلت فى نظره ملاذ تلك الحياة . وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : إن رأيتم فىّ اعوجاجا فقوموه، فقام شاب صغير فقال : يا أمير المؤمنين، لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . وقد خطأته فتاة وهو على المنبر فنادى بأعلى صوته : أخطأ عمر وأصابت امرأة . و لم تأخذه

العزة بالإثم . وهذا هو الصبر الحقيقى والتصابر، وكل مسلم يحب السيادة والنباهة فى المجتمع وحسن الأحدوثة، فتسلب الرحمة من قلبه ويعادى إخوته الذين هم أعضاؤه ؛ مخطىء وإن أصاب ؛ ومسىء وإن أحسن ؛ ومضر وإن نفع . والخطأ فى المصابرة شر عام بخلاف الخطأ فى الصبر .

﴿ **وَرَابِطُواْ** ﴾ الربط معلوم لغة، وهو : حبس الحيوان لتوقى شره، أو لنفعه، أو لاستعداده للعمل . والمرابطة فى الحقيقة الشرعية :ربط الخيل على الثغور تجاه العدو الذى أعد العدة لمهاجمة محلة المسلمين . وهى فرض كفاية على المسلمين، وتتعين على كل مسلم فى موطنين :

١ ــ إذا احتل العدو بلاد الإسلام تعينت على كل مطيق .

٢ ــ وإذا عينها الإمام الأعظم خليفة المسلمين على فئة من المسلمين تعينت شرعا، قال رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (**كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ثَغْرٍ مِن ثُغُورِ الإِسلاَمِ فَإِذَا تَهَاوَنَ إِخْوَانُكَ فَاشْدُدْ لِئَلاَّ يُؤْتَى الإِسْلاَمُ مِن قِبَلِكَ**) . وللمرابطة آداب وشروط :

أولها : أن يكون المرابط على يقين من حقارة الدنيا وفنائها، وجمال الآخرة وبقائها، حتى لا يخدعه العدو بآمال أو بمال فيسارع فيه فيهلك الحرث والنسل .

الثاني : أن يكون ما عند الله أحب إليه من الأرض بما فيها ومن فيها .

الثالث : أن يكون ذا غيرة على الحق ونصرة له .

الرابع : أن يكون عالما بقدر الحياة الإنسانية فى الحرية والإرادة، وبقدرها فى الذلة والاستبداد، فيحب لنفسه ولقومه أن يكونوا أعزة أحراراً مريدين، لا يتسلط عليهم

عدو لدينهم ولا لمذهبهم ورأيهم الحق، فيمحق الآداب القومية، ويطفىء نور الحق ويستعبدهم .

وهناك شرط به حسن المرابطة وهو : أن يتلذذ بالموت، ويراه خيراً من الإقامة فى دار الذل والاستعباد، خصوصاً إذا كمل إيمانه، وتيقن أنه بالموت يفوز بالملك الكبير، وبالجوار من الأطهار الأخيار، فى معية الصديقين والشهداء والصالحين .

أما الربط من أهل الجهالة بتلك الآداب ــ ولو كان قائد القوة ــ ربما نزعت نفسه إلى حب العاجلة فخدعه الأمل من العدو، أو أذلته العطية فمكن العدو من نفسه ومن قومه .

ولذلك فيجب على الأمة أن تكون هى الحكومة، وأن تنتقى رجالاً يكونون حكماء علماء فطناء، فتقيمهم قادة لها . وإنما الأمة هيئات : هيئة حاكمة وهيئة محكومة، والهيئة الحاكمة هم خدمة للهيئة المحكومة . فإذا جهلت الهيئة المحكومة قدرها من أن الهيئة الحاكمة خدم لها ؛ وصموا بالذل وجهلوا مقدارهم الحقيقى من أنه ليس فوقهم إلا الله، ورضوا بأن يكونوا عبيداً للعبيد فساموهم الذل والخسف . وإذا كانت الأمة المحكومة هى الحاكمة كانت الأمة هى العائلة التى رئيسها والدٌ حكيم، وأفرادها أبناء بررة، يسعى كل فرد منها للنفع العام والخير الحقيقى . ومتى كان الرئيس عدوا للأمة والأمة عدوا له ؛ ساء حالهم ومآلهم . لا تعجب، فإن القوة التى ينفذ الرئيس بها أغراضه على الأمة هم أفراد من الأمة، وإلا فمتى رأيت يداً تضرب الأخرى ؟ وأمة تكون هيئة الحكومة عاملة على إذلالها ؛ ساعية، فى سلب حريتها واستقلالها ؛ هم بالحيوانات الداجنة أشبه، بل الحيوانات الداجنة أرقى منهم وأعلى، فإن الدجاجة ــ وهى دجاجة ــ إذا رأت وحشاً كاسراً يهم أن يفترس فراخها حاربته حتى تموت مدافعة عن فراخها . فكيف ينهزم الإنسان

أمام إنسان راضيا بالذل والهوان ؟!! أم كيف يرضى المؤمن بأن يخضع لغير القرآن ؟!! بل كيف يطلب النصر من غير الله بالتحيز إلى الأعداء ؟!! .

لا تكون المرابطة مرابطة حقا إلا على ثغور الإسلام، لا على ثغور الأوطان . والإسلام وطننا كما بينت ذلك فى كتاب : (الإسلام وطن) ونسبنا كما بينت ذلك فى كتاب : (الإسلام نسب)(١) كما أنه ديننا(٢) فمن جعل له وطنا غير الإسلام ؛ ونسبا غير الإسلام ؛ كان كمن رضى بدين غير دين الإسلام .

نحن نرابط على ثغور الإسلام ننتظر من الله الحسنيين، أو الحسنى الدائمة، فإن نصرنا الله فى الدنيا أو فزنا بهما استشهدنا على ثغور الإسلام، وتلقتنا ملائكة الرحمة حتى نواجه ربنا راضيا عنا، وحبيبنا فرحاً بنا ﴿ ﷺ وآله﴾ . ولا نرابط على ثغور الأوطان نسيانا للقرآن .

وهنا سأل أحد الحاضرين قائلاً : يا سيدى، حالتنا الحاضرة وأعمالنا، هل هى مرابطة على ثغور الإسلام وجهاد فى سبيل الله ؟ فأجبته قائلاً : يا بنى، يقول رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (إِنَّمَا آلأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ آمْرِىءٍ مَا نَوَى، فَمَن كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى آللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى آللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَن كَانَتْ هِجْرَتُه لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ آمْرَأَةٍ يَنكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) الحديث . وإنى أعتقد أن السواد الأعظم من المسلمين الآن هم من المرابطين، لأن تلك اليقظة لم يدع إليها وجدان الدين، والرغبة فى نيل الفوز يوم القيامة، ولكن الزعماء هم المسئولون بحسب نواياهم . وإني أحب أن يكون لكل مسلم نية خاصة فى عمله، وعمل

---

(١) تطلب جميع كتب الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبى العزائم رضى الله عنه من مكتبة : دار المدينة المنورة ١١٤ ش مجلس الشعب ــــ القاهرة

(٢)تناول الإمام أبو العزائم رضى الله عنه هذا الموضوع فى كتاب : (الإسلام دين الله) .

خاص فى شأنه . وعلى كل حال ؛ فإن تلك النهضة مدرسة ابتدائية، تجعل النفوس تتمرن على طلب الحقوق، حتى يظهر الحق الأول جل جلاله، وتشرق أنواره على النفوس، فتنمحى تلك النوايا والقصود التى لا ترضى الله، وترخص النفوس والفلوس فى نظر المسلم فى سبيل الله، وإعلاء لكلمة الله . قال بعض العلماء : الرياء قنطرة العمل . والبركة فى الحركة . ويقظة خير من النوم ؛ وقد طالت رقدة الغفلة ونومة الجهالة على الأمة . فنحن نشكر الله الذى أيقظ قلوب المجتمع الإِسلامى، ومنحه الشعور بما كان لسلفه الصالح من العزة والحرية المطلقة، ونتحقق أن المسلمين ما نالوا هذا المجد ؛ إلا باتباع رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ . ونحن إنما ننال هذا المجد بما ناله سلفنا قبل، وهو اتباعنا رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾، وعملنا بوصاياه، ومن جهل تلك الحقيقة طلب المجد من جهة لا يناله بها .

ولما كانت المرابطة حبس الحيوانات ؛ فقد يراد بها حبس النفس عن النزوع إلى ما يهلكها . فمن حافظ على الصلوات الخمس فهو مرابط، ومن حفظ جوارحه من التوسع فى المباحات خوفا من الوقوع فى الشبهات فهو مرابط، ومن حفظ قلبه من الخواطر والواردات التى تحجبه عن الله فهو مرابط، وأعظم المرابطة لزوم طلب العلم مع الصبر على الشدائد والبلايا، ولكن أى علم ؟ وممن نتلقاه ؟ .

أما العلم : فالعلم الذى فرضه الله علينا، وفرضه رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾، قال رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ : (طَلَبُ آلْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ)، والعلم المفروض علينا : العلم بالله، وبأيام الله، وبأحكام الله، وبحكمة أحكامه، وبأنفسنا . وما عداه ـــ مما به نيل الدنيا والسيادة والشهرة ـــ فليس هذا بفريضة على المسلم، إنما هو حجاب يقطعه عن الله . وحسب المسلم أن يتعلم حرفة يحفظ بها نفسه من سؤاله للغير، ويحفظ بقية أنفاسه فيما ينال به الفوز بالعلم بالله تعالى، وبأحكامه، ونفسه، وليكون مع الله والله تعالى معه . وهناك صناعات تفرض على المجتمع وهى

ما يحصل بها الضرورى للإنسان، وما أمر الله تعالى به فى قوله : ﴿ **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾(١) وإذا أهمل المسلمون جميعا عاقبهم الله جميعا على هذا الإهمال ؛ كصناعة الآلات الحربية، وما يلزم المجتمع الإسلامى . وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على أن المسلم يجب أن يكون مرابطا دائما ؛ إما فى دين، أو فى دنيا لمن أوجب الله عليه السعى عليهم، أو فى دفع العدو والتحفظ منه، لأنه مقيد بأحكام الله تعالى، وما من حركة إلا وعلى المسلم واجب فيها .

﴿ **وَاتَّقُواْ اللّهَ** ﴾ ذكر الله تعالى فى صدر هذه الآية الصبر والتصابر والرباط، ولما كان تلك الصفات العالية ى يتجمل بها إلا آل العزائم الذين تكشفت لهم الدنيا عن حقيقتها، وأشرقت نفوسهم على ملكوت الله تعالى فشاهدوا ما فيه من المسرات الدائمة، فتحملوا تلك الشدائد الفادحة صابرين مصابرين مرابطين، ولما كانت النفوس من شأنها النزوع إلى الفخر والخيلاء، أو إلى الجبن والفزع، أمرها الله تعالى بالتقوى التى بها الظفر بكل القصود، فإذا اتقى الله من تنزع نفسه إلى حب السلامة، أو من تتسامى نفسه ـ بما نال من الصبر والتصابر والرباط ـ إلى الفخر والبطر والأشر، انكسر قلبه إعظاما لله تعالى ـ الذى أكرمه بوجوده، وأمده بما أحاط به من السماوات والأرض وما بينهما ـ أن يفخر بقربة يتقرب بها إليه سبحانه . لأن التقوى محلها القلب، وهى توقى ما يسخط الله تعالى من العقائد الباطلة، والأخلاق القبيحة، والآراء الفاسدة، وإنما يتوقى الإنسان ما قبح لديه فى جانب من يعمل له، فلا تقوى إلا بمعرفة من يُتَّقى وما يُتَّقى . والتقوى دعامة كل عمل، وهى أساس الدين، والعامل الذى لا يتقى الله بعمله إما مراء، أو منافق .

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٠.

وهنا تحلو الإشارة بقول الله سبحانه : ﴿**وَاتَّقُواْ اللّهَ**﴾ و لم يقل : واتقوا ربكم، لأن تقوى الربوبية يلحظ فيها الخوف من العذاب أو نيل الثواب، فتكون التقوى فى هذا المقام مشوبة . بخلاف تقوى الله تعالى، فإن المراد منها المسارعة إلى محابه ومراضيه، وترك ما يغضبه مرة واحدة إعظاما وإجلالاً، لا لطمع فى نعيم، ولا لخوف من عذاب، مع اعتقاده بقصوره وتقصيره، ومع ذوق حلاوة مشهد التوحيد فى أن القيام لله بما يحب فضل منه يوجب على العامل شكراً جديداً، وأن التوفيق الإلهى يقتضى الشكر لا الكفر . وحقيقة التقوى أن يكون العبد مع الله دائماً، والله تعالى معه سبحانه، حتى لا يغفل إذا غفل الناس، فيكون الله تعالى معالم بين عينيه . وبعيشك أيها الأخ إذا بلغ العبد هذا المبلغ ؛ هل تنزع نفسه إلى جنة أو إلى رضوان ؟ وقد سمع الله تعالى يقول : ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ (١) ؟ وأول مراتب التقوى المجاهدة، فالمراقبة، فالمشاهدة، فالرعاية، فالفناء عن المقامات تقاه لله تعالى، وبعد ذلك يحصل له الفلاح .

﴿ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ أما لعل هنا فبمعنى اللام، لأن الله تعالى تنزه عن أن يجهل عاقبة أمر وهو العليم بكل شيء، فكأنه سبحانه يقول : لتفلحوا . والفلاح : نيل جميع القصود .

وهذه الآية دلت على كثرة أنواع التقوى، فقد يتقى الكفر بالإسلام، وقد يتقى المعصية بالتوبة، والغفلة باليقظة، والحجاب بالشهود، والدنيا والآخرة بالله تعالى .

---

(١) سورة الزمر آية ٦٧.

سُورَةُ آلنِّسَآءِ

بِسۡمِ آللهِ آلرَّحۡمَنِ آلرَّحِيمِ

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

جاءت هذه السورة المباركة جامعة لأحكام كثيرة، وبيانات فى التوحيد، والآداب، والقصص .وافتتحها الله بنداء الناس جميعا، وأمرهم بتقوى ربهم جل جلاله، وذكرهم أنهم جميعا من أصل واحد، لا فضل لواحد منهم على الآخر إلا بالتقوى، وذكرهم ما لكل إنسان على الآخر بالنسبة للآيات القرآنية الجامعة، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَآتَّقُوا آللهَ آلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِ وَآلأَرْحَامَ ﴾ فكان لا فتتاح الآية شأن يجعل القلوب تعقل عن الله أحكامه وآدابه التى أنزلها فى تلك السورة . وفى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم﴾ بيان إلى أن الذى ربانا بإحسانه، وخلقنا بقدرته، وأمرنا بالفضل ؛ يجب أن يتقى . وتقواه سبحانه وتعالى سبق الكلام عليها، لكنا نزيدك هنا أن التقوى بالنسبة لهذه الآية : هى المسارعة إلى القيام بأوامره جل جلاله، من فرائضه التى فرضها علينا عبادة له وشكراً، ومن عقد القلب على ما يجب له من كمال التوحيد والتنزيه والتفريد، ومن رعاية الآداب مع الوالدين والأرحام، ومن العناية بحسن المعاملة مع كل إنسان بحسب مرتبته قرابة دينية، أو وطنية، حتى يرى المسلم أن غيره من المسلمين جميعا إخوة له، تجمعهم خصوصية الدين، وتلك الأخوة فوق القرابة الطينية . ومعنى هذه الآية أن

الله تعالى ينادى الناس جميعا، ثم يأمرهم بتقوى حضرة الرب الذى تفضل فربَّانا بما لابد لنا منه وأكمل، فيسر لنا ما به قوام حياتنا، من الهواء، والشمس، والقمر، والأفلاك، والأرض التى بسطها أمام أعيننا لننتفع بها فى سيرنا وزراعاتنا وبنائنا، ثم يسّر لنا ما نحتاج إليه بعد ذلك من زراعات وصناعات وتجارات، وعلّمنا جل جلاله ما به ننتفع بتلك الحقائق، بل وما به ننوعها بحسب منافعنا .

﴿ **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ هذه الآية الشريفة ربط بها القلوب على محبة بعضنا بعضا، وأظهر لنا بها أننا فروع لأصل واحد، والنفس التى ذكرها الله فى هذه الآية هى آدم، الذى خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته ـــ وهو أصلنا الأول ـــ وما تفضل الله به عليه، بيان لمكانتنا سبحانه منه . والمؤمن إذا تذكر لأن هذا الفضل العظيم هو تفضل من الله تعالى علينا، وهو فضل الله على أصلنا الأول ؛ ذكر فحضر، فعجز عن شكر الله على هذا الإِحسان، وكره أن يخالف هذا المتفضل سبحانه، الغنى عنا، الذى أوجدنا من العدم، وأحسن إلينا بما لا نستحقه، وأمدنا بما به بقاؤنا إلى ما وقَّت لنا فى هذا الكون، وبذلك نستحى أن نخالف أمره بعد هذا الإِحسان . ﴿ **وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ يعنى حواء . لأنها كما ورد خلقت من ضلعه الأيسر، فكان لها أصلا وكانت له فرعا، ولذلك فإنك ترى الرجل يحب المرأة لأنها فرعه والأصل يحب الفرع، والمرأة تحب الرجل لأنه أصلها والفرع يحب الأصل .

وفى هذه الآية إشارة إلى التوحيد الله تعالى، وقدرته على إيجاد الأجناس والأنواع الكثيرة من العالم فى ملكه وملكوته، وقد بيّن الله لنا تلك المعاني فى قوله : ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَي** ﴾(١) فالذى خلق الناس من نفس واحدة ؛

---

(١) سورة الأنبياء آية ٣٠.

وخلق كل شيء من الماء ؛ فالإنسان الأول واحد، والماء واحد، والذى خلقهما جل جلاله قادر أن يخلق وهو الواحد الأحد كل شيء من العرش إلى الفرش . وقد ظن بعض العلماء ــ ممن لم يقع بهم العلم على عين الحقيقة ــ أن حواء لم تخلق من آدم، وقدر محذوفا فقال : ﴿ **وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ أى : من نوعها، واستدل بأن الشيء المخلوق من غيره ؛ إما أن يكون عينه أو غيره، وذلك غير ممكن . والحقيقة أنا نرى النخلة العظيمة تخلق من النواة، ونرى الحيوانات تلد غيرها، والنساء كذلك. وخير لمن يزعم العلم أن يسلم لله تسليما، فإنه قادر على كل شيء، وما علينا إلا أن نقول : ﴿ **آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** ﴾(١) .

﴿ **وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً** ﴾ أى : ونشر وأوجد منهما رجالاً موصوفين بالكثرة، ونساء كثيرات بقدرة لا يعجزها شيء .

﴿ **وَٱتَّقُوا ٱللهَ**﴾لمّا أن بين للناس جميعا سرا من أسرار القدرة والحكمة، طهرت به القلوب، حتى اشتاقت إلى الاطلاع على الغيب المصون بعد تصديق خبر الله تعالى، رفع القلوب ــ بعد نظرها فى الأسباب القائمة والآيات الجليلة ــ إلى مقام أرقى ؛ وحال أعلى . فأمرها بتقوى الله تعالى، التى يكون العبد فيها قد كمل إيمانه بالدلائل الموضحة للحقائق، واستغنى عن الدلائل المحسوسة التى تؤيدها المحسوسات وعللها، إلى ما فوق ذلك . فقوله : ﴿ **وَٱتَّقُوا ٱللهَ**﴾بعد قوله : ﴿ **اتَّقُواْ رَبَّكُمُ** ﴾ وبعد قوله : ﴿ **وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ**)(٢) ﴿ **وَاتَّقُواْ النَّارَ**﴾(٣) جعل سبحانه تقوى الله جذبا للقلوب إلى حضرة علام الغيوب ،وهو المقام الروحى الذى

---

(١) سورة آل عمران آية ٧.

(٢) سورة البقرة آية ٢٨١.

(٣) سورة آل عمران آية ١٣١.

تطمئن به القلوب، وتسكن إليه النفوس، وتشهد فيها الأرواح وجه الله أينما ولّت، حيث لم يكن للأرواح علة عند رعايتها تدعو إلى تقوى الله طمعا فى النعيم المقيم، ولا خوفا من العذاب الأليم . بل للكمال الذاتى الأسمائى الذى يستحق من العبيد الحب والتقوى له حق تقاته . قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** ﴾ (١) وتقوى الله حق تقاته : إن تذكره فلا تنساه وأن تطيعه فلا تعصاه، وأن توحده فلا تجحده، وأن تشكره فلا تكفره . ومن تدبر الآية انكشفت له تلك الحقائق فذاق حلاوة الإيمان ولذة التقوى .

﴿ **الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ** ﴾ وقرىء بتشديد السين أى : ﴿ **تَسَّاءلُونَ** ﴾ فأُدغمت التاء فى التاء . وهذه الآية خاصة بالعرب لأنهم يتساءلون بالله وبالأرحام، فيقول الرجل لأخيه : أنشدك الله والرحم أن تفعل كذا أو تترك كذا ﴿**وَالأَرْحَامَ**﴾ معطوفة على الله تعالى لا على الضمير المتصل بالباء، لأن عطف الظاهر على المضمر ضعيف . وقد قرئت بالفتح والتخفيف . وأولو الأرحام : المتصل كل واحد منهم بنسب يدلى للأم . .

﴿ **إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ هذه الآية الشريفة بشرى من الله تعالى لأهل الإيمان الذين أقامهم الله فيما يحبه ويرضاه، فإنهم إذا سمعوا الله تعالى يقول : ﴿ **إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ بتوكيد الخبر ؛ فرحوا بإقامة الله تعالى لهم فى مراضيه سبحانه، وبأنه محيط علما بما أقامهم فيه، لأن رقيب بمعنى : فاعل، أى : مراقب . وإنذار بعذاب شديد لأهل الكفر به سبحانه للمنافقين . فهى وعد ووعيد منه جل جلاله بعد أن وعَد وتوعّد فى الآيات السابقة بالتفصيل .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٢.

قوله تعالى : وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾

(**وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ**) يأمر الله تعالى الأوصياء بأن يعطوا اليتامى ـــ بحسب الأصل ـــ أوموالهم إذا بلغوا الرشد . وإنما سماهم سبحانه اليتامى بحسب ما كانوا عليه، لأنهم عند إعطائهم أموالهم لم يكونوا يتامى، ولكن ذكر لفظ يتامى ؛ فيه بيان ليُعطّف عليه مقلوب الأوصياء، كما قال هارون لموسى عليه السلام : ﴿ **يَبْنَؤُمَّ لاَتَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي** ﴾[1] ففي قوله : ﴿ **يَبْنَؤُمَّ** ﴾ طلبا للعطف عليه، كما أن الله تعالى يقول : ﴿ **وَءَاتُوا آلْيَتَمَى** ﴾ وإن لم يكونوا عند الإِعطاء يتامى .

﴿ **وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ** ﴾ أى : لا تأخذوا الطيب الجيد من أموالهم، وتضعوا بدله الردىء الخبيث من أموالكم،و ذلك فى الثمار والحبوب والزروع والأموال، فإن بعض الأوصياء يتأول أسماء الأنواع ـــ مع اختلاف حقائق الأنواع ـــ سواء، فنهاهم الله تعالى عن هذا، وأخبرهم أن استبدال الخبيث من أموالهم بالطيب من أموال اليتامى معصية كبيرة، وإنما يكون التأويل حسنا عند الله إذا لم يكن الحكم صريحا، ويكون المتأول تحمل الأمر الشاق فى تأويله حتى يحتاط لنفسه، فيكون له حق وليس عليه حق لغيره .

﴿ **وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ** ﴾ معنى هذه الآية أن يكون الوصى غنيا مليا ثم يأخذ من أموال اليتيم ما لا حاجة له إليه، مع أن الشريعة أباحت للوصى الفقير أن يأكل بالمعروف . وفى هذا البيان من الله تعالى أن الوصى الغنى يعمل لوجه الله

---

[1] (١) سورة طه آية ٩٤.

تعالى .﴿ **إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا** ﴾ يعنى إن أكل الوصى مال اليتيم إلى ماله حوبا، أى: ذنبا عظيما جدا من أمبر الكبائر . لأن الوصى الغنى إذا أكل مال اليتيم إلى ماله ؛ دل ذلك على سلب الرحمة من قلبه لنفسه ولأولاده ولليتامى . أما لنفسه : فلأنه نسى حسابه يوم القيامة وخالف ربه، فأوقع نفسه فى عذاب الله، وليس هذا من الرحمة بالنفس . وأما لأولاده : فلأن الوصى إذا ظلم اليتامى آخذه الله بأن يترك أولاده اليتامى ويوصى عليهم من يظلمهم، حتى يعيشوا فى فقر وذل وعذاب لعدم عناية الوصى بتربية أولاد مَن أكل أموال اليتامى . وكفى بالإنسان قطيعة عن الله أن تسلب الرحمة من قلبه حتى لنفسه، والمؤمن يجب أن يرحم نفسه أولاً وبالذات، وبقدر رحمته لنفسه تكون رحمته للناس بقدر ما أوجبه الله عليه لهم .

قوله تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَآءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ ﴿٣﴾

بيّن جل جلاله أحكام الأوصياء مع اليتامى فى الآية السابقة، وبين فى هذه الآية أحكام نكاح اليتامى وغيرهم، وقوله : ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ** ﴾ (**إِنْ**) : شرطية ، و(**خِفتُم**) فعل الشرط . ﴿ **أَلاَّ تُقْسِطُواْ** ﴾ أى : ألا تعدلوا . لو : انكحوا، جواب الشرط . وسبب نزول هذه الآية أن الوصى كان يرى اليتيمة ذات مال وجمال فيتزوجها بمال قليل، أقل من صداق المثل، ثم يظلمها ويؤذيها حيث لا تجد نصيراً ينصرها عليه . فسألوا رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ عن ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية . ومعناها : أن الله يأمر بترك زواج اليتيمة إذا ظن أو تحقق عدم العدل فى معاملته، فأمر سبحانه الوصى أن يتزوج ما طاب له، أى : ما حل من النساء مثنى

يعنى اثنين، وثلاث إن خشى على نفسه العنت وكان قادراً على الإنفاق . ورباع أى : له أن يتزوج ثلاثا وأربعا . وقوله : ﴿ **مَثْنَى وثَلَثَ ورُبَعَ** ﴾ ألفاظ معدولة عن اثنين وثلاث وأربع . وما فهمه بعض العلماء من أن ﴿ **مَثْنَى وثَلَثَ ورُبَعَ** ﴾ يعنى اثنين اثنين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً وأربعاً، فهو فهم يمنعه الإجماع الكلى على أن المسلم لا يحل له من النساء إلا أربع . ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ** ﴾ فى العدد المتقدم لمانع شرعى ﴿ **فَوَاحِدَةً** ﴾ أى : فالواجب عليكم أن تقتصروا على واحدة من النساء .

وهذه الآية تدل على أن الزواج واجب بدليل قوله تعالى : ﴿ **فَانكِحُواْ** ﴾ والشافعي رضي الله عنه على أن الزواج أقل من المندوب، بدليل قوله تعالى : ﴿**وَمَن لَمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أن يَنكِحَ آلْمُحْصَنَاتِ** ﴾ إلى قوله تعالى :﴿ **وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُم** ﴾ وأراد ﴿ **وَأَن تَصْبِروا** ﴾ أى : تتركوا الزواج خير لكم، فيكون ترك الزواج خيراً، وما كان تركه خيراً لا يكون واجبا . ولنا أن نقول : إن تركه فى مثل هذه الحالة خير، ولكنه قد يكون واجبا فى غير هذه الحالة إذا توفر اليسار والقدرة على الواجبات والمندوبات الشرعية للزوج .

﴿ **أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**) يعنى أنه إن خاف أن لا يقسط فى الواحدة الحرة، فمما ملكت اليمين، لأن الواجب للحرة لا يجب للأمة ،

وكثير من يعجز عن القيام بواجبات الحرة . فأباح الله له أن يجعل المملوكة سرية له . ﴿ **ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ**﴾ الإشارة هنا إلى ما سبق من الأحكام و (**أَدْنَى**) أى : أقرب . والعول : الميل، والعيل : الفاقة، والفعل منها : عال يعول، أى : مال

يميل . وعال يعيل أى : افتقر يفتقر . واسم الفاعل منها : عائل، وهو فى تصريفه عاول أو عايل قُلِبَ حرفُ العلة همزة فيها للتحرز من التقاء لينين، فجعل حرف العلة حرفا يابسا ليسهل النطق .

قوله تعالى : وَآتُواْ النَّسَآءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾

﴿ وَآتُواْ النَّسَآءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾إن كان الأمر للزوج دل على وجوب الصداق، فإن﴿ **نِحْلَةً** ﴾ وجوبا، وإن كان الأمر للولي أو الوصى وجب على من تولى العقد أن يُعطى المرأة صداقها . وكان فيما سبق إذا زوج امرأته أو أخته أو من له عليها الولاية أخذ صداقها لنفسه، فأمرهم سبحانه أن يؤتوا النساء صدقاهن نحلة أى : وجوبا عليهم .

﴿ **فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا هَنِيئًا مَّرِيئًا** ﴾ فإن طابت أنفسهن أن يعطينكم منه شيئا فكلوه هنيئا مريئا . وفى هذه الآية بيان للأزواج وللأولياء أهم لا يأخذون من الصداق شيئا إلا إذا طابت أنفس والزوجات، وطيب أنفسهن مقدّر فى الشريعة تقديرا يجب رعايته، حتى يكون المأخوذ هنيئا مريئا للآخذ .

قوله تعالى : وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾

بعد أن أمر تعالى الأوصياء بأن يؤتوا النساء صدقاهن نحلة، وأمر الأولياء بأن يؤتوا اليتامى أموالهم . كنا نظن بعد قوله : ﴿**آلْيَتَمَى** ﴾ أنه لابد أن يعطى أموال

الصداق للزوجات، وأموال الأيتام لهم عند البلوغ مباشرة، ولكن الله سبحانه وتعالى العظيم الخبير أنزل هذه الآية بعد تلك الآيات السابقة مباشرة لارتباطها بها، مبينا فيها أننا لا ندافع الصدقات للنساء، ولا الأموال لليتامى إلا بعد أن نتحقق أنهم بلغوا كمال الرشد، فإننا إذا أعطيناهم الأموال وأسرفوا فيها فأضاعوها نكون قد أسأنا إليهم وإلى أنفسنا أيضا . أما إليهم فظاهر، وأما إلى أنفسنا فإنه يجب علينا — رحمة بهم — أن نرحمهم فى فقرهم وغناهم .

وفى قوله تعالى : ﴿ **أَمْوَالَكُمُ** ﴾ بإضافة المال إلى الأوصياء — مع أنه مال اليتامى — دقيقة لطيفة، وهى أن الله تعالى أنزل هذا المال منزلة مال الأوصياء الذى يجب عليهم أن يحافظوا عليه فلا يضعوه إلا فى موضع حصين يحفظه، ومن جهة أخرى أنهم مطالبون أن يكونوا لليتامى كما كان لهم أبوهم، وكما يحبون أن يكون الأوصياء بعددهم لأولادهم فقال : ﴿ **وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ** ﴾لأن المال فى يد الوصى بالنسبة لأن صاحبه سفيه ؛ صار كأنه مملوك له يجب عليه أن يحافظ عليه محافظته على ماله الخاص . ﴿ **الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً** ﴾ الجملة صفة لأموال، يعنى الأموال التى جعلها الله لكم لتبادل مرافق الحياة، وبها دفع الضرورة عنا وجلب المنافع، وبذلك يجب علينا أن نحافظ عليها، وأن نُنفق منها بقدر حفظ الحياة والعرض والشرف . ولما كان أول الآية أنه نسب الأموال للأوصياء ؛ ساق الآية هذا المساق . والمراد أن الأموال أموال اليتامى، وأن الله تعالى جعلها قواما لليتامى، ولكنه سبحانه وتعالى يملأ القلوب عطفا ورحمة وعناية بحسب سياق آياته الشريفة.

﴿ **وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ** ﴾ الرزق هو ما يقدم للمرزوق من القوت واللوازم متواليا بحسب الضرورة، وهو يشمل الطعام، والشراب، والخادم، والمأوى، والعين. و ﴿ **فِيهَا** ﴾ نهاية الرحمة العامة من الله، لأنه لم يقل :منها، ولو قال : منها ؛ لضاع

مال اليتيم قبل بلوغه الرشد، أو لعاش يتيما معوزا . ولكن الله ـــ رحمة منه ولطفا ـــ أمر الأوصياء أن يرزقوا اليتامى فيها، يعنى يتجرن بها ويعملوا معامل للصناعات، أو مزارع بالأموال، ليربحوا من الأموال ما به يكون رزق اليتيم وكسوته وتحفظ رؤوس الأموال، ويحفظ معها الربح بعد إجراء النفقة .

﴿ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾أمر الله تعالى الأوصياء برعاية أخلاق وآداب اليتامى وهم فى سن قبولهم للنمو الجسمي والعقلي، حتى يشبوا شباب الإِباء والفضيلة والحياء، ولا يكون ذلك إلا بأن يكونوا فى كلامهم معهم يراعون المعروف بين أنواع الناس، فيقولون لهم ما يجمل من العبارة، ومن ذلك أن اليتيم إذا كان ذكيا يبين له أن المال ماله، وأنه إنما يحفظه له حتى يبلغ الرشد فيرده إليه وافراً، ويلاحظ أن ينزله منازل الكرامة . وإن كان بليداً سفيها نصح وبين له عاقبة السفة والحمق، حتى يرجعه بلطف إلى الحالة الحسنة التى يجعله فيها عضوا عاملاً فى الأمة . أما الأوصياء الذين يفسدون أخلاق اليتامى، ويعاملوهم معاملة العبيد، ويخدعوهم، فهؤلاء لهم عذاب أليم يوم القيامة . والقول المعروف بينتُ لك أنه يتفاوت بحسب أنواع اليتامى، فمنهم من يحسن إليه الوصى ويتواضع له ليحفظ شرف أسرته، ومنهم من يشدّد عليه ويؤدبه ليحفظ نفسه من الرعونة والحدة، ويكون هذا من القول المعروف .

قوله تعالى : وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا﴿٦﴾

﴿**وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى** ﴾ الابتلاء هو الاختبار والامتحان، لينكشف للوصى ما هو عليه من الحالة النفسية من حيث الروية، والحكم، والأناة أو العجلة، والحدة، والإسراف أو الاقتصاد . والابتلاء جائز أن يكون من الصغر لينبت نباتا حسنا ، حتى إذا بلغوا الحُلم كانوا متدربين على ما به يدفعون عن أنفسهم الشر، ويجلبون لها الخير . وجائز أن يكون هذا الابتلاء بعد كبرهم عند قرب الاحتلام بدليل قوله : ﴿ **حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ** ﴾ فيكون افتتاح الابتلاء عند قرب بلوغ الحُلم، وبهذا الابتلاء تظهر حقيقة اليتامى، وتقوم الحجة بوجود الرشد فيهم . وبذلك يتعين على الوصى أن يدفع إليهم أموالهم بعد أن يشهد عليهم، مراقبا ربه فى ذلك، ليفوز بالجزاء العظيم من الله تعالى . وهذه الآية الشريفة انزلها سبحانه بعد أن أمر الأوصياء أن يؤتوا اليتامى أموالهم فى الآية السابقة، وفى هذه الآية بيان للأوصياء من الله تعالى أنهم لا يدفعون الأموال للأيتام إلا بعد أن يتحققوا أنهم بلغوا الحُلم .

وعلامات الحُلمِ ثلاث : أن يبلغ ست عشرة سنة وأكثر، وأن ينبت الشعر الخشن على عانته، وأن ينزل المنى منه فى نوم أو يقظة . وبلوغ الحُلُم شرط أولى فى دفع المال إليهم ،والشرط الثانى أن يدرك منهم الرشد . ﴿ **فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا** ﴾ والرشد : هو رعاية الحكمة فى كل عمل، والتعلق بالعمل للدين والدنيا . ﴿**فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ** ﴾ أى : سارعوا أيها الأوصياء فى دفع الأموال لليتامى الذين بلغوا الحلم وآنستم منهم رشداً .

﴿ **وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ**﴾إن الله بين لنا فى الأموال بيانا شافيا كافيا، فما ترك مالاً من غنيمة، ولا من ميراث، ولا من زكاة، ولا من دَيْن، ورهن، وسلم، إلا بيّن فيه كل البيان . لنعلم مقدار الأموال فى القرب، وأنها سبب الفتنة والمحن والحروب، فنراعى أحكام الله فيها ليدوم لنا الصفاء والوفاء مع إخواننا

فى الدنيا، ونفوز برضوان الله يوم القيامة . وليس الرجل من صام وحج وملأ الأرض علما وعملا، إنما الرجل من جمّله الله بالورع فى المعاملة بالأموال، والعفة فى الأعراض، والصدق فى القول . ومن حرم الورع والعفاف ومنح كلمة : كن ؛ لا تعتبره محسنا . فإن الله تعالى يهب ملكه لشر خلقه كما نرى، ولكنه لا يهب شُعَبَ الإِيمان إلا لخير خلقه .

﴿ **وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ** ﴾ ينهى الأوصياء عن ارتكاب الكبائر طمعا فيما لا يحله الله لهم من مال اليتامى، وبيّن سبب هذا الطمع ؛ وهو الخوف من أن يكبر اليتيم فيستلم ماله، فيسرف الوصى فى المال، والإِسراف : هو أن يتجاوز حد الحق إلى الباطل، وحد الحلال إلى الحرام، مبادرة لسلب المال قبل كبر اليتيم . وهذا العمل جامع لعدة كبائر وهى : السرقة، والخيانة، والغش . وكون هذه كبائر إنما كان لوقوعه فى مال اليتيم .

﴿ **وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ** ﴾ الاستعفاف : هو العفاف وزيادة، والله تعالى يأمر الأوصياء أن يتركوا الانتفاع بمال الموصى عليه وبأثاثه الذى لا يحصل له ضرر بحفظه، ويجعل العمل لليتيم ابتغاء مرضاة الله، ويحفظ له ماله وأثاثه، ويقوم له فى تجارته وزراعته وغيرها كما يقوم لنفسه، ويحفظ ربح ذلك لليتيم . لأن الأوصياء يقومون لإِخوانهم المؤمنين بعد موتهم حتى كأن آباءهم لم يموتوا، ليفوزوا بالحسنيين. والحسنى فى الدنيا : بعناية الله بأبنائهم بعد موتهم، وفى الآخرة : بالفوز برضوان الله . وفى قوله تعالى : ﴿ **فَلْيَسْتَعْفِفْ** ﴾ نهاية فى تحذير الأوصياء وفى الرحمة باليتامى.

﴿ **وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾الفقير نوعان :

١ ــ فقير لا ينتظر يساراً، وحكم هذا أنه يأكل من مال اليتيم بالمتعارف بين الناس، بشرط أن يعمل فى مال اليتيم لتنميته، وأن لا يتجاوز الأكل الضرورى، واللباس الضرورى .

٢ ــ وفقير ينتظر اليسار من معلوم له، وهذا له أن يأكل من مال اليتيم قرضة يردها إليه متى تيسر، وإن مات الوصى قبل اليسار لا يسأل يوم القيامة، واختلاف بعض العلماء هنا ــ بعد قول الله : ﴿**فَلْيَأْكُلْ بِآلْمَعْرُوفِ**﴾ وهو حكم عام صحيح لا يعارضه حكم عام ــ إنما هو أخذ بالأحوط .

نَهْىُ الله الأوصياء عن أكل أموال اليتامى إسرفا وبداراً أن يكبروا ؛ إنما هو تحريم للأكل بشرط الإسراف والمبادرة قبل كبرهم، وهذه خيانة كبرى . لكن الفقير الذى ينزل نفسه منزلة جباة الصدقات، فإن لكل رجل منهم سهما فى الصدقة، فكذلك لوصى اليتيم سهم فى ماله . كما قال عمر رضى الله عنه لولاته حين كتب إلى عمار وابن مسعود وعثمان بن حنيف : سلام عليكم، أما بعد : فإن رزْقَتكم كل يوم شاة شطرها لعمار وربعها لعبد الله بن مسعود وربعها لعثمان، ألا وإنى قد أنزلت نفسي وإياكم من مال الله منزلة ولى مال اليتيم : ﴿ **وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾

﴿ **فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ** ﴾ معلوم أن مفاتيح الفتن ثلاثة : المال، والعرض، والدين ؛ والفتنة بالمال شر الفتن . ولذلك بين الله فى أنواع الأموال بيانا كما قررت لك، ليحفظها من استطراق يد السلب إليها، يقول تعالى﴿**فَإِذَا دَفَعْتُمْ** ﴾ أيها الأوصياء إلى اليتامى أموالهم، وجب عليكم أن تشهدوا عليهم عدولا مقبولى الشهادة شرعاً، وهذا الإشهاد رحمة باليتيم وبالوصى . أما رحمة باليتيم : فقد يدّعى الوصى أنه دفع إليه ماله وهو لم يدفعه، وهو مقبول الشهادة شرعا ــ

ولكنه غير مقبولها عند اليتيم ـــ لأن القاضى ما أقام الأوصياء إلا بعد إقامة الحجة على عدالته، ولو لم يأمر الله تعالى الأوصياء بالإشهاد على اليتامى لضاع مال اليتيم، لما للوصى من ثقة عند القاضى . والمال كما قدمنا مفتاح الفتن، ولو لم يقل الله تعالى :﴿**فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ** ﴾ لضاع مال الوصى إذا أنكر اليتيم أخذ المال . والشريعة تراعى مصالح الخلق فكانت المصلحة فى قوله تعالى : ﴿**فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ**﴾ للجانبين، والله أعلم بمصالحنا وهو الغنى الحميد . ﴿**وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا** ﴾ أى : وكفى بالله محاسبا، إذا تأولنا﴿**حَسِيباً** ﴾ من الكفاية . وفى هذه الآية يقظة لقلوب الأوصياء واليتامى،ومراقبة لله تعالى .

قوله تعالى : لِّلرِّجَالِ نَصيِبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾

كان الناس فى الجاهلية لا يورثون النساء ولا الزوجات ولا الأولاد الصغار، ويعطون الأموال لأولادهم الذين يضربون بالسيف ويطعنون بالرمح . حتى بعث الله محمدا ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بالحق بشيراً ونذيراً، وأنزل الله تعالى أحكامه لمناسبات الأحداث التى تقتضى الأحكام . وسبب نزول هذه الآية الشريفة : قال ابن عباس: إن أوس بن ثابت الأنصارى توفى عن ثلاث بنات وامرأة، فجاء رجلان من بنى عمه ـــ وهما وصيان له يقال لهما : سويد، وعرفجة ـــ وأخذا ماله، فجاءت امرأة أوس إلى رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ وذكرت القضية، وذكرت أن الوصيين ما دفعا إليها شيئا، وما دفعا إلى بنات المتوفى شيئا، فقال النبى ﴿ ﷺ **وآله**﴾ : (ارِجعى إلى بيتكِ حتى أنظُرَ ما يُحدِثُ الله فى أمرِك) فنزلت على النبى ﴿ ﷺ **وآله**﴾ هذه الآية،ودلت على أن للرجال نصيبا وللنساء نصيبا ولكنه تعالى يبين ما لكل واحد أو واحدة منهم، فأجمل الحكم تأليفا للقوم الذين اعتادوا حرمان النساء

والصبيان من الميراث، فجمعهما فى هذا الحكم، ليبين أن لكل ذكر أو أنثى نصيبا مفروضا .

﴿ **لِّلرِّجَالِ نَصيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ** ﴾ بيان أن هذه الآية لأصحاب الفروض وهم الأباء والأولاد والأزواج، وإذن فيكون قوله تعالى : ﴿ **وَالأَقْرَبُونَ** ﴾ بعد الوالدين هم الأولاد من ذكور وإناث وأزواج، ومن فهم أن من الأقربين ذوى الأرحام ؛ فقد توسع، لأن قوله تعالى :﴿**نَصِيبًا مَّفْرُوضًا** ﴾ خرج ذوو الأحام لأن ذوى الأرحام ليسوا من أصحاب الفروض . ومعنى الآية الشريفة أن الله سبحانه لما حكم فى كل أنواع الأموال، بيّن حكمه سبحانه فى الميراث بيانا تقتضيه الحكمة، جعل الرجل والمرأة بحسب مرتبتها سواء فى الميراث، إلا فيما يخص كل واحد منهما، جعل للمرأة نصف ما للرجل لحكمة فوق مقدار العقول كما سيأتى بيان ذلك :

وتلك الحكمة هى أنه جل جلاله جعل الرجل يدفع صداقا للمرأة، وأوجب عليه نفقتها، ونفقة أولادها منه، ولذلك جعل لها نصف ماله . فلو فرضنا أن رجلاً مات وترك ولداً وبنتا، وترك ثلثمائة دينار، أخذ الولد مائتين وأخذت البنت مائة واحدة، وبعد ذلك دفع الولد خمسين صداق زوجته ،وأخذت البنت خمسين صداقها من آخر، فاستوى ذلك، فصار عند الرجل مائة وخمسون، وعند المرأة مائة وخمسون، فاستويا، مَفْرُوضًا من مال الميت، لا فرق بين قليله وكثيره .

وحُكم الله تعالى فى ألأموال به حفظ المجتمع الإسلامى أخلاقا وصحة ويساراً، حتى يكون المجتمع وسطا لا يعتوره الفقر فيفسد عليه حاله، ولا الوسعة فى الأموال

فتفسد عليه أخلاقه وآدابه، والإخلاص لله فى المعاملة يطيل العمر، ويوسع الرزق، ويشرح الصدر، ويسعد الناس، لأن إيثار النفس بما لا يحل لها مسخطة لله مغضبة للخلق . والأولى لأهل الإيمان أن يحافظوا على أحكام الله تعالى للفوز بالحسنيين .

والفرض فى اللغة : هو الحز الذى يكون فى الوتد ليربط فيه الحيوان، بل هو الحز الذى يكون فى كل قطعة خشب يراد الربط فيها أو ربطها بأخرى، والواجب هو السقوط، ولا فرق بين الفرض والواجب عند الشافعية إلا فى الحج، فترك الفرض يبطل الحج، وترك الواجب يوجب الدم . أما الحنفية فإنهم يرون خلافا بين الفرض والواجب، فالفرض ما ثبت بالكتاب والسنة والواجب ما ثبت بالسنة المؤكدة عندهم كصلاة الوتر . ﴿ **نَصِيباً** ﴾ منصوب على الاختصاص، و﴿**مَفْرُوضاً**﴾أى : فرضه الله تعالى:

قوله تعالى : وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾

هذه الآية الشريفة ؛ قال بعض العلماء : إنها منسوخة بآية الفرائض . وقال بعضهم: ليست منسوخة، وتأولها بمعنى : وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين ممن لهم فروض فى التركة ؛ فارزقوهم منها، وإن لم يكونوا من أهل الفرائض فقولوا لهم قولاً معروفا . وجائز أن يكون تأويلها : وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين ممن لهم حق فى الميراث وممن لم يكن لهم حق ؛ وكان الورثة كبارا فالأولى بالورثة أن يتفضلوا على ذوى القربى واليتامى والمساكين الذين حضروا القسمة إحسانا لهم، ورحمة بهم ﴿ **وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا** ﴾ . وإن كان الورثة صغاراً فالواجب على الأوصياء أن يقولوا لهم قولا معروفا . وبأن يقولوا لهم إن هذا المال ليس لنا بل هو للقصر، فإذا بلغوا الرشد

فسيكرمونكم منه بما تحبون . ومعلوم أن الأمر للوجوب ما لم يمنع منه قرينة، والقرينة هنا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ وأكل مال اليتيم الصغير الذى لم يوصى مورثه ظلم .

قوله تعالى : وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٩﴾

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ ﴾ يحذر الله تعالى الذين يحضرون عند المريض وقد يئسوا من شفائه، بعد أن يراعوا جانب الله تعالى فى الورثة وغيرهم، فلا ينوعون فكر المريض بأن يوصى أكثر من الثلث لأقاربه أو للفقراء، ولا يكلفونه أن يحرص على الثلث من ماله فلا يوصى به، فيكونون ظلموا الورثة أو ظلموا أولى القربى واليتامى والمساكين . وحذرهم الله تعالى من الوقوع فى هذا الخطأ رحمة بأولادهم الذين يتركوهم بعد موهم . وفى هذه الآية كمال العطف من أصدقاء المريض على الورثة، حتى لا يكونوا سببا فى فقر الورثة، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : (لأَن تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغنِيَاءَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ آلنَّعَم) .

﴿ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ الجملة وإن كانت شرطية إلا إنها صلة الموصول، ويكون التأويل : وليخش الذين وصفوا بأهم لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم . وجائز أن يكون معنى هذه الآية أدبا من الله تعالى يؤدب به الأوصياء، بأن ينزلوهم منزلة أبنائهم ،ولا يأكلون أموالهم ظلما وبداراً أن يكبروا، ولا يسيئوا إليهم إساءة تجعلهم أذلاء مفسودة أخلاقهم،

ويكونون أساءوا لليتامى وخالفوا وصية الله تعالى، واستحقوا عقوبته فى الدنيا بالبلايا، وبعد موهم بأن يعاقبهم فى أولادهم بعد موهم . والأولى فى تفسير هذه الآية ـــ بالنسبة لارتباطها بالوصية قبلها ـــ أن يكون معناها كما بينت لك، أن الذين يحضرون الرجل وهو يوصى لأولى القربى واليتامى والمساكين أن يحبوا لأولاد الرجل ما يحبون لأولادهم من اليسار والغنى، ويرغبونه فى أن يوصى بالثلث أو بأقل منه، خشية من الله أن يظلموا أبناء الموصى بعده، ولذلك يقول سبحانه بعد ذلك: ﴿ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴾ بيان من الله لتعظيم شأن اليتيم فى قوله : ﴿ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴾ فى كل ما ورد فى الأيتام، من الوصية والتربية والكفالة والولاية، فإن الوصى أمره الله تعالى أن يعامل اليتيم معاملة رحمة وعطف، حتى لا يشعر بأنه فقد والده، مع رعاية تأديبه وتهذيبه بحسب ما يناسب اليتيم سِنًّا وعقلا .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ معنى هذه الآية، أن الله تعالى يبين سبحانه حكم من أكل مال اليتيم ؛ بأنه أكل النار فى بطنه، وأكد الآية بحرف التوكيد، ثم أيدها بأداة الحصر . وأَكْلُ مال اليتيم ظلماً ؛ أن يأكله بدون حق شرعى . والمراد بالأكل هنا كل ما صرفه من مال اليتيم، من أكل، ولباس، وأثاث، وغيرها . ويتحقق هذا الأكل يوم القيامة، فيلقمهم الزبانية رضف جهنم، حتى إذا رآهم أهل المحشر يقولون : هؤلاء آكلوا أموال اليتامى . لأن علامة أكل النار تظهر فى أعينهم، وفى أذانهم، وفى أفواههم . وقد يكون مال الأيتام ناراً فى البطون فى تلك الدار الدنيا، لأن النار تجعل الجوارح تفقد الحس فى الدنيا، وأكل مال اليتيم يطفىء نور الإيمان الذى يحصل منه مراقبة الله، فتفقد

الحواس بأكل هذا المال الحياة التى تنال بها حلاوة التقوى، والمسارعة إلى العمل بمحاب الله ومراضيه، كما يفقد العضو المحترق القيام بخصوصيته من الحس والشم، أو الذوق، أو السمع، أو البصر ﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ قرىء الفعل بفتح الياء وضمها . أى : تشويهم نار السعير يوم القيامة .

قوله تعالى :﴿ يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيمًا ﴾ ﴿١١﴾

﴿ يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ سبب نزول هذه الآية مات عبد الرحمن بن ثابت، وترك امرأة يقال لها : أم كحة، وترك خمس أخوات . فجاء الورثة يأخذون ماله كعادة الجاهلية، فشكت أم كحة ذلك إلى النبى ﴿ ﷺ وآله﴾، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية . ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ ثم قال فى أم كحة : ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُم إِن لَّم يَكُن لَّكُم وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُم وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ﴾ وكان فى الجاهلية الأولى يعطون مال الميت للمقاتل من أبنائه، فلا يعطون البنات ولا الزوجات ولا الأولاد الصغار، فلما أنزل الله تلك الآية وفيها فرائض الميراث كرهها الناس وقالوا : يعطى المرأة الربع والثمن، وتعطى الابنة النصف، ويعطى الغلام الصغير، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم، ولا يحوز الغنيمة ؟!

اسكتوا عن هذا الحديث لعل رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾ ينساه، أو نقول له فيغيره . فقال بعضهم: يا رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾، أتعطى الجارية نصف ما ترك أبوها وليست تركب الفرس ولا تقال القوم ؟ وتعطى الصبى الميراث وليس يغنى شيئا ؟ فنسخ الله ما كان عليه الجاهلية، وأحكم بتلك الآية حكمه فى الميراث .

﴿ **فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ** ﴾ معنى هذه الآية الشريفة أن المتوفى إذا ترك أكثر من بنتين فلهن الثلثان، وللوالدين الثلث الآخر . وإن ترك ابنة واحدة فلها النصف، هذا إن كان الورثة نسباءً . وإن ترك ولداً ذكراً فقد بين الله تعالى ذلك بقوله :﴿**وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ** ﴾ يعنى جل جلاله أن المتوفى إذا كان له ولد فلأبويه الثلث، وللولد الثلثان ﴿ **فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ**﴾أى : فإن لم يكن له ولد ـــ لا أنثى ولا ذكر ـــ فلأمه الثلث . وبهذا الحكم ثبت أن يكون لوالده الثلثان كما بينته السنة، وفى هذه الآية بيان لفرض البنت الواحدة، ولفرض الأكثر من الاثنتين، ولم يبين فرض الاثنتين ولكن بينته السنة الشريفة .

﴿ **فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ** ﴾ اختلف العلماء فى الإخوة، فمنهم من قال : أقل الجمع اثنان . ومنهم من قال : أقل الجمع ثلاثة، وهو قول ابن عباس . وعلى قوله لا تحجب الأم عن فرض الثلث إلا إذا كان للميت إخوة ـــ يعنى ثلاثة فأكثر ـــ وعلى قول ابن عباس هذا فيكون للأم الثلث، وللوالد ثلث ما بقى، وللإخوة ثلثا الثلثين . فإذا مات الميت وليس له إلا أم وأب وأخ أو أخت فلأمه الثلث كما فرض الله لها لا يتغير نصيبها . وإذا كان له أخوان أو أختان فنصيبها لا يتغير أيضا، كما قال ابن عباس . ويتغير على قوله من العلماء، فيكون لها السدس . وقد ترك القرآن بيان حق الأخ الواحد أو الأخت

الواحدة اكتفاء بما بينه أن لها الثلث، إلا إذا كان للميت إخوة فلها السدس . ﴿ **مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ** ﴾ أخر الله الدين هنا ــ مع أنه مقدم شرعا على الفرائض والوصايا ــ لحكمة أرادها الله تعالى، هى أن الورثة لا يجدون مشاحة فى الدَّيْنِ، بل يدفعونه بصفاء من غير معارضة، ولكنهم يجدون فى الوصية غضاضة فى أنفسهم، فقدم الله الوصية حثا لهمم الورثة، وأَخَّر الدَّيْن لأنه لا مانع فى تنفيذه . وعلى هذا، فيكون الدَّيْن مقدما شرعاً، وتكون الوصية نافذة مادامت فى الثلث أو فى أقل من الثلث، فإذا زادت الوصية من الثلث كان للورثة الخيار فى تنفيذها .

﴿ **آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً** ﴾ يخاطب الله بهذه الآية المؤمنين، لعلمه سبحانه وتعالى بحرصهم على نفع أبنائهم، وميلهم إلى أن يكون المال كله لأولادهم، فبيّن الله لهم أنهم لا يدرون أأبناؤهم أنفع لهم فى الدنيا والآخرة أم أباؤهم ؟ وإن قال بعض العلماء : المراد بالنفع النفع يوم القيامة . ومتى كان الوالد صالحا تقيا، والولد باراً صالحا، انتفع بأبيه يوم القيامة أكثر مما ينتفع بابنه، بل الإحسان إلى الوالد مطلقا ينفع الله العبد به يوم القيامة، ولا ينتفع الوالد بالولد يوم القيامة إلا إذا كان صالحا تقيا يدعوا له . وفى هذه الآية بيان من الله تعالى للمؤمنين أن يحافظوا على إكرام الوالدين فى حياتهما، وعند موتهما، وعند موت من له مال يورث، حتى لا يجدوا غضاضة فى أنفسهم من إعطاء الوالدين حقوقهما التى فرضها الله لهما .

﴿ **فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ** ﴾ ﴿ **فَرِيضَةً** ﴾ منصوبة على المصدر، أى : فرضها الله تعالى فريضة، وهى السهم الذى حكم الله به لكل وارث خصوصاً للوالدين . وفى قوله تعالى : ﴿ **مِّنَ اللّهِ**﴾تأكيد للفريضة، حتى يكون منفذها فائزاً بخير الثواب من الله تعالى، ومانعها فاعلاً لكبيرة يعذبه الله عليها يوم القيامة .﴿**إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما**

حَكِيمًا ﴾ أكد الجملة بأداة التوكيد لتقوية الخبر . وقوله سبحانه : ﴿ **عَلِيماً** ﴾ أى: محيطا علما بما تقدمونه من الخير لأنفسكم، وما تعملون من الشر لمخالفة أمر الله تعالى فيما فرضه عليكم، فيجازى المطيع لأمره سبحانه بخير النعيم المقيم يوم القيامة، والمخالف بالعذاب الأليم، لأنه بحرصه على المال أقام الحجة على نفسه أنه مسلوب الرحمة والعطف والبر .﴿**حَكِيمًا** ﴾ يعنى تعالى أنه بيّن أحكام الميراث لحكمة عليّة، تتضمن الرحمة منه سبحانه، والعطف لخير أفراد الأسر والمجتمعات، فهو الحكيم جل جلاله فيما قدَّر من الأنصبة والسهام فى الميراث .

قوله تعالى : وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ

﴿١٢﴾

بعد أن بين الله سبحانه أحكام الميراث فى الوالدين والأولاد، أردف ذلك بالأحكام المتعلقة بالزوجية لأنه ميراث بالواسطة، فخاطب سبحانه الزوج قائلا : ﴿ **وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ** ﴾ ولد أى : ذكر أو أنثى، يعنى سبحانه وتعالى أن المرأة إذا ماتت وليس لها ولد ولا بنت، فلزوجها النصف مما تركت ﴿ **فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ** ﴾ فإن كان لها ولد فلزوجها الربع مما تركت ﴿ **وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن**

لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ﴾ أى : وللزوجة الربع مما ترك الزوج . إن لم يكن له ولد، فإن كان له ولد فلها الثمن مما ترك الزوج . جعل الله للذكر مثل حظ الأنثيين فى أحكام الزوجية، فللرجل النصف إذا لم يكن للمرأة ولد، ولها فى مقابل ذلك الربع . وللرجل الربع إن كان لها ولد، ولها فى مقابل ذلك الثمن . ﴿ **مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ** ﴾ ظاهر هذه الآية يفيد أن المسلم له أن يوصى بكل ماله، ولكن السنة عيّنت أن الوصية لا تصح إلا فى الثلث، والثلث كثير، وقد تقدم معنى هذه الآية .

﴿ **وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ** ﴾ الكلالة : هو من مات وليس له والدان ولا أولاد وورثه أقاربه، فإن كان له أخ من أم أو أخت من أم كما ورد فى قراءة بعض الروايات : وله أخ من أم أو أخت . يعنى أن الأخوة من أم إن كانوا اثنين فأكثر فحقهم الثلث، بدليل آية الكلالة التى فى آخر السورة وهى قوله تعالى : ﴿ **يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ** ﴾(١) ومعنى هذه الآية أن الأخت لأم وأب، والأختين لأم وأب، والأخوة لأم وأب ؛ حكمهم كما بين الله فى هذه الآية، وسنفصل هذا الإجمال عند شرحها. وتكون الآية التى نشرحها الآن بينت الأخ والأخت والإخوة من أم فقط . ﴿ **مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ** ﴾ تقدم الكلام عليها .

---

(١) سورة النساء آية ١٧٦.

﴿ **غَيْرَ مُضَآرٍّ**﴾والضرر فى الوصية أن يكرَه صاحبُ المال أن يكون ماله لمن يرثونه كلالة، فيوصى به لضررهم، أو يشترى شيئا رخيصا بثمن غال ليضيع المال، أو يدعى أن عليه دينا وليس عليه، وما أشبه ذلك . وكل ذلك لأنه يكره أن يكون المال لمن حكم الله لهم، ولا يكون ذلك إلا فى الكلالة . ﴿ **وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ** ﴾ أى : عظة من الله، يبين بها أهل الإيمان ما يحبه منهم ليرضى عنهم، لطاعتهم لله، وقيامهم بالواجب عليهم لذوى أرحامهم . ﴿ **وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ** ﴾ أى : محيط علما بما تكنه ضمائر عباده، فيعاملهم بحسب سريرتهم ونواياهم، حليم سبحانه، أى : ذو حلم لا يسرع بالعقوبة على من عصاه . وفى هذه الآية خوف وطمع لأهل الإيمان، وفى قوله تعالى : ﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ خوف يقتضى مراقبة الله تعالى فى معاملته، وفى قوله : ﴿ **حَلِيمٌ** ﴾ يقتضى الطمع فى العفو والمغفرة إذا تاب من الذنب .

قوله تعالى : **تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾**

﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ** ﴾ أى : تلك أحكام الله التي جعلها حدا فاصلا بين الفوز بثوابه سبحانه، وبين الوقوع فى مخالفته جل جلاله . ثم بيّن ما للمطيع من الأجر فقال تعالى اسمه : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ أى : من يسارع إلى تنفيذ أوامر الله تعالى مجاهدا نفسه فى ذاته سبحانه ﴿ **يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ** ﴾ أى : روضات يتنعم فيها بالنعيم المقيم، من غير عناء ولا مشقة، لأن أشجارها تجرى من تحتها الأنهار . ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ أى : أن من يدخلها يعيش فى أنس وبهجة، لا يخطر على قلبه ما يوحشه من ذكر الموت والفقر، أو تسليط ظالم، أو أمراض . بل يكون فيها خالداً أبديا فى لذَّة وسعادة لا نهاية لها، وذلك بسبب مسارعته لتنفيذ أوامر الله تعالى التى لم يحصل بسببها هم ولا كرب

فى الدنيا، ولا ضياع أوقات فى تنفيذها، ولكن الذى يعمله هى كلمة ؛ وهى الأمر بتنفيذ حكم الله فى تركته، فيفوز بهذه الملاذ دهر الداهرين .

ومسلم يتدبر أحكام الله، ويتدبر ما يناله من الخير العظيم بشىء قليل، وقهرته نفسه الأمارة بالسوء فيخالف أوامر الله تعالى فليس بمسلم فى الحقيقة، لأن مخالفته لأمر الله تعالى من الكبائر التى يدخل بها نار جهنم، من غير أن ينتفع بها فى الدنيا بشىء، ومن فقه قوله تعالى : ﴿ **وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ ــ الآية التى هى ختام لقوله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ الخ ــ الآية ــ والإشارة هنا إلى دخول الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار، والخلود فيها، والفوز معلوم . ﴿ **الْعَظِيمُ** ﴾ كلمة مجملة، بينت ما يتفضل الله به على من يسارع فى تنفيذ أوامر الله تعالى فى الميراث، وتفصيل هذه الكلمة فوق أن تعبر عنه الألسنة إلا بقوله تعالى : ﴿ **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾(١) وبيّن هذه الكلمة رسول الله ﴿ **ﷺ وآله**﴾ بقوله : ﴿ **فِيهَا مَا لاَعَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ** ﴾ فإن قول الله : ﴿ **عَظِيمٌ** ﴾ ليس كقول غيره سبحانه، فقد يكون العظيم عند الله تعالى رؤية جماله سبحانه يوم القيامة، والنظر إلى وجهه العلى العظيم، أو غير ذلك مما هو فوق العقول .

قوله تعالى : وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

معنى هذه الآية أن الله يتوعد الذين يعصون أمره الذى صرح به فى قسمة الميراث، وإعطائه لمستحقيه ممن فرض الله لهم الفرائض أو الأنصبة والسهام، وبين ذلك

---

(١) سورة الزخرف آية ٧١.

رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بالعمل والقول ﴿ **وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ فيما بينته لك، وبينه رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ بقوله وعمله ﴿ **وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ** ﴾ أى : يتجاوز ما جعله الله حدًّا فاصلا بين الحق والباطل مخالفة لأمر الله ﴿ **يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ أى : أن الله تعالى يُدخِل نار جهنم خالداً فيها كلَّ من خالف أمر الله، فلم يؤد للورثة من اليتامى والزوجات والوالداين حقوقهم التى أمر الله بها، بأن يطمع فى الميراث، أو يعطى غير من له حق لمنفعة نفسه، ويتجاوز حدود الله التى حدها لعبادة المؤمنين فى تقسيم أموال الموتى .

وفى قوله تعالى : ﴿ **يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا** ﴾ دليل على أن مرتكب معصية الله فى هذا الموضوع يكون بين أمرين : إما أن يكون مُنْكِراً أمراً معلوما من الدين بالضرورة، وبذلك يكون كافرا . أو يكون محادًّا لله فيقع فى النفاق الذى هو الكفر بالله، بدليل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ** ﴾(١) وقد وقع فى هذا أهل النفاق فى عهد رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾، كما ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن بعض المنافقين قال : كيف نعطى نصف المال لابنة صغيرة لا تدفع العدو ولا تحوز الغنيمة ؟ إنكارا لما أمر الله به . لأن المسلم لا يحرم الأيتام الصغار والنساء من مال التركة الذى فرضه الله لهم أبداً، ولا يعمل هذا العمل إلا منافق أو كافر . لأن الأيتام الصغار والنساء لا عائل لهم، فحرمانهم مما هو لهم شرعا كقتلهم، ولا تسلب الرحمة إلا من قلب شقى، حفظنا الله وإخواننا المؤمنين مما يوقع فى غضب الله تعالى .

---

(١) سورة النساء آية ١٤٥.

قوله تعالى : وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴿١٥﴾

بعد أن بين الله تعالى أحكام الميراث مبتدئا بالوالدين والأولاد، ثم بالأزواج، ثم بالكلالة، أردف ذلك بهذا الحكم، وهو بيان من يرتكب الفاحشة . وقبل أن نشرح هذه الآية نبين ما يتبادر إلى الذهن من فهم ظاهرها، وإن كانت الآية لا تفيده، لأن قوله تعالى : ﴿ وَاللاَّتِي ﴾ الكلمة التى هى جمع للتى، أو هى اسم جمع لا مفرد له من لفظه، وهى لجمع الإناث . وقوله تعالى بعد تمام الجملة :﴿وَآلَّذانِ وإن كان لنا أن نفهم تغلب الرجل على المرأة، لأنه يظهر أن الفاحشة فى قوله : ﴿وَاللاَّتِي ﴾ ﴿ وَآلَّذانِ ﴾ يؤخذ منهما السحاق بالنسبة للنساء، واللواط بالنسبة للرجال .

﴿ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ ﴾ يبين الله لنا حكم مرتكبي الفاحشة ـــ وهى الزنا، أن الحكم على النساء حبسهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا، وذلك بعد اعترافهن أو إثبات ذلك بشهادة أربعة من المسلمين . وفى هذه الآية إشارة إلى ستر الله عليهن، لأن هذا العمل لا يقع من بنى الإنسان إلا فى خلوة محجورة لا يراهما فيها أحد . فتقييد القرآن بأربعة فى شهادة الزنا الأمر الذى يكاد أن يكون متعسراً، وقوله ﴿ ﷺ وآله﴾ : (آدْرَأُوا الحُدُودَ بِالشُّبهاتِ) دليل على فحش الزنا دينا، وقبحه أمام الناس . كأن من يثبت عليه يكون موته عنده أخف عليه من فضيحته بين الناس . ولأن الاتهام به لا يثبت إلا بأربعة شهداء وقاية للناس من التهم الباطلة، التى هى أشد من القتل . ﴿ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ ﴾ أى

: ملائكة الموت . وحكمة ذلك أن من حكم عليه بالزنا أو عليها – انتشرت فضيحتهما بين الناس – يسلب منهما الحياء، فيقعان فى الزنا غير مبالين ،﴿**أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً** ﴾ وقد جعل الله لهن سبيلا، وهو الجلد للبكرين ،والرجم لغيرهما، أى : للمتزوجين .

قوله تعالى : وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾

﴿ **وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ** ﴾ أى : والرجل والمرأة – بتغليب الرجل على المرأة – اللذان يأتيان الزنا ﴿ **فَآذُوهُمَا** ﴾ بالتوبيخ والإذلال، ولو بالضرب بالنعال على رؤوسهما، حتى يحصل لهما الذل والخزى بين الناس ﴿ **فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا** ﴾ أى : فإن رجعا إلى الله بالتوبة والندم على ما وقع منهما، وأصلحا أعمالهما بإخلاص ﴿ **فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا** ﴾ أى : فاتركوا أذيتهما بعد التحقق من توبتهما وإصلاحهما ﴿ **إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا** ﴾ أى ك إن الله يقبل التوبة ممن تاب، ويرحمه إحسانا منه سبحانه وفضلا . وهذه الآية أيضا نسختها آية الزنا فى النور، إن فهمناها للسحاق واللواط فهي محكمة، وما بينه الله تعالى فيها من الأحكام يجرى على من وقع فى هاتين الفاحشتين، أعاذنا الله من كل الفواحش .

قوله تعالى : إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١٧﴾

افتتح سبحانه الآية بأداة الحصر بيانا لما يحله الله تعالى من العبد، وما يحبه العبد من الله تعالى عند قبول توبته، وعفوه عن ذنوبه . وقد بَيَّنَّا معنى التوبة وآدابها فى سورة البقرة . وهنا يبين الله شروط التوبة المقبولة بقوله : ﴿ **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ** ﴾ أى

: قبول الله تعالى التوبة من العبد فضلا منه وإحسانا، لا وجوبا عليه كما فهم ذلك بعضهم . فإن الله تنزه وتعالى عن أن يجب عليه لعبده شيء، فإن الواجب يكون على من احتاج لغيره، والله تعالى غنى بذاته عما سواه ومن سواه .

﴿ **لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ** ﴾ فهم بعضهم قوله تعالى : ﴿ **بِجَهَالَةٍ** ﴾ أى : يجهلون وعيد الله فى عمل السوء، وهذا الفهم لا تؤيده آيات التوبة فى القرآن المجيد، والذى ورد عن الصحابة رضي الله عنهم أن عامل السوء مطلقا سواء أكان عامل بجزاء الله تعالى عليه، أو جاهلا به حتى عمل السوء بجهالة، قال تعالى مخبرا عن يوسف الصديق : ﴿ **وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾(١) وقوله تعالى مخبرا عنه أيضا لإخوته : ﴿ **قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ** ﴾(٢) فظهر لنا أن فاعل السوء جاهلا به — سواء أكان عالما بعاقبته أو جاهلاً — يكون مقبول التوبة إذا تاب من قريب كما أخبر الله تعالى، سواء كان عالما بما توعد الله به عامل السوء أو جاهلا، وإلا لو فهمنا كما فهم من قرر أن قوله تعالى : ﴿ **بِجَهَالَةٍ** ﴾ أى : بجهالة جزاء عمل المسيء ؛ لما قبلت توبة من أذنبوا . لأن كل مؤمن يعلم حق العلم ما توعد الله به فاعل السوء . ومن يجهل حرمة الزنا وشرب الخمر والكذب والغيبة والنميمة وأكل مال اليتيم والربا ؟ الجواب : لا أحد، إلا من دخل فى الإسلام حديثا .

وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ **بِجَهَالَةٍ** ﴾ أى : برجوع إلى حقيقة الآدمية . قال الله تعالى : ﴿ **وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا** ﴾(٣) والعصمة من

---

(١) سورة يوسف آية ٣٣.

(٢) سورة يوسف آية ٨٩.

(٣) سورة النحل آية ٧٨.

الله تعالى للعبد بمواجهة العبد بوجهه الجميل مواجهة تجعله فى مراقبة دائمة . فإن الإنسان ــ من حيث هو إنسان ــ إذا لم يتفضل الله تعالى على حقيقته الإنسانية بزيادة أنواع من الخير هلك، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** ﴾(١) والحُبُّ غير المحَبَّب فهو الزيادة، والزينة ُ غير المزيَّن وهى الزيادة الثانية . وفى آية أخرى : ﴿ **أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ** ﴾(٢) والكتابة غير المكتوب فيه، والتأييد غير المؤيَّد، فلو وكل الله الإنسان إلى نفسه و لم يتفضل عليه بحب الإيمان وبزينته فى قلبه وبكتابته هلك . فكذلك هنا، إذا منح الله العبد هذه الأنواع من الخير سارع إلى محاب الله ومراضيه، فإذا التفت الله تعالى عنه بوجهه الجميل فحجبه عن مشاهدة محبة الإيمان، وزينته فى قلبه، وكتابته، رجع إلى جهالته الأولى فوقع فيما حرم الله تعالى، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ** ﴾ .

﴿ **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ** ﴾ أى : يرجعون بالتوبة والندم والإنابة إلى الله تعالى قبل وقوع آفات الموت، أو آيات نزوله، كرؤية ملائكة الموت، أو كالحشرجة، والغرغرة، وهى الآثار التى تسلب العقل، وتحير الروح، وتخرج الإنسان عن التكليف . وأما ما دام المسلم فى سلامة من تلك العلامات ــ ولو قبلها بِنَفَسٍ ــ وتاب، قبل الله توبته ما وفَّى شروط التوبة التى بينها الله تعالى فى هذه الآية . وقد شرحت نبذا من التوبة فى سورة البقرة قبل .

---

(١) سورة الحجرات آية ٧.

(٢) سورة المجادلة آية ٢٢.

﴿ **فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ** ﴾ الإشارة عائدة إلى من ذكرهم الله فى هذه الآية بقوله :﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُون السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ** ﴾ الآية، ويتوب عليهم أى : يقبل توبتهم، ويغفر سيئاهم، ويرجع إليهم بما يحبونه ﴿ **وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً** ﴾ . ﴿**عَلِيماً** ﴾ بمسارعة عباده التوابين إلى التوبة ﴿ **حَكِيماً** ﴾ يقبل التوبة بحكمته، ويغفر الذنوب ويبدلها بحسنات بمقتضى الحكمة العلية . ولفظ ﴿**كَانَ** ﴾ يراعى فيها : ولا يزال .

قوله تعالى : وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

بين الله تعالى فى الآية السابقة توبة المؤمنين وشرائطها، وأنه سبحانه يقبلها . وذكر فى هذه الآية توبة أهل النفاق، أو توبة العصاة من المسلمين الذين يلهيهم الأمل .

قال تعالى : ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ** ﴾ أى : وليست التوبة المقبولة كائنة للذين﴿**يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ أى : يرتكبون معاصي الله تعالى مع الغفلة عن التوبة وعن ذكر يوم القيامة ﴿ **حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ** ﴾ أى: إلى أن يحل بهم علامات الموت وآثاره، وييئسون من الحياة، ويتوبون توبة فرعون، أو توبة من يقول :﴿**رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ** ﴾ حيث أغلق باب التوبة فى وجوههم، فلا يقبل الله منهم توبة ولا معذرة . ﴿**قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ** ﴾ أى : رجعتُ ، فى هذا الوقت الذى فيه ينزع ملك الموت روحه. ﴿ **وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ** ﴾فى هذه الآية الشريفة بين توبة أهل الكفر بالله تعالى، الذين لا يقبل الله منهم صرفا ولا عدلا . ﴿ **أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ**

عَذَابًا أَلِيمًا﴾ اسم الإشارة عائد على الذين لم يقبل الله توبتهم، و ﴿ **أَعْتَدْنَا** ﴾ أى : أعددنا . وأعتد وأعدد بمعنى واحدة . والعذاب الأليم هو المؤلم .

قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴿١٩﴾

ينادى الله تعالى المؤمنين بقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ** ﴾ أى : صدَّقوا ﴿ **لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَآءَ كَرْهًا** ﴾ والميراث إما عن النساء كما كان يفعل الجاهلية الأولى، حيث كان الرجل إذا مات أبوه يضع ثوبه على زوجة أبيه فيقول : ورثْتُها كما ورثتُ ماله . وله عند ذلك أن يتزوجها، أو يعلقها فيمنعها من الزواج، أو يزوجها غيره، ولا يكون لأهلها تصرف فى ذلك . وسبب نزول هذه الآية أن أبا قيس بن الأسلت مات، فأراد ابنه أن يتزوج امرأته كعادة الجاهلية، فأنزل الله هذه الآية بيانا للمؤمنين أن زواج الولد زوجة أبيه محرم شرعا، وأن المرأة ليست ميراثا . وجائز أن يكون، لا ترثوا النساء ؛ نهيا عن ميراث أموالهن التى جعلها الله لهن من ميراث أو صداق . ﴿ **كَرْهاً** ﴾ الكُرْهُ بالضم ما يكره عليه الغير، والكَرْهُ بالفتح ما يضطر الإنسان للوقوع فيه كارها . وكانوا يرثون أموال النساء بأن يؤذى الرجل المرأة ويلجئها أن تفتدى منه بصداقها، أو بما معها من المال، أو بأن يحسبها فى البيت حتى تموت فيرث مالها . وفى هذه الآية بيان من الله تعالى لتحريم ما يفعله أقارب النساء ــ كالأخ والولىّ والقريب ــ من مضارة النساء حتى يمتن

ليرث مالهن، وفى ذلك من قسوة القلوب ومخالفة علام الغيوب ما يوجب غضب الله، وشديد عقوبته لمخالفته .

﴿ **وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ** ﴾ العضل : هو الحبس والمنع، فيقال : داء عضال، أى : يحبس الإنسان ويمنعه من قضاء حوائجه . فكذلك عضل النساء : حبسهن ومنعهن مما فرض الله لهن، وذلك صادر عن الزوج والولد والأخ والولىّ . ﴿**لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ** ﴾ أى : لتضيعوا عليهن بعض الصداق، أو بعض مالهن من الميراث . ﴿**إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ** ﴾ والاستثناء من أحكام السابقة فى الآية . والفاحشة أنواع : منها أن تكون المرأة حمقى شريرة سيئة المعاشرة مع الزوج، ومنها أن تبغض والديه وأقاربه وأولاده من غيرها، ومنها أن تخونه فى ماله، ومنها أن تكون زانية ويثبت عليها ذلك بشهادة أربعة شهداء . فإذا أتين بفاحشة مبينة ظاهرة لا تخفى ؛ حل للرجل أن يعضلهن فيحبسهن فى البيت أو يمنع منهن ما لهن .

﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ المعروف الذى يتعارفه أهل التقوى والرحمة، بالقيام لها بما يعفها ويغنيها عن الابتذال والامتهان بقدر طاقته ﴿ **فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ فإن كرهتم نساءكم، ودعاكم كرهكم لهن إلى المفارقة فعاشروهن على هذا الكره، فعسى أن تكرهوا معاشرتهن ويجعل الله فيها خيراً كثيرا، أى : يرزقكم منها بولد صالح يكون خيراً لكم وسروراً، أو يثيبكم على صبركم على معاشرتهن بالنعيم المقيم يوم القيامة، والخير فى الدنيا بقدر مجاهدة أنفسكم فى ذلك .

وقد فهم بعض العلماء فى قوله : ﴿ **فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا** ﴾ أى : فعسى أن تكرهوا المفارقة ويجعل الله فيها خيراً كثيراً، أى يعوض على المرأة برجل صالح

يكرمها، وهذا المعنى بعيد عن ظاهر الآية، فإن الله تعالى يرغبنا فى الصبر على أخلاق النساء، ويأمرنا أن نعاشرهن متحملين ابتغاء مرضاة الله .

قوله تعالى : وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ﴿٢٠﴾

﴿ **وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا** ﴾ كان الناس فى الجاهلية ــ بل وفى صدر الإسلام ــ إذا أحب الرجل امرأة أخرى وأراد أن يتزوجها ؛ شدد على زوجته الأولى أوسبها، لتفتدى منه بما أخذته منه أو ببعضه، فيضعه صداقا للثانية . فحرم الله علينا ذلك، وأمر سبحانه أننا إذا أحببنا زواج امرأة أخرى غير زوجتنا ؛ أن نبقى لها ما أعطيناه من مالنا من غير أن نأخذ منه شيئا، لا فرق بين أن يكون المال صداقا لها فحسب، أو شيئا زدناه عليه بعد زواجها . فإن الله لم يعين لنا نوعا من أنواع الأموال التى أخذَتْها وأطلق ذلك. ومن فعل ذلك، فأخذ ممن يريد التزوج بغيرها مالاً من ماله الذى أعطاه إياها وقع فيما حرم الله، فقد يؤاخذه الله فى الدنيا والآخرة، وقد يؤاخذه فى الآخرة فقط، لأن من يفعل هذا أغضب ربه بمخالفة أمره، وأثبت أنه مسلوب الرحمة من قلبه، والمؤمن يعامل ربه فيعطيه الله خيرا مما يتمناه فى الدنيا . ﴿ **أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً** ﴾ أى : أتأخذون ما آتيتموهن من الصداق وغيره ظلما من غير حق . ﴿ **وَإِثْماً مُّبِيناً** ﴾ أى : عقوبة مبينة لظلمكم وافترائكم الكذب ومضارتكم النساء . وفى ذلك من عقوبة الله تعالى فى الدنيا والآخرة ما يكرهه المؤمن لنفسه .

قوله تعالى : وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أى : حصلت الخلوة والجماع الذى جعل المهر حقا شرعيا لها . وقد فهم بعض العلماء أن الإفضاء هو الخلوة، بأن ينام الرجل مع امرأة فى لحاف واحد جامعها أو لم يجامعها . والحقيقة أن الإفضاء هو الجماع لا الخلوة فقط، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُن فَرِيضَةً ﴾(١) الآية، والمس هو الجماع . وعلى ذلك فقوله : ﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ أى : حصل الجماع بينكما الذى تستحق المرأة به كل الصداق، بل والنفقة عليها ثلاثة أشهر . ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أى : مغلظا، فأشهدتم على أنفسكم أن تقوموا لله بما أوجبه عليكم للأزواج .

قوله تعالى : وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَآءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلاً ﴿٢٢﴾

هذه الآية حكم من أحكام الله بِنسخ أوابد الجاهلية الأولى وعاداهم، فإهم كانوا إذا مات الرجل وله أولاد من غير زوجته التى مات عنها ؛ أتى كبير أولاده فألقى ثوبه على زوجة أبيه، وقال : إني ورثتُها كما ورثتُ ماله، ثم يتزوجها . فحرم الله ذلك على المؤمنين بقوله : ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَآءِ ﴾ أى : من الأزواج أو من الأيامى اللاتى نكحهن الوالد ﴿ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ استثناء من نكاح زوجة الأب، أى : ما سلف فى الجاهلية، فإهم كانوا على غير دين، وأهل الفترة لا يحاسبون على ما وقعوا فيه من محام الله التى تعودوها من غير أن يبيّن الله

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣٧.

لهم فيها الحرمة . وأهل الفترة هم الذين يكونون بين الرسل، فإن الرسل السابقين إذا مات الواحد منهم نسخت شريعته حتى يقوم رسول آخر، فكان ما بين الرسول والرسول من الأزمنة زمان فترة، حتى بعث الله حبيبه محمداً ﴿ﷺ وآله﴾ فختم به الأنبياء، وجعل دينه ناسخا لكل الأديان قبله .

﴿ **إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً** ﴾ أى : إن نكاح منكوحات الوالد أمر فاحش عقلا وشرعا . وكيف يرضى الرجل أن يتزوج زوجة أبيه، وينكح مملوكته ؟ ذلك ما لا يقبله العقل ولا الشرع، ولكن الجاهلية ــ أعاذنا الله منها ــ ليست لهم عقول تدرك الفضائل و الكمالات ﴿ **وَمَقْتًا** ﴾ أى : يمقته الله ويمقته العقل . ﴿ **وَسَاء سَبِيلاً** ﴾ أى : قبح عملا وطريقاً .

قوله تعالى : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا

﴿٢٣﴾

بعد أن بين سبحانه حكم الميراث، والزنا، وعاشرة النساء، بين لنا ما حرمه علينا من النساء أن ننكحهن، فقال سبحانه : ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ** ﴾ ووجه التحريم ظاهره وحكمته متضحة ﴿ **وَعَمَّاتُكُمْ** ﴾ والعمة ما يدلى نسبك إليها لرجل، والظاهر أن حكمة تحريمها المحافظة على البر والصلة، لما

يقع بين الزوجين مما قد يوقع فى العقوق والقطيعة، ومن جهة الصحة ــ أن الأسرة الواحدة إذا كانت مريضة بمرض وتزوج الرجل بالتى حرمها الله عليه لسبب القرابة يفشو هذا المرض وينمو، قال ﴿ ﷺ وآله﴾ : ﴿ **تَبَاعَدُوا لِئَلاَّ تَضْوُوا** ﴾ وقد ظهر ذلك فى علم الوراثة، فترى الرجل إذا زرع بذور الأرض فيها ضعف الزرع، ولذلك فإنه يأخذ بذور بلاد أخرى، حتى تصح الزراعة ﴿ **وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ** ﴾ وحكمة تحريمهن لما قررناه فى العمة .

﴿ **وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ** ﴾ وهذا الحكم مقيد بشروط :

١ ــ أن يكون الذى يرضع فى سن الرضاع الذى تتكون فيه الأعضاء من لبن المرأة.

٢ ــ وأن يرضع حتى يشبع ولو مرة واحدة، لا مصة ولا مصتين .

وحكمة ذلك اجتماعية وصحية ؛ أما الحكمة الاجتماعية : فالمرأة التى أرضعت الإنسان يجب أن ينزلها منزلة الأم احتراما وتعظيما وبرًّا . وأما الحكمة الصحية : فلأن التى ترضع الإنسان يجب أن تكون كبيرة عنه فى السن كبراً فاحشا، وزواج المرأة الكبيرة فى السن أثبت الأطباء أنه مضر بالرجل منهك لصحته وقوته .

﴿ **وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ** ﴾ حكمة ذلك من جهة الصحة ما قررناه قبلا، ومن الوجهة الاجتماعية كراهية قطيعة الرحم وعقوق الأم من الرضاع .

﴿ **وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ** ﴾ لأن زواج أم الزوجة موجب لعقوق الوالدة، والحرب بين البنت ووالدها، وبعد ومت الزوجة دليل على فقد الحرمة من قلب الزوج وأم الزوجة، وفقد الفضيلة وحرمانه من واحدة منهما يوم القيامة، لأن الله لا يجمع

بينهما يوم القيامة كما حرم ذلك فى الدنيا، ورجل وامرأة يحرمان الحياء والفضيلة والوفاء بالعهد ضعيفا الإيمان، وقد حرم الله ذلك .

﴿ **وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ** ﴾ هذه الآية الشريفة بينت أن مجرد العقد لا يتعلق به الأحكام التى تعلقت بالنكاح ،وقد حرم الله الربيبة بشروط :

١ ــ الشرط الأول : الجماع بعد العقد، فلو عقد عليها و لم يجامعها جاز له أن يتزوج ابنتها .

٢ ــ الشرط الثاني : أن يكون الربيبات فى حجور أمهاتهن، أى : فى الرضاعة، لأنهن فى هذه الحال يرضعن فى زمان ماء الرجل، فيكون حكمها كحكم ابنته من صلبه، لأنها رضعت من أمها وزوجها ينكحها . وقد فهم بعض العلماء أن الرجل إذا تزوج امرأة ونكحها ؛ وكانت لها بنت كبيرة عند زواجه بأمها جاز له أن يتزوجها بدليل قوله تعالى : ﴿ **وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم** ﴾ أى : فى حجر الرجل والمرأة، وإن كان العامة على غير هذا الفهم . ﴿ **فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ** ﴾ أى : فإن لم تكونوا جامعتموهن، بل عقدتم عليهن فقط ثم طلقتموهن، وآتيتموهن نصف ما جعلتم لهن، فلا جناح على الرجل أن يتزوج ابنة زوجته .

﴿ **وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ** ﴾ كما حرم الله على الولد أن يتزوج زوجة أبيه؛ حرم على الأب أن يتزوج زوجة ابنه إذا مات أو طلقها، وحكمة ذلك ظاهرة عقلا واجتماعا، وقيد حلائل الأبناء بأنهم من أصلاب الآباء ليخرج من يتبنى ابنا من غيره، فإن الرجل إذا تبنى رجلا من غيره لنفسه، له أن يعطيه ما شاء فى حياته، ولكن إذا مات الرجل فليس للولد أن يرثه، وله أن يتزوج امرأته، وللرجل أن يتزوج زوجة ابنه المتبَنَّى .

﴿ **وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ** ﴾قبل الإسلام، فإن تحريم الشىء لا يكون إلا بحكم الله وبيانه . وأما ما سلف فكان الرجل يتزوج الأختين فى دار واحدة، ينكحها كما ينكح الرجل الأجنبيتين اللتين على ذمته .

﴿ **إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ يعنى بذلك تبارك وتعالى أن الله غفور لذنوب عباده الذين تابوا بعد وقوعهم فيها، ويغفر ذنوب من جمع بين الأختين فى الجاهلية، فلما أن حرم الله ذلك سارع إلى السمع والطاعة لرسوله ﴿ **ﷺ وآله**﴾، فترك الجمع بين الأختين . رحيم سبحانه بهم حيث يخفف عنهم ما هو صعب عليهم، ويبين لهم ما به الفوز بالنعيم المقيم يوم القيامة، ويكلفهم ويوفقهم للمسارعة إلى القيام بطاعته سبحانه، ويهديهم صراطه المستقيم، وصدق الله العظيم ﴿ **إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾.

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزاء الرابع ويليه الجزء الخامس وأوله ((والمحصنات من النساء ٠٠٠))

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تفسير قوله تعالى : (كل الطعام كان حلاًّ لبنى إسرائيل ...)	
بيان أن حرم إسرائيل على نفسه هو حرام عليه خاصة وليس حراماً على غيره	
جزاء من يفترون على الله الكذب	
بيان أن المسجد الحرام أول مسجد وضع للناس	
بيان ما فى البيت من الآيات البينات	
بيان معنى الاستطاعة الموجبة للحج	
بيان أن الإيمان حقيقة واحدة مكونة من خمسة أجزاء	
توبيخ أهل الكتاب على كفرهم بآيات الله الدالة على نبوة النبي ﴿ﷺ وآله﴾	
بيان فى الاعتصام بالله ونتائجه	
بيان فى التقوى	
أمر المسلمين بالاعتصام بحبل الله ونهيهم عن التفرق	
نعمة الله علينا ببعثة المصطفى ﴿ﷺ وآله﴾	
بيان فى معنى الأمة التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر	
نهى المؤمنين عن التفرق فى التوحيد كما تفرق من قبلهم من اليهود والنصارى	
بيان فى معنى بياض الوجه أو سواده، وحال الناس يوم القيامة	
بيان أن الملك لله فى الدنيا والآخرة	
الخيرية فى هذه الأمة ثابتة إلى يوم القيامة	

الموضوع **الصفحة**

بيان الخير الذى يناله أهل الكتاب لو آمنوا
الدليل على أن أذل الأمم هم اليهود وبيان الصفات التى بسببها ضربت عليهم الذلة والمسكنة
تفسير قوله تعالى : (ليسوا سواء من أهل الكتاب ...)
بيان فى ذكر صفات من آمن من أهل الكتاب ..
بيان أن الصالحين هم خلفاء الله فى الأرض
بيان عدم إغناء الأموال والأولاد عن الكفار
بيان فى أن الله يقبل الكافر صرفاً ولا عدلاً ولو اقترب إلى الله بخير الأعمال
حكمة نهى المؤمنين عن إتخاذ بطانة من دون المؤمنين
بيان فى وجوب الاحتياط فى معاملة اليهود والنصارى والمنافقين
بيان فى أن الكفار يحزنون إذا مس المؤمنين حسنة، ويفرحون لما يصيبهم من السوء
مخالفة أمر النبى ﴿ﷺ وآله﴾ سبب الهزيمة فى غزوة أحد
الصبر والتقوى هما سبب النصر فى غزو بدر
رأى الإِمام فى اختلاف المفسرين حول أمداد الله بالملائكة هل كان يوم بدر ؟ أم يوم أحد؟
بيان أن شرط الله تعالى للإمداد بالملائكة الصبر والتقوى
الحكمة فى انزال الملائكة هى تبشير المؤمنين وطمأنينة قلوبهم مع أن النصر من عند الله تعالى
عتاب الله للنبى ﴿ﷺ وآله﴾ على ما كان يتمناه للخلق

الموضوع **الصفحة**

أجمعين من هداية.
بيان أن الله لا يُسأل عما يفعل لأنه مالك كل شيء .
بيان أن السماوات كثيرة وأن الأرض واحدة
الدليل على تحريم الربا مطلق لا يتقيد ببلوغ الربا أضعاف رأس المال
تفسير قوله تعالى ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾
الدليل على أن الجنة مخلوقة وأن مكانها فوق السماء السابعة
أوصاف المتقين الذين أعدت لهم الجنة
شرط الاستغفار ألا يصحبه إصرار لأن الإصرار على الذنب كبيرة
بيان ما أعده الله للمتقين من جزاء
حث المؤمنين على النظر فى عواقب الأمم السابقة ليعلموا سنة الله فيهم
تخصيص البيان للناس عامة، والهدى والموعظة للمتقين
أحداث غزوة أحد
بيان أن التمحيص للمؤمنين والمحق للكافرين
الفرق بين الصبر والرضا
عتاب المؤمنين على مخالفتهم للرسول ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فى غزوة أحد
دفاع الصحابة عن رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ فى غزوة أحد
الشكر عمل والحمد قول
المؤمن يفضل ثواب الآخرة عن ثواب الدنيا

الموضوع	الصفحة
ترغيب المؤمنين فى الإقتداء بأنصار الرسل الذين لم تهن عزيمتهم	
إمتداح أتباع الرسل السابقين على حسن بلائهم وما كانوا عليه	
نهى الله للمؤمنين عن إطاعة الكفار وبيان المضار المترتبة على إطاعتهم	
بيان أن عقيدة التوحيد والأخلاق الفاضلة، يجمل الله بها من منحهم القابل لها	
الشرك الظاهر والشرك الخفى	
بيان فى صرف المؤمنين عن الكافرين وحكمته	
تفسير قوله تعالى : ﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ..﴾	
يقظة لقلوب أهل الإسلام الذين إذا خلا لهم المكان من الخلق هموا بعمل المعاصى	
الرد على المنافقين بأن خروجهم أمر لابد منه لسابق قدر ولابتلاء ما فى صدورهم ولتمحيص ما فى قلوبهم	
بيان أن من انهزم يوم أحد غير شاك بالله ورسوله ولا يَمُتَّ إلى النفاق بصلة قد عفا الله عنه	
بيان أن الله نهى المؤمنين عن التشبه بالمنافقين قولاً وعملاً	
اشارة إلى موت الإرادة	
رسول الله ﴿ ﷺ **وآله**﴾ بعثه الله رحمة العالمين لمن آمنوا ومن كفروا	
بيان فى نصر الله تعالى لأهل طاعته	
بيان أن الأنبياء معصومون لا يمكن أن تقع منهم الخيانة	

الموضوع	الصفحة
بيان إن اتباع رضوان الله يُحمل على عدة معان	
بيان أن الطائعين يتعاونون فى الثواب وأن العاصين يتعاونون فى العقاب	
بيان سر الهزيمة فى غزوة أحد	
مصائب يوم أحد كانت لتطهير الصحابة	
بيان أن المنافقين أقرب إلى نصرة أهل الكفر من نصرتهم لأهل الإيمان	
رأى الإمام فيمن نطق بشهادة التوحيد بلسانه	
بيان أنواع الحياة عامة وحياة الشهداء خاصة	
تفسير قوله تعالى: ﴿ يستبشرون بنعمة من الله ﴾	
سر عودة الرسول ﴿ **ﷺ وآله**﴾ لملاقاة الكفار بعد أحد	
بيان فى مقام الإحسان، وعودُ إلى التقوى	
سرعة إجابة الله لأحبابه وإغاثته لأوليائه	
نهى الله للمؤمنين عن الخوف من أهل الكفر بالله، وأمره بالخوف منه جل جلاله	
بيان أن المرتدين عن الإيمان محكوم عليهم بالذل والخزى فى الدنيا **وبتشديد العزاب يوم القيامة**	
بيان سبب حلم الله على الكافرين وصبره عن مباغتتهم بفادح العقوبة	
أنواع الغيب	
بيان معنى أمر الله تعالى للمؤمنين بالإيمان بالله ورسله	
البخل بالمال وعواقبه	

الموضوع	الصفحة
بيان فى قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء	
بيان أن القتل بحق محصور فى ثلاثة أمور	
بيان أن القرآن يمحق الفتن المضلة التي فتح بابها شر أهل اليهودية	
بيان أن القرآن المجيد دعوة وحجة	
تفسير قوله تعالى: ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ... ﴾	
بيان مصرع عدو الله ورسوله كعب بن الأشرف سيد اليهود	
رأى الإمام أبي العزائم في قبول الجزية من غير المسلمين الآن	
بيان أن اليهود من معاصرى رسول الله ﴿ ﷺ وآله﴾ كانوا يعرفون الحق ويكتمون	
الفرق بين من فرح بما أتى مما يغضب الله، وبين من فرح بما أتى من أعمال الصلاح والبر	
بيان أن سر الآيات من اختلاف الليل والنهار وخلق السماوات والأرض دليل على وحدانية الله تعالى	
بيان أن التفكر فى آلاء الله تُجلَى به اسرار تلك الكائنات	
بيان أن الحكم على مرتكبى الكبيرة بالكفر ليس مذهب أهل التحقيق	
بيان الفرق بين الذنوب والسيئات	
بيان أن المؤمن المقرب منكسر القلب أمام الرب جل جلاله	
بيان أن الفضل بيده سبحانه يختص به من يشاء	
هل انتهت الهجرة بعد فتح مكة ؟ أم ما زال بابها مفتوحاً ؟	
بيان أن متاع الدنيا لا يكاد يذكر بالنسبة لعذاب الآخرة	

الموضوع **الصفحة**

بيان أن خلود الكافرين فى النار هو عين العدل والرد على من زعم غير ذلك
بيان فى معنى أن الله تعالى سريع الحساب
بيان فى معانى الصبر، والفرق بين الصبر والمصابرة
بيان فى أن الصبر والمصابرة لا يتحققان إلاَّ بالعلم
أنواع المصابرة وضرورة مراعاة الحكمة فيها
بيان فى آداب المرابطة وشروطها
بيان عن المرابطة وتحققها فى حالتنا الحاضرة
عود إلى التقوى
تفسير قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس أتقوا ربكم ... ﴾
عود إلى التقوى
بيان فى أوامر الله تعالى للأوصياء بشأن أموال اليتامى
بيان فى كفاح اليتامى وغيرهم وبطلان رأى من يحل من النساء فوق الأربع
بيان فى وجوب أن تُؤتَى المرأة صداقها
بيان للأوصياء فى رعاية أداب وأخلاق اليتامى
بيان فى أن الإسراف فى مال اليتيم جامع لعدة كبائر
بيان أحقية الرجال والنساء فى الميراث و الحكمة فى أن للمرأة نصف ما للرجال
بيان حكم أكل مال اليتيم ظلماً
بيان فى أحكام الميراث
تفسير قوله تعالى : ﴿ ولكم نصف ما ترك أزواجكم ...﴾

الموضوع	الصفحة
بيان فى الوصية وأحكام الكلالة	
بيان عقوبة من يعصى أمر الله تعالى الذى صرح به فى قسمة الميراث	
بيان فى حكم مرتكبى الفاحشة من الرجال والنساء	
بيان فى شروط التوبة المقبولة	
بيان توبة أهل النفاق	
بيان تحريم أن يورث النساء كرهاً والنهى عن عضلهن	
بيان أحقية المرأة فيما أعطاه لها زوجها	
بيان المحرمات من النساء	
بيان شروط تحريم الربيبة	

من مؤلفات الامام المجدد السيد محمد ماضي ابوالعزائم

فى جانب تفسير القرآن :

١- هذا السفر الجليل " أسرار القرآن ".

٢ تفسير سورة القدر.

فى جانب العقيدة :

١- كتاب عقيدة النجاة .

٢- كتاب الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها.

فى جانب العلوم الفقهية:

١- كتاب أصول الوصول لمعية الرسول ﴿ﷺ وآله﴾.
٢- صيام أهل المدينة المنورة.
٣- هداية السالك إلى علم المناسك .

فى جانب السيرة النبوية والرد على المستشرقين:

١- سيرة النبى ﴿ﷺ وآله﴾
٢- وسائل إظهار الحق .

فى جانب ما يجب أن يعرفه المسلم :

١- النشأة الثانية.
٢- الوسيلة وما إختلف فيه من السنة والبدعة.
٣- الشفاء من مرض التفرقة.
٤- الجفر.
٥- تحذير الدين من بيع أراضى فلسطين.
٦- النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين.
٧- الرد على نظرية دارون.

فى جانب الأخوة الإسلامية :

١- الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﴿ﷺ **وآله**﴾.
٢- الإسلام وطن والمسلمون جميعا أهله.

فى جانب المناسبات الدينية :

١- السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج
٢- بشائر الأخيار فى مولد المختار

٣- مشارق البيان فى فضائل شعبان

٤- لبيك اللهم لبيك.

فى جانب المسرحيات الدينية :

١- محكمة الصلح الكبرى.

٢- العالم والتاجر والفلاح.

٣- المقتصد والمسرف والفاسد.

٤- السياسى والحكيم والغشيم.

٥- الصالح واللص والسكرى.

فى جانب الصلوات والأدعية :

١- نيل الخيرات بملازمة الصلوات.

٢- الفتوحات الربانية والمنح النبوية فى الصلاة على خير البرية.

٣- الأدعية والاستغاثات الكبرى.

فى جانب التصوف :

١- شراب الأرواح من فضل الفتاح.

٢- تذكرة المرشدين والمسترشدين.

٣- معارج المقربين.

٤- الطهور المدار على قلوب الأبرار.

٥- من جوامع الكلم.

٦- الطريق إلى الله تعالى.

٧- الفرقة الناجية.

٨- دستور السالكين طريق رب العالمين.

٩- دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك.

١٠- مصطلحات الصوفية

١١- آداب أل العزائم

١٢- دروس تزكية النفوس

١٣- موارد أهل الصفا

١٤- قبس من المضنون

١٥- الصوفية والتصوف

فى جانب المواجيد:

١- مواجيد شهر محرم، صفر، ربيع أول، ربيع آخر، جماد أول، جماد آخر، رجب، شعبان، رمضان.

٢- المواجيد العزمية فى مواجهة الروضة الحسينية.

٣- ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب.

أسرار القرآن

الجزء الرابع

للإمام المجدد السيد محمد ماضي أبي العزائم.

مسجده وضريحه ومكتبته العلمية بالقاهرة

ومشيخة الطريقة العزمية

السيدة زينب : تقاطع شارع مجلس الشعب مع تقاطع شارع بورسعيد

تليفون المكتبة/

002 022 3901030